ديفيد براكيه



الغنوصية

من نجع حمّادي إلى إنجيل يهودا

ترجمة : عبد الأمير حميد

مراجعة : د. عبد الستار جبر

الغُنوصيَّةُ مِنْ نجْع حمّادي إلى إنجيل يهودا

ترجمة: عبد الأمير حميد

مراجعة: د. عبد الستار جبر

الطبعة الأولى : 2024

978-9922-732-38-1

رقم الإيداع 3140 لسنة 2024

القياس : 17×24

عدد الصفحات: 262

دار ومكتبة عدنان

ترجم الكتاب عن النص الأصلي:

Gnosticism From Nag Hammadi to the Gospel of Judas

بالإتفاق مع دار نشر The Great Courses

Copyright ©The Teaching Company,2015

وجميع حقوق الطبعة العربية محفوظة لدى دار ومكتبة عدنان

منشورات دار ومكتبة عدنان

للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - بغداد - شارع المتنبي

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواءً أكانت ألكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والإسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

SCAN ME

AdnanPublishing

adnanlilbarary8865

دار ومكتبة عدنان

adnanpublisher97@gmail.com

ديفيد براكيه

الغُنوصيَّةُ

مِنْ نجْع حمّادي إلى إنجيل يهودا

ترجمة: عبدالأمير حميد

مراجعة: د. عبدالستار جبر

Gnosticism

From Nag Hammadi to the Gospel of Judas

Prof. David Brakke

The Ohio State University

2024

دار ومكتبة عدنان

الإهداء

إلى الأستاذ أبي زيد ... أخي

مقدمة الترجمة

قيلَ إنَّ الإنسانَ حيوانٌ يَسْألُ. ولقدْ كانَ سؤالُهُ الكبيرُ عَنْ الوجودِ أوّلَ أسئلتهِ مُنْذُ عصورِهِ الأولى التي امتلكَ فيها القدرةَ على التفكيرِ المنطقيِّ، ولا يزال هذا السؤال مدارَ الفكرِ الإنساني، وشاغلَ العقولِ الكبيرةِ، وهَمَّ الأذهانِ المتفكِّرة. يشهدُ على ذلك أساطيرُهُ وهي تُفَسِّرُ بناءَ الكونِ وتَحكي سِرَّ ما يحدثُ أمامَ عينيهِ في الطبيعةِ، وتُبَرِّزُ ما يتحرَّكُ في داخلهِ منْ عواطفَ ومخاوفَ. وتشهدُ لهُ ترانيمُهُ الدينيةُ وهو يخاطبُ مَنْ ظنَّهُ أصلَ الوجودِ، ومالكَ الأسبابِ التي تديرُ الكونَ والمجتمعَ.

لقدْ حارَ الإنسانُ ولا يزالُ في كُنْهِ الوجودِ وأصلِهِ وطبيعتِهِ ومنتهاهُ. وأنتجَتْ حَيْرَتُهُ هذا التأمُّلَ الذي صنعَ ملاحمَ وأساطيرَ كانَ لها عُمْقٌ، ظَلَّ حَيّاً، تؤوّلهُ عقولٌ منْ مُدَدٍ تاريخيّةٍ مختلفةٍ، ومدارسَ فكريّةٍ متنوّعةٍ على مَرِّ التاريخِ الفِكريِّ للبشريّةِ. وكثيرٌ ما بنى عليها الفكرُ الحديثُ مفاهيمَ ومقولاتٍ، فما أشبهَ الهمَّ الذهنيَّ للإنسانِ الحديثِ بإنسانِ عصرٍ كانَ قبلَ الآفِ منْ السنين في المسائلِ الكبرى. وكانتْ الغُنوصيّةُ واحدةً منْ تجاربِ الإنسانِ الفكريّةِ الكبيرةِ والمعقَّدةِ التي تمتدُّ في أصولِها، وفي وجودِها الى ما قبلِ المسيحيّة، وإنْ اشتهرتْ دراستها ضِمْنَ إطارِالدينِ المسيحيِّ.

ويتردَّدُ القولُ بأنَّ الغُنوصيّةَ هي دِينٌ، وفلسفةٌ، وأُسطورةٌ. وهو قولٌ عامٌ صحيحٌ في عمومِهِ. هي دينٌ، إذْ إنَّها تبحثُ في خالقِ الكونِ، وعلاقةِ الإنسانِ بهِ، وما يترتبُ على هذا الأمرِ منْ سعْيِ الإنسان مِنْ أجْلِ خلاصِهِ. وهي فلسَفةٌ لِأنَّها تتأمّلُ الكونَ حقيقةً، وأصلاً، ونهايةً. وهي أسطورةٌ مصنوعةٌ، كما نراها نحنُ. ولكلِّ دينٍ أسطورتُهُ، ولكلِّ فلسفةٍ أسطورتُها كذلك، لِأنَّ الثلاثةَ: الغُنوصيّةَ، والدينَ، والفلسفةَ تتأمّل الأمْرَ المُحيِّرَ في الوجود، كنهِهِ ومَعْناهُ. ولا يخلو الثلاثةُ منْ رُوحِ الشِعْرِ، أيضاً، لأنَّ الشِعْرَ العظيمَ حوارٌ معَ الوجودِ الغامضِ المُحيِّرِ، ومحاولةٌ في التَّقرُّبِ مِنْهُ، وكمْ مِنْ فلسفةٍ

هيَ قصيدةٌ عظيمةٌ طويلةٌ. وكمْ مِنْ دعوى دينيّةٍ لا تُفهَمُ إلّا بروحِ الشِعْرِ.

الغنوصيَّةُ رؤيةٌ دينيّةٌ استقَتْ منْ منابعَ أديانٍ عديدةٍ، منْ الدياناتِ اليونانيّةِ، والزرادشتيَّةِ، والهرمسيَّةِ، والمسيحيَّةِ. وليسَ للغُنوصيّةِ كتابٌ مقدّس مُعيَّنٌ، لكنّها فَسَّرَتْ وأوّلَتْ الكُتُبَ المقدَّسةَ على النحوِ الذي ينسجمُ مع رؤيتِها وفلسفتِها. وهي تَرجعُ في أصولِها الفلسفيَّةِ الى إفلاطون في مُثلِهِ وتَصوُّرِهِ للكونِ والوجودِ، كما تَرجعُ الى إفلوطينَ والإفلاطونيةِ الجديدةِ، ورُبما تَمتدُّ جذورُها الى زمانٍ أقدمَ مِنْ الاثنَيْنِ.

في بدايةِ المسيحيَّةِ الأولى، وقَدْ شَرَعَتْ في مسيرتِها شرقَ البحرِ الأبيضِ المتوسط، وكانَ زمانٌ عَجَّ بالأنبياء والمُخلِّصين الذين جابوا أطراف الشرق، وبالتأكيد كانتْ هذه ظاهرةٌ تاريخيَّةٌ عظيمةٌ ارتبطتْ بظروفٍ اجتماعية واقتصادية، أثَّرتْ في الرُّوحِ والفكْرِ لدى الإنسان، أشادَ قوْمٌ سَمَّوْا أنفسَهم «غنوصيين»، أيْ عارفينَ، بناءً فِكريّاً إنمازَ بأفكارِهِ المختلفةِ بدرجةٍ كبيرةٍ عمّا كانَ سائداً في محيطِهِ. وكانتْ أفكارهم تمتدُّ في جذورِها الى ما قبل المسيحيَّةِ منْ الفكْرِ اليونانيّ وما سبقَهُ.

تميزَ الغنوصيّون بخصائصَ، أهمُّها أنَّ دينَهم تجربةٌ قائمةٌ على المعرفةِ وليس على الإيمانِ، وهي معرفةٌ شخصيّةٌ سِريَّة ّتأمليةٌ، لكنَّهم مدّوا أصولَها الى شخصياتٍ في أديانٍ معاصرةٍ لَهُمْ كالمسيحيةِ في فهمٍ مخالفٍ للشائعِ في التقاليدِ المسيحيةِ. وقَدْ «اعتمدَ الغنوصيّون على المعرفةِ القائمةِ على التجربةِ الشخصيةِ، وهذا ما يميّزُ هذه المعرفةَ، وليسَ على الاعتقادِ أو الإيمان، منْ أجلْ بناءِ صورةٍ للكون.

والاستنتاجاتُ التي وصلوها منْ هذهِ الصورة: معرفةٌ بأصلِ الأشياءِ والطبيعةِ الحقّة للمادّةِ واللَحْمِ الجسديّ، ومعرفةٌ بمصيرِ العالمِ الذي ينتمي اليه الإنسانُ بقدْرِ ما تنتمي اليهِ المادّةُ التي صُنِعَ منها. هذهِ المعرفةُ التي جاءتْ من تأمُّلاتِهم أو تعاليمِهم السرّيَّةِ التي ادَّعَوْا صدورَها منْ يسوع أو أو أجدادٍ أسطوريّين قدْ قادتْهم الى رؤيةِ كلِّ الخلق الماديّ باعتباره صنيعةَ إلهٍ معادٍ للإنسان. أحسَّ الغنوصيون بأنَّ الحياةَ والفكرَ والإنسانَ ومصيرَ الكواكبِ عملٌ فاشلٌ و محدودٌ وفاسدٌ في أكثر أبنيته عُمْقاً.

كلُّ شيءٍ منْ النجومِ البعيدةِ حتى نواةِ الخليّةِ الجسميّةِ تحمل أثراً مادياً واضحاً لعيْبٍ ماديّ لا يُكافَح الّا بالغنوصيّةِ ووسائلِها. لكنّ هذا كانَ مصحوباً بقناعةٍ جذريّةٍ بأنّ في الإنسانِ شيئاً ما ينجو منْ لعنةِ هذا العالم. ثَمّةَ نارٌ، شرارةٌ، نورٌ صادرٌ منْ الهٍ حقيقيّ، إنّهُ ذلكَ الإلهُ البعيدُ، الغريبُ عن النظامِ المنحرفِ للكون. إنّ مهمةَ الإنسانِ هي أنْ يقومَ باستعادةِ موطنِهِ الذي ضاعَ منه بأنْ ينتزعَ نفسَهُ ويتحرّرَ منْ أشراكِ وأوهامِ الماديّ ليكتشفَ الوحدةَ الأصليّةَ مع الإلهِ الأعلى، ليعثرَ على مملكةِ هذا الإلهِ الذي لمْ يكنْ معروفاً، أو كان معروفاً على نحوٍ غير كاملٍ لدى الأديانِ السالفة».(1)

إذاً، عندما صُدِم الإنسانُ بعيبِ العالَمِ، وتناقضِهِ، وجد حَلاً في تقسيم الوجودِ الى عالَمَيْن: عالَمٍ دونيٍ هو الذي نعيشُ فيهِ ، وعالمٍ عُلويٍ هبطْنا اضطراراً منه. كما قَسّمَ السلطةَ بينَ إلهٍ صغيرٍ مسؤولٍ عنْ العيبِ والتناقضِ، وبينَ إلهٍ نهائيٍ كاملٍ نحملُ منه شرارةً تمكّنُنا عبْر التفكّرِ منْ الصعودِ الى عالَم الإلهِ الأعلى، ووسيلتُنا الى ذلك هو المعرفةُ (الغنوص)، لكنّها ليستْ المعرفةَ بالمعنى المعهودِ، بلْ هي معرفةٌ نظريةٌ تأمليّةٌ تعتمد على وَحْيٍ ادّعاهُ الغنوصيّون ونقلوه روايةً ربطوها بأحداثٍ يتحدّثُ عنْها آخرون لكنّهم أوصلوها الى غيرِ نهاياتها المعروفةِ، وبهذا صَنعوا منْ هذهِ الرواياتِ أسطورةً تُفسّرُ معماريتُها سِرَّ الوجودِ وتركيبَهُ. وهذه خصيصةٌ أخرى للغنوصيَّة وهي تقسيمُها الوجودَ الى وجودَيْن: حقيقيٍ، وزائفٍ، وتقسيم الإلهِ أيضاً الى إلهٍ متعالٍ كليٍ، وإلهٍ هابطٍ ناقصٍ. هذا هو هيكلُ العمارةِ الغُنوصيّةِ الذي بُنيَتْ عليهِ. ولَمْ يقتصرْ التصحيحُ على عَيْب العالَم، بلْ شمل عيبَ الرواية التكوينيَّة، خصوصاً، أكلَ آدم وحواء منْ شجرةِ المعرفةِ، فَلِمَ يعارضُ اللهُ أنْ يكون لآدمَ وحواءَ معرفةٌ، وبعدَ ذلكَ كيفَ فقدا هذهِ المعرفةَ؟

(1) The Gnostics, Jacques Lacarriere, translated from French, Peter Owen-London, 1977, intr.

لمْ تكنْ الغنوصيةُ تتطوَّر في معزلٍ عمَّا سادَ منْ أفكارٍ، خصوصاً وهي قدْ تعاملتْ بمفاهيمَ وأسماءَ تنتمي الى المسيحيّة، وكانَ لابدَّ مِنَ المواجهةِ، خصوصاً إنَّ الفكرَ السائدَ كانَ لديهِ مؤسساتُهُ التي كانتْ تحرسُهُ، وقدْ مثّلتْ المسيحيَّةُ دينَ إمبراطورياتٍ وممالكَ، وحرستْ مصالحَ أشخاصٍ وفئاتٍ. فأُدينتْ الغُنوصيّةُ باعتبارها هرطقةً، وعانتْ منَ الاضطهاد والحرمانِ الدينيّ والعداءِ الفكريّ والاجتماعيّ ما عانتْهُ، حتى جاءَ العصرُ الحديثُ فنقبَّ في أفكارِها، وبحثَ في تأثيرِها في دياناتِ العالمِ ومذاهبِها وفي جذورها الممتدة الى زمانٍ سابقٍ للمسيحيَّة . ساعدَ على هذا اكتشافُ مخطوطاتٍ كتبَها الغنوصيّون أنفسُهم، وإلّا فقدْ كانتْ مصادرُ المعلوماتِ عنْ الغنوصيّةِ ما كتبَ أعداؤُها عنْها فقط. كما أفادَت منها تياراتٌ منْ الفكرِ الحديثِ وتأثّرتْ بها كرؤيةٍ عقليةٍ معرفيّةٍ.

وَقدْ «عرضَ النقّاد الأوائلُ والأكثرُ نفوذاً في محاولتِهم الانتقاصَ منْ الغنوصيّةِ، عرَضوها، في هيأة مادّةٍ مليئةٍ بالتفلسفِ الذي لا طائلَ منهُ، ومنتَجِ خيالٍ مُفرطٍ. وقدْ تحدَّى هذهِ الأفكار بجديّةٍ مفكرونَ بارزون منْ القرنين التاسعِ عشرَ والعشرين. وفي حينٍ إنَّ علماءَ الكتابِ المقدَّسِ قدْ أوضحوا الكثيرَ ممّا له قيمة مِنْ الكتبِ المقدَّسةِ الغنوصيَّةِ، أقرَّ فلاسفةُ الوجوديّةِ والفينومينولوجيا بالأرضيّةِ التي يتشاركونها معَ الغنوصيّة. وفي طرائقَ عديدةٍ، جاءَ الجهدُ الأكثُر قوةً الذي عملَ على إعادةِ تأهيلِ الغنوصيةِ من عالمِ النفسِ الكبير (كارل جوستاف يونج) الذي أدركَ الصوَرَ الأوليّةَ للاوعي الجَمْعيّ في الكتبِ الغنوصيَّةِ، ومنَحَ الثقةَ للأصلِ الرؤيويّ لمحتوى الوَحْي الغنوصيّ. كانَ لدى يونج اهتمامٌ استثنائيٌ بالغنوصيّةِ. كما تلتقي الغنوصيّةُ في مواضعَ عديدةٍ معَ علمِ النفْسِ التحليليّ لدى يونج. اعتبرَ يونج الغنوصيّين أصحابَ رؤيةٍ عبّروا عنْ افكارِهِم في أساطيرَ من الناحيةِ الأساسيّةِ. ويعودُ الفضلُ الى يونج في إعادة تأهيلِ أساطيرَ أُخَرَ، وهي مَهمَّةٌ قام بها على نحو واسع مع زملائهِ كارل كارنيجي، وهيريك زيمر، وجوزيف كامبل. وقدْ ارتأى يونج التأويلَ النفسيَّ بدلاً

منْ التأويلِ الميتافيزيقيِ للأساطيرِ الدينية، وهذا يعني أنّه عارضَ التأويلاتِ الدينيّةِ السائدةِ للكتابِ المقدّس واعتبرها ماديّة واختزاليّةً. والأساطيرُ الغنوصيّةُ تمنحُ نفسَها بسهولةٍ للمعالجةِ الرمزيةِ، بدلاً منْ المعالجةِ الحرفيّة.(١)

وكما هي العادةُ في تاريخ الأفكار، يُشهَر سيفُ العداء على أفكارٍ معيَّنة، وتُشنُّ عليها حزبٌ شعواءُ، ثُمَّ تأتي أجيالٌ تعيدُ تقييمَها وتنتصرُ لمقالتِها، وقَدْ ترى فيها نقطةَ انطلاق لمفاهيمَ جديدةٍ تقيمُها هذهِ الأجيالُ الفكريّةِ. فَقَدْ لفتتْ الغنوصيّةُ اهتمامَ الكثيرينَ منْ المفكرينَ والأدباءِ، وحازتْ على اعجابِهم، ومِنْ هؤلاء فولتير، ووليم بليك، وهرمان هسّه وكثيرون غيرُهم. وتنالُ الآن اهتماماً كبيراً، وتُعتَنَقُ عقيدةً لدى الناسِ على نحوٍ متزايدٍ معَ تزايدِ أعدادِ مناهجِ التفكيرِ والرؤى التي يستعملها الإنسانُ في محاولةِ فهمِ الوجودِ التي لا تترددُ في الاستعانةِ بمناهجَ الماضي والصورِ التي رسمتْها العقولُ البشريةُ للكونِ والوجودِ في ما خلا من قرونٍ، خصوصاً في الأمورِ التي لم يأتِ لها الحاضرُ بجوابٍ قطعيٍ، أو واضحٍ. والغنوصيّةُ مُغريَةٌ بقدرٍ كبيرٍ في هذا الباب. بعدَ هذا، ما هي الغنوصيّةُ على نحوٍ أكثرَ تحديداً؟

محورُ الغُنوصيّةِ، ولبُّها هوَ (الغُنوص-gnosis)، بمعنى المعرفة، واليها يُنسَبُ الإسمُ والصفةُ في الانكليزية (gnostic)، بمعنى غُنوصيّ، ومنه اسمُها (gnosticism)، أي، الغُنوصيّة. وهذه المعرفة ليستْ بالمعنى المألوفِ، ولا تشملُ المعرفةَ العمليّة في الحياة. إنَّها معرفةٌ باللهِ لها طبيعةٌ خاصةٌ وأسلوبٌ متميز. والغنوصيُّ هو شخصٌ يسعى الى الخلاصِ منْ خلالِ هذه المعرفةِ، كما يسعى المسيحيُّ الى الخلاصِ منْ خلالِ يسوعَ. و تُميّزُ اللغةُ اليونانيّةُ بينَ المعرفةِ النظريّةِ والمعرفةِ العمليّةِ المستَحصَلة منْ خلالِ التجربةِ المباشرةِ، وهذه الأخيرةُ هي الغنوصُ، ومَنْ يمتلكُها أو يتوقُ اليها هو الغنوصيُّ. تقول (إيلين باجل) بأنَّهُ حسْب المعنى الذي يستعملهُ الغنوصيون

(1) Gnosticism: Stephan hoeller, electronic edition.

لمصطلحِهم، ربما يجبُ ترجمةُ كلمةِ (gnosis) بكلمة (insight) بمعنى، التبصُّرِ، أو الفطنةِ، لأنَّ الغنوصَ تشتملُ على عملية حذسٍ تشملُ المعرفةِ الذاتيةِ كلِّها، وكذلك، معرفةَ الحقيقةِ الإلهيَّةِ.(1)

وهكذا، يرى بعضُ العلماء أنَّ «الغُنوصيةَ تجربةٌ شخصيَّةٌ للدينِ. إنَّها تجربةُ الجوهرِ الحقيقيِّ للهِ، وهي لا تمثِّلُ دوجمائيةً جافةً، أو ذِكْرَ حقائقَ، بلْ، هي تجربةٌ شخصيةٌ للهِ ضِمْنَ التجربةِ البشريَّةِ. والغنوصُ تعني الحِكمةَ حرفيّاً، لكنَّها ليستْ حكمةَ الكُتُبِ. إنَّها وَمْضةُ الحِكْمةِ عندَ لقاءِ اللهِ».(2)

وتنوّعُ الشكلِ الخارجيِّ للغُنوصيةِ هو خصيصةٌ أخرى لها، وتتعلقُ بطبيعتِها، ففي ما يُسمّى بمكتبة نجْع حمّادي التي اكتشفتْ في النصفِ الأوّلِ منَ القرنِ العشرين والتي ضَمَّت مخطوطاتٍ وشذراتٍ من الكتاباتِ الغُنوصيةِ، يبدو التنّوع جليّاً. فقدْ تضمنتْ هذه الكتاباتُ الغنوصيةُ آراءً مختلفةً غالباً. ويميّزُ الغنوصيةَ أيضاً «غيابُ اقصاءِ الآخر، وهي ليسَ لها كتبٌ مقدَّسة مقرورةٌ دونَ غيرِها، بلْ، كتُبُها هي الكتبُ المقدَّسة للأديانِ الأُخَر. ويبدو أنَّ الغنوصيين يحبّون التعبيرَ عنْ تعاليمِهم بأساليبَ متعدّدةٍ، ويعتنونَ بِما يكتبون في الأسلوبِ، ولدَيْهم بلاغةٌ رائعةٌ الّا فيما ندرَ».(3)

وتستعملُ الغنوصيةُ التفسيرَ في معالجةِ النصوصِ الأُخَر التي تضمُّها كنصوصٍ تخصُّها وتجعلُها جُزءاً منْ أسطورتِها، وهذهِ خصيصةٌ أُخرى لها و «قدْ استُعملَ التفسيرُ الرمزيُّ الذي كانَ منتشراً على نحوِ عالميٍّ، منْ لدُنْ الغنوصيّين على نطاقٍ واسعٍ، واستعملهُ الغُنوصيّون كوسيلةٍ رئيسةٍ في إنتاجِ الفكرِ الغنوصيِّ تحتَ عباءَةِ كتاباتٍ أقدمَ، وفي مقدمتها الكتاباتُ المقدَّسة المتَّفقُ على مضامينها دينيّاً، وإنْ كانَ في هذا تشويهاً للنصوصِ الأُخَر إلّا أنَّ تفسيرَها يمكنُ تسميتُه تفسيرَ (احتجاجٍ)

(1) Ibid.

(2) The Gnostic Handbook, Institute for Gnostic Studies, Australia, 2000.

(3) Ibid.

بقدْرِ ما يصطدمُ بالنصِّ الخارجيِّ و بالتفسيرِ التقليديِّ».[1]

وخصيصةٌ أُخرى للغنوصيةِ هي أخذُها منْ تراثاتٍ مختلفةٍ مواداً تضعها في هيأةٍ مختلفةٍ وتمنحُها المعنى الذي تريدُه لها، فيكونُ المنتجَ الغنوصيِّ تجميعاً لأفكارٍ منْ أساطيرَ وموضوعاتٍ دينيةٍ منْ مناطقَ وثقافاتٍ متنوّعةٍ، وبينها اختلافٌ في الثقافةِ والدينِ، فقدْ أخذتْ من الفرسِ والهنودِ، واليونانيينَ، والمسيحيينَ، ومنْ الشرق الأقصى. وعلى هذا النحو، الغنوصيةُ «منتَجُ تلفيقيةٍ هيللينستيةٍ، أيْ، هي خليطٌ منْ التراثاتِ اليونانيّةِ والشرقيّةِ وأفكارٍ لاحقةٍ لفتوحاتِ الأسكندر الكبير».[2]

أمّا فيما يتعلقُ بالأسطورةِ الغنوصيّةِ، فإنّها وقدْ جُمِعَتْ منْ أساطيرَ شتّى، يظهرُ فيها أثرُ الصناعة إذا ما عورضتْ بالأساطيرِ الأقدمِ منها التي تبدو أكثرَ أصالةٍ، وهذا أمرٌ لابدَّ مِنْ ظهورِهِ فيما يُستَعملُ بناءً على أصلٍ سابقٍ. لهذا «يرى البعضُ أنَّ القولَ ممكنٌ بأنَّ الغنوصيةَ ليسَ لها تراثٌ خاصٌّ بها الّا ما استعارتْهُ. والميثولوجيا التي جاءتْ بها هي تراثٌ صُنِعَ بوعيٍ من مادّةٍ جديدةٍ».[3]

المعرفةُ الغنوصيةُ التي تُسمّى الغنوصَ ذاتُ محتوىً دينيٍّ يقومُ على الفداءِ على وساطةٍ سماويةٍ وليسَ على بحثِ الفردِ. هذهِ المعرفةُ يأتي بها وحيٌ لا يحصلُ عليهِ الّا النُخبةُ المختارةُ القادرةُ على تلقّي هذا الوحيِ وبهذا فهي معرفةٌ باطنيّةٌ.[4]

بعد ما تقدم، اخترتُ هذا الكتابَ لِأنَّ فيهِ وضوحاً باختصارٍ مفيدٍ، وسلاسة عَرضٍ لموضوعٍ عُرِفَ بكونِهِ شائكاً. وقبلَ هذا، لِأنَّ مؤلفَهُ ممَّنْ تعمَّقوا وأبدَعوا في هذا الحقلِ، فمؤلّفُهُ البروفسور (ديفيد براكيه David Brakke)، أستاذُ التاريخِ في جامعةِ

(1) Gnosis: the nature and history of Gnosticism، Kurt Rudolph, translated from German, Harper SanFrancisco, 1984.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Ibid.

أوهايو، قدْ قضى تسعةَ عشرَ عاماً في قسمِ الدراساتِ الدينيةِ، وصدرتْ له كتبٌ كثيرةٌ وفي مدىً واسعٍ في تاريخِ وأدبِ المسيحيّةِ القديمةِ، وخصوصاً، في المسيحيَّةِ القِبْطيّةِ، والرَّهبانيّةِ الأولى، وفي صَيْرورةِ الكتابِ المقدَّسِ القانونيّ، وفي الغُنوصيَّةِ. وتسنمَّ مناصبَ عديدة كزائرٍ في العديدِ من الجامعاتِ الاميركيةِ الى جانبِ بحوثِهِ الكثيرةِ ونشاطِهِ البحثيّ المتواصلِ. والكتابُ في الأصلِ محاضراتٌ القاها براكه على طلبتهِ، وقد أبقيتُ الترتيبَ الداخلي للكتابِ على ما وضعه المؤلِّف عليهِ، مَعَ تغييرٍ طفيفٍ، وهدفي تقديمُ ما يفيدُ المُهتمَّ بهذا الموضوع. وأرجو التوفيقَ في هذا. ولابدَّ من مقال شكرٍ لجهود د. عبد الستار جبر في مراجعته للكتاب، فله الثناء الحسن والشكر الجزيل.

عبد الأمير حميد

بغداد ١٣/ ٦/٢٠٢٢ م

مفاهيم رئيسة[1]

الأيون (aeon): (كلمةٌ يونانيَّةٌ بمعنى العالَم الأبديّ). في الأساطيرِ الغنوصيَّةِ، الأيوناتُ كائناتٌ فاضتْ عنْ الله في هيأة أزواجٍ، ووُجِدتْ في البليروما.

وغالباً تشير أسماؤُها الى صفاتٍ رُوحيَّةٍ، أو عقليَّةٍ، منْ قبيل الحكْمةِ، أو الفكرةِ الأولى، أو الى مفاهيمَ غنوصيَّةٍ مهمَّةٍ منْ قبيل الإنسانِ، والرُّوحِ. والأيونُ الأكثرُ شيوعاً في الأساطير الغُنوصيَّة هو الحكمةُ (Sophia). وفي الغالبِ يدخل أيونٌ في خلق البشر بمنحهِ الإنسانَ رُوحاً، في موقفٍ مُضادٍ لرغبات الديمارج (الإله الصانع الأدنى) وأركوناته (الحكّام الذين يعملون في إمرته). ويُعرَف الديمارج بأنَّهُ يخلق النفْسَ (soul) والجَسَدَ.

الأركون أو الأرخون (archon): (منْ اليونانيَّةِ بمعنى الحاكم). في الأنساق الغنوصيَّة، الأركوناتُ عددٌ هائل من مساعدي الديمارج، وهُمْ عادةً مسؤولون عنْ خلق جسد الإنسان. وهناك عددٌ منْ الأركونات تُعتَبر أحياناً خالقةً، أو باعثةً للحياة في مكوِّنات متنوّعة من الجسد البشريّ (الأطرافِ، الأعضاء، الخ). والأركوناتُ لها دورٌ سلبيٌّ، فهي تقيّد النوازعَ الرُّوحيّةَ البشريَّةَ، وتوجّهُ شؤونَ الإنسان نحوَ الديمارج، وهي مسؤولة عنْ الطوفانِ وتدميرِ سدوم وعمورية وصلْب المسيح.

---

(١) اعتماداً على:

- A dictionary of Gnosticis, Andrew phillipp Smith, First Quest, 2009.
- Dictionary of gnosis and western esotericism، Wouter j. Hanegraff, Brill, 2006.

الديمارج، أو يالدابوث، أو الإله الصانع (**demiurge**): (مِنْ الكلمة اليونانيَّة demiurge بمعنى الحِرْفي، أو الصانع). أصل الديمارج في (تيماؤوس)[1] إفلاطون، وفيه، الديمارجُ إلهٌ خالق، وهي وظيفة يؤديّها في أغلب الكتابات الهرمسيَّة. في الغنوصيَّةِ، صار الديمارج إلهاً جاهلاً، أو خبيثاً شريراً. وهو مسؤولٌ عنْ خلق العالم الماديّ، وعنْ حالةِ سقوط البشريَّة. في النصوص الغنوصيَّة، من قبيلِ (كتاب الأسرار المنسوب الى يوحنّا، وكتاب (حولَ أصل العالَم). يُدعى الديمارج، على نحوٍ أكثر نمطيَّةً، بإسم (يالدابوث-Ialdabauth)، مع ذلك، تشيعُ تسميتُه باسم (سامائيل)، و(ساكلاس)، و(نبرويل). ويُنظَر اليه غالباً باعتباره موجِّهاً للشؤون البشريَّة، ويُماهى معَ إلهِ العهدِ القديم. وصورةُ الديمارج في النصوص الشِيثيَّة[2] هي أكثرُ سَلبيَّةً ممّا لدى أتباعِ فالنتينوس، حيثُ في هذه النصوص رُبما يشارك في الغالب في عملية الافتداء.

الله (**God**): في المسيحيَّةِ، الإلهُ الفردُ. في الغنوصيَّةِ هو الإله الأعلى (Godhead)، النهائيّ، الله الحقيقيّ منمازاً عَنْ الإلهِ الأدنى الديمارج الفاطرِ الذي هو في الغالب جاهلٌ وخبيث، وهو مَنْ خلقَ ونظَّمَ العالَمَ الماديّ.

(١) طِيمَاوُس: هي إحدى محاورات أفلاطون. كتب حوالي عام ٣٦٠ ق. م. وتبعه حوار كريتياس. فيها يُتناول موضوع الطبيعة ونشأة الكون والخالق. نقلها إلى العربية يحيى بن البطريق (٢٠٠هـ). وترجمت حديثاً أيضاً. (المراجع).

(٢) وهي النصوص التي تنسب لجماعة السيزيان Sethians (الشيثيين) الغنوصية، وهي إحدى الجماعات الغنوصية التي كانت تقدس شيث Seth، الابن الثالث لآدم، وكانت ترى، بحسب ما زعمته من أساطير أنه تجسد للمسيح، وكانوا ينظرون لأسطورتهم هذه كمقدمة لسفر التكوين، حيث يرجع وجودهم لما قبل المسيحية، وبعد المسيح طابقوا شيث مع المسيح كالإله المتجسد. وقد شرح القديس إيريناؤس معتقداتهم وأساطيرهم الخاصة بالله وخليقة الكون، والتي تتكون من أساطير شديدة التعقيد، تتلخص فيما قاله عنهم الكتاب المسمى بالكتاب السري بحسب يوحنا (أو يوحنا الأبوكريفي). (المراجع).

الأب (father): في العديد منْ الكوزمولوجيّات[1] الغُنوصيَّة، كما في المسيحيَّة الأرثوذوكسيَّة، يُعرَفُ الإلهُ الأعلى بإسمِ الأبِ. وفي بعض الأنساقِ الغُنوصيَّة كالشيثيَّة (نسبةً الى شيث ابن آدم) الأبُ هو جزءٌ من ثلاثيَّةِ الأبِ، والأُمِّ، والطفل (child).

البليروما (pleroma): (منْ اليونانيَّة بمعنى الامتلاء، ويُسمَّى في الكتاب المقدَّس الملْء)، وهو العالَم السماويُّ للأيونات، العالَم الرُّوحيُّ فيما وراءَ العالَم الماديِّ المخلوق. وفكرة البليروما الممتلئة بكائنات فاض بها اللهُ النهائيُّ هي فكرةٌ أساسيَّةٌ في الكوزمولوجيّاتِ الغُنوصيَّةِ.

الخطيئة (sin): في المسيحيَّةِ، هي عاقبةُ تجاوز آدم وحواء بأكلهما ثمرةَ شجرةِ معرفة الخيْر والشَّر. ولا يمكن أنْ يُخَلِّص البشريَّةَ منْ هذهِ الخطيئةِ الّا المسيحُ. في عقيدةِ الغنوصيَّة القديمة، لمْ تكن الخطيئةُ مبدأً أساسيَّاً، ولمْ يكنْ سقوطُ الإنسان بسببِ خطيئةِ البشريَّة، بلْ بسببِ أيونِ الحِكْمة.

الحكمة (sophia): (من اليونانيَّة) شخصيَّةٌ محوريَّةٌ في الأسطورة الغُنوصيَّة، وهي تمثِّلُ سجْنَ النَّفْس (soul) في العالَم الماديِّ وتحريرَها مُنطلقةً الى عالَم الرُّوح. قصَّةُ سقوط الحكمة قصَّةٌ متنوِّعة في النصوص الغنوصيَّة، لكنَّ العناصرَ المشتركة هي كالآتي: الحكمةُ هي الأيون الأدنى، وتمرُّ بتجربة سقوط تتسببُ في ظهورالكون الماديّ وظهور الديمارج (يالدابوث) الى الوجود. بعد ذلك، تعودُ الحكمة، على الأقلّ جزئيَّاً، الى موقعها السابق بوساطة أيون رُبما يُعرَفُ بإسم ((المنقِذ)). وتحدثُ العمليَّةُ نفسُها للبشَر، يمكنُ لأيِّ واحدٍ منْ البشر أنْ يُحرَّر منْ العالَم الماديّ.

ذاتيُّ النشوءِ (autogene): (من اليونانية بمعنى المخلوق ذاتيَّاً، أو الذي حُبِل به ذاتيَّاً)، وهو شكلٌ للإله قريبٌ منْ اللهِ الأعلى في العديد من فروعِ الغُنوصيَّة. وفي الأسطورة الشيثيَّة، هو واحدٌ منْ ثلاثةٍ يكوِّنون الكائناتِ العليا الى جانب الرُّوحِ غَيْرِ

(١) كلمه يونانية من شقين: كوزموس أي الكون ولوجيا أي دراسة. أي دراسة الكون او التصورات الفكرية عنه (المراجع).

المرئيَّةِ والباربيلو.

الباربيلو (barbelo): في الأنساق الغنوصيَّة الشيثيَّة، هي واحدة منْ الكائنات الثلاثة العليا، الى جانب (الرّوح غير المرئيَّة) و(ذاتيّ النشوء). وهي الأُمُّ السماويَّةُ، والأيونُ الأوّل الذي يصدر عنْ الإله الأعلى النهائيّ.

النَفْس (soul): نظرَ الغنوصيّون القدامى الى النفْس باعتبارها المفردةَ الوسطى في التقسيم الثلاثي: الجسَد، النَفْس، الرُّوح. وفي الغالب يُعزى خلْقُ النفس الى الديمارج، في حين تأتي الرُّوح منْ البليروما، وعلى رأيٍ، النفْسُ شخصيَّةٌ أنثوية هبطتْ الى الأرض في الجسَد، وعندما تعتمد النَّفْسُ على الجَسد فهي في حالةِ سقوطٍ، لكنَّها منْ خلالِ التوبةِ تقدرُ على الإتحاد مع العريس الرُّوحانيّ في غُرفةِ العرْس.

الرُّوح (spirit): هي العنصر الإلهيّ في ثلاثيَّة الجسَد، النَّفْس، الرُّوح. في العديد من الروايات الغنوصيَّة حولَ الخلق، يخلق الديمارجُ وأعوانُهُ الأركوناتُ آدمَ، لكنَّه لا يستطيع النهوض حتَّى يتلقَّى شرارةَ الرُّوح منْ أيونٍ ما، أو منْ البليروما. ولا يمكن عودةُ النوعِ البشريّ الى البليروما الّا من خلال الرُّوح.

غرفة العرس (bridal chamber): وهي صورةٌ شائعة في الكتابات المسيحيَّة، واليهوديَّة، والغنوصيَّة، لكنْ على نحوٍ خاص في النصوصِ الغنوصيَّةِ الفالنتينيَّةِ. وغُرفة الغرس كانتْ مكان إتّحاد العروسِ معَ العريسِ، وهو تعبيرٌ مجازيٌّ لإتّحاد النَفْس مع الرُّوح نتيجةً للغُنوص. وكانتْ غرفةُ العرس منْ الأسرار التي يُحتفل بها لدى الفالنتينيّينَ، لكنَّ تفاصيلَ الشكلِ الدقيق لهذه الاحتفالاتِ نادرةٌ.

الرُّوحُ القُدُس (holy spirit): في المسيحيَّة، هي العنصرُ الثالث في التثليث.

في الغنوصيَّة، غالباً ما تكون مساويةً للرُّوح الإلهيَّة لدى البشَر. في الأسطورةِ الأورفيَّةِ[1] التي وصفَها أيريانؤوس، هي شخصيَّة أنثويةٌ مُكافِئةٌ للمرأةِ الأولى.

الرُّوحُ غيرُ المرئيَّة (**invisible spirit**): أولى عناصر الثلاثيَّة الشِيثيَّة عنْ الثلاثيِّ العظيم: الروحِ غير المرئيَّة، والباربيلو، وذاتيِّ النشوء. وهي تكافيءُ الأبَ، أو المونادَ الأوَّليِّ.

نظريةُ الخلْقِ الغُنوصيَّةُ: النظريَّةُ الغنوصيَّةُ للخلْق تكرّرُ شرْحَ قصَّةَ الكتاب المقدَّس حول آدمَ وحواء. الأركوناتُ عادةً مسؤولةٌ عنْ المكوّناتِ المتعددةِ لجسدِ الإنسانِ، في حين ينفخُ الديمارجُ في النَّفْس، ويُترك لِعالَم البليروما مَنْحَ الشرارةِ الإلهيَّةِ التي تُحيي البشريَّةَ.

(١) الأورفية Orphism: اسم أطلق على دين كان يُعتنق ويمارس في اليونان القديمة والعالم الهلنستي، ارتبطت أدبياً بأسطورة أورفيوس. ظهرت هذه الحركة في القرن ٦ ق. م. متأثرة بعبادة ديونيسوس، ونسجت أفكارها حول أسطورة أورفيوس، والقصائد المقدسة التي نسبت إليه. وكان هدفها الأساسي معارضة النظام السياسي والديني اللذين كانا يحكمان العالم الإغريقي. (المراجع).

توطِئةُ المؤلِّفِ

الغُنوصيّةُ: مِنْ نجْعِ حمَّادي الى إنجيلِ يهودا.

مجالُ الدراسةِ:

الغُنوصيّةُ واحدةٌ مِنْ أكثر الظواهر إبهاراً وإثارةً للحَيْرةِ في التاريخ الدينيّ الغربيّ. وفي مركزِها، كانَ الغُنوصُ- المعرفةُ المباشرةُ باللهِ- قدْ عُبِّرَ عنهُ بأساطيرَ معقدّة. معَ ذلك، تستعصي الغنوصيّةُ في الغالب على أنْ تحيطَ بها معرفتُنا.

هلْ كانتْ الغُنوصيّةُ الهَرْطقةَ المسيحيّةَ العظيمةَ الأولى؟ هلْ كانتْ دِيناً عالميّاً جديداً؟ أو، هلْ هي ابتداعُ زعماءٍ مسيحيّينَ وعلماءٍ مُحدَثين قلقينَ؟ كيفَ أثّرتْ في الأديان الأُخَر؟ ولِمَ أثارتْ ميثولوجيا الغُنوصيّةِ إعجابَ العديدِ مِنَ النّاسِ؟ وقبلَ كلِّ هذا، ما تعني الغنوصيّةُ؟

في غضون الخمسةِ والسبعين عاماً المنصرمة، عادتْ الكتاباتُ الغنوصيّةُ المفقودةُ سابقاً الى الظهورِ ابتداءً مِنْ مخطوطاتٍ عُثرَ عليها قربَ مدينة نجْع حمّادي المصرية في العام ١٩٤٧ وحتّى إنجيل يوحنّا الذي نُشرَ في العام ٢٠٠٧.

منحتْ هذه النصوصُ العلماءَ عُمقاً جديداً في فهْمِ تنوّعِ الغنوصيّةِ. تستعمِلُ هذه المحاضراتُ التي تكوّن هذا الكتابَ هذهِ الكتاباتِ المكتَشفة لارتيادِ واستكشافِ الأساطيرِ والطقوسِ، والتعاليم الدينيّةِ لدى الغُنوصيّين الأوائل، وكذلك لدى الحركاتِ الأُخَر التي استعملتْ الميثولوجيا سعياً وراءَ معرفةِ اللهِ. قدَّمَ الغنوصيّونَ، والفالنتينيّون (نسبةً الى القديس فالنتينوس[1])، والمانويّون، والآخرونَ مِنْ غيرِهم أجوبةً عميقةً عَنْ

(١) كاهن روماني، قُتل في اضطهاد كلوديوس الثاني، في ١٤ شباط ٢٦٩م. (المراجع).

أسئلة عميقةٍ حولَ الوجودِ البشريّ، وعلى وجه الخصوص حولَ مشكلةِ الشرّ في هذا العالَم. وقدْ تطوّرتْ المسيحيّةُ الأرثوذوكسيّةُ، جُزئيّاً، كردٍ مباشرٍ على هذه الجماعاتِ.

في هذه المحاضراتِ، سنكتشفُ تنوُّعَ المسيحيّةِ المبكرةِ، بِدْءاً بما يُدعى المدرسةَ الفكريّةَ الغنوصيّةَ التي ازدهرتْ في الإمبراطوريّة الرومانيّة مِنْ خلالِ القرنَيْن الثاني والثالث للميلاد. في أعمالٍ منْ قبيلِ كتابِ الأسرارِ المنسوبِ الى يوحنّا، وإنجيل يهوذا، ركّبَ الغُنوصيّون سِفْرَ التكوينِ مع التراثِ اليهوديّ، والإفلاطونيّ، والمسيحيّ لخلقِ أسطورةٍ غريبةٍ، لكنْ، جميلةٍ، تفسّر كيفَ جاءَ هذا الكوْنُ الى الوجودِ منْ خلالِ إله أدنى خبيثٍ جاهلٍ. قدّم الغنوصيون خَلاصاً من الجهْل والقدَر بوساطة معرفة الإلهِ الأعلى الذي أرسلَ يسوعَ، وزعموا أنَّ الناسَ بإمكانهم أنْ يتصلوا عرفانيّاً مع الإله الأعلى (الله). ونقّحَ المعلّمُ المسيحيُّ فالنتينوس وتلامذتُهُ الأسطورةَ الغنوصيّة الأصليّة منْ أجلِ جعلِها أكثرَ تَمَرْكُزاً حولَ المسيحِ، ودعَوْا المسيحيينَ الى فهْمٍ أعمقَ للكُتبِ المقدَّسةِ، والقرابينِ المقدَّسةِ، والمبادىءِ المسيحيّةِ.

وُجِدتْ المدرسةُ الفالنتينية جنْباً الى جنْبٍ معَ المسيحيّةِ الأرثوذوكسيّة، وفي تنافسٍ معَها، لقرونٍ منْ الزمانِ. والإنجيلُ المنسوبُ الى توماس[1] لمْ يشتركْ في الأسطورةِ الغنوصيّةِ، لكنَّهُ تحدَّثَ عنْ كونِ معرفةِ الإنسانِ نفسَهُ تعني معرفةَ الله، بمعنى، يسوعُ الذي هوَ فيكَ، والذي هوَ أنتَ.

ابتداءً بهذه الجماعات المحوريّة ضِمنَ الغنوصيّة، سنتتبّعُ مساراتِ الغنوص، وصناعةَ الأسطورةِ، وأوجهَ الوَحْي الجديدة عبْرَ عالَمِ البحر الأبيض المتوسط القديم،

(١) إنجيل توما: هو أحد أناجيل المسيحية الأولى غير المعترف بها كَنسيًّا الذي يعتقد عديد من الباحثين أنه يسلط الضوء على الروايات الإنجيلية المنقولة مُشافهةً. اكتُشف إنجيل توما بالقرب من نجع حمادي بمصر في ١٩٤٥، ضمن العديد من المخطوطات التي عُرفت باسم مخطوطات نجع حمادي. يعتقد الباحثون بأن تلك المخطوطات دُفنت بعدما كتب أثناسيوس الأول بابا الإسكندرية رسالةً صارمةً حدّد فيها الكتب المقدسة القانونية وفق المعتقد المسيحي. ويعتقد الباحثون أنه كُتب في فترة ما بين سنتي ٦٠-١٤٠م. (المراجع).

مروراً بالعصور الوسطى، وحتّى وقتِنا الحاضر. سنلتقي بماني الذي أسَّسَ ديناً عالميّاً هوَ المانويّةُ التي تركتْ آثارَها في فكرِ واحدٍ منْ أبطالِ المسيحيّةِ الكاثوليكيّةِ، القديسِ أوجستين(١). وسنلتقي إفلوطينَ والإفلاطونيّةَ الجديدةَ، وأتباعَ الإلهِ اليونانيّ- المصريّ هرمس مثلَّثِ العظَمةِ، والكاثار(٢) (المتطهِّرين) منْ أوربا القرونِ الوسطى، والمندائيّينَ الذين استمروا على اتّباع أسطورةٍ تشبهُ كثيراً الأسطورةَ الغنوصيَّةَ. سنسيرُ متابعين بولصَ(٣) الى السماءِ السابعة، ونعرف التعاليمَ السريّةَ ليسوعَ منْ مريمَ المجدليّة. وسنرى كيفَ إنَّ مسيحيّينَ أرثوذكسيّينَ، مِنْ قبيل أيرياناؤوس(٤) منْ مدينة ليون،

---

(١) القديس أغسطينوس (٤٣٠م): كاتب وفيلسوف من أصل نوميدي-لاتيني، ولد في طاغاست (حاليا سوق أهراس، الجزائر). يعد أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية. تعدّه الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديساً، وأحد آباء الكنيسة البارزين، وشفيع المسلك الرهباني الأوغسطيني. يعدّه العديد من البروتستانت، وخاصة الكالفنيون أحد المنابع اللاهوتية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي حول النعمة والخلاص. وتعدّه بعض الكنائس الأورثوذكسية مثل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قديسا. (المراجع).

(٢) الكاثار وتعني الطاهر: هي حركة مسيحية لها جذور غنوصية أو إحيائيّة بدأت في منتصف القرن الثاني عشر. وانتعشت في بعض مناطق أوروبا الجنوبية، ولا سيما ما هو الآن شمال إيطاليا وجنوب فرنسا، بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر. كان يُعرف الأتباع باسم الكاثار، والآن يتم تذكرهم بشكل رئيسي لتعرضهم لحقبة طويلة من الاضطهاد من قبل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، والتي لم تعترف بإيمانهم على أنهم مسيحيون. (المراجع)

(٣) بولس الطرسوسي ويعرف عند المسيحيين بأنّه بولس الرسول أو القديس بولس: هو أحد قادة الجيل المسيحي الأول، وينظر إليه البعض على أنه ثاني أهم شخصية في تاريخ المسيحية بعد يسوع نفسه. يعرف من قبل المسيحيين برسول الأمم؛ حيث يعتبرونه من أبرز من بشر بهذه الديانة في آسيا الصغرى وأوروبا. (المراجع).

(٤) القديس إيرينيؤس أو إيريناؤس الليوني: أسقف ليون (في الغال، فرنسا)، أبو التقليد الكنسي، (١٣٠-٢٠٢ م). يُحسب أحد رجال الكنيسة العظماء في القرن الثاني، وضع أساس علم اللاهوت المسيحي، وتفسير الكتاب المقدس، كما أبرز بوضوح ودقة مفهوم الكنيسة اللاهوتي، لذا دُعي «أب اللاهوت المسيحي». (المراجع).

وأوريجين الإسكندراني[1]، قدْ ابتدعوا فكرةَ الهَرْطَقةِ، ونطّلعُ على مبادئِهم التي أقاموا عليها معارضتَهم الغنوصيّينَ والفالنتينيّين.

وتنتهي الدراسةُ بإحياء الموضوعاتِ الغُنوصيّةِ الرئيسةِ في القرْنِ العشرينَ في ثقافةِ البوبِ[2] والحركاتِ الدينيّة الجديدةِ.

بدراسةِ الحركاتِ التي كانتْ قدْ أُدينتْ واستُبعدَتْ باعتبارها مهرطقةً، ففُقِدَتْ، سنحصلُ على فَهمٍ جديدٍ لِعلّةِ تطوّرِ المسيحيّةِ الأرثوذكسيّةِ[3] على النحوِ الذي تطوّرتْ عليهِ، وسنلتقي مساراتٍ دينيّةً بديلةً في التراثِ الغربيّ، هي مساراتِ الغُنوص.

---

(١) أوريجانوس أو أوريجانس (١٨٥-٢٥٤): من أبرز أوائل آباء الكنيسة المسيحية. كتاباته هامة بوصفها واحدة من أولى المحاولات الفكرية لوصف المسيحية. عُيّن رئيساً لمدرسة الأسكندرية اللاهوتية. وكان نَشِطاً في تفسير الكتاب المقدس والدراسات الإنجيلية المُقارنة. وقد كتب أكثر من ٦٠٠٠ تفسيراً للكتاب المقدس، بالإضافة إلى كتاب «هيكسابلا» الشهير. (المراجع).

(٢) أشهرها حركة موسيقى البوب، وهو مصطلح مستمد من اختصار الكلمة لإنجليزية «popular»، والتي تعني «شعبية وشائعة». وهي نوع من الموسيقى الشعبية التي نشأت في أشكالها الحديثة في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة خلال منتصف خمسينيات القرن العشرين. (المراجع).

(٣) الخطِّ العامِ السائدِ للمسيحيّة. (المترجم).

-١-

إعادةُ اكتشافِ الغُنوصِ

إعادةُ اكتشافِ الغنوص (gnosis)

في هذه الدراسةِ، سندرسُ طائفةً من النصوصِ الدينيّةِ والأشخاصِ والجماعاتِ التي ترجعُ في تاريخها الى الإمبراطوريَّة الرومانيّة في القرونِ الأربعِ الأولى منْ العهْدِ المسيحيّ. وسنجدُ أنَّ هذهِ النصوصَ ومَنْ كتبَها كانوا متنوّعين في تعاليمِهم وَنمَطِ حياتِهم. لكنَّ الجميعَ يتشاركون رغبةً في المعرفة (gnosis في اليونانيَّة)، وجميعُهم عانى النّبْذَ واللّعْنَ ممّا صارَ لاحقاً المسيحيّةَ الأرثوذوكسيَّةَ (الخطَّ العامّ). الحركاتُ التي يُسمّيها العلماءُ بمُسمّى (الغُنوصيَّة -Gnosticism) رُبما كانتْ قَدْ صُنّفَتْ (هَرْطَقَةً)، لكنَّها كانَتْ محاولاتٍ عميقةً ومُقْنعةً في مناقشةِ الظرْفِ الأنسانيّ بخصوصِ الشّرِّ والألَمِ، كما إنَّها قد أثَّرَتْ في تاريخ الأديانِ الغربيّةِ.

اصطلاحاتٌ تعريفيَّةٌ:

• الكلمةُ الإنكليزيةُ (Gnosticism) كانتْ قدْ ابتكرها عالمٌ إنكليزيٌّ منْ القرْنِ السابعِ عشر، لكنَّه ابتناها على أساسِ الكلمة اليونانية (gnosis) التي تعني المعرفةَ الشخصيَّةَ المباشرةَ. وقدْ ادَّعى الغُنوصيّون القدامى مِلكيتَهم لمعرفةٍ باللهِ.

• الصفةُ، وأيضاً الاسمُ (Gnostic) تنحدرُ منْ الكلمةِ اليونانيَّةِ (Gnostikos) التي كانتْ تعني «مَنْ عليهِ التعاطي معَ المعرفةِ»، أو «مزوّدَ المعرفةِ». بعبارةٍ أخرى، العِلمُ الغُنوصيّ يأتي بمعرفةٍ عليا، في معارضةٍ معَ المعرفةِ العمليَّة.

• استمرَّ الفلاسفةُ المتأخرون في استعمالِ مصطَلحِ (gnostikos) للإشارةِ الى حقولٍ دراسيَّةٍ، أو للإشارةِ الى جوانبِ العقلِ البشريّ. معَ ذلك، على مشارفِ العامِ المائةِ والثمانين للميلاد، كشفَ زعيمٌ مسيحيٌّ كان يدعى (إيريانؤوس) عنْ أنَّ مسيحيّين معيَّنين كانوا يستعملون مصطلحَ (عارف- gnostikos) للإشارة الى

أنفسِهم. وهذهِ هي المرّةُ الأولى في التاريخِ التي نعرفُ فيها أناساً يُسمَوْن غُنوصيّينَ (gnostics). والواضحُ أنَّ هؤلاءِ الغُنوصيّينَ- العارفينَ- الذين أعلنوا عنْ أنفسهم بهذه الصفةِ كانوا يؤكِّدونَ علاقتهَم الخاصَّة بالمعرفة (gnosis).

أفكارٌ غنوصيَّةٌ عامَّةٌ:

• كان أيريانؤوسُ ناقداً عنيفاً للغنوصيّين. والاشخاصُ والجماعاتُ التي أدانها أيريانؤوس كانَتْ لديهم افكارٌ رئيسةٌ معيّنةٌ مشتركةٌ على الرغْم مِنْ أنهَّم لا يَدّعُون الى المدَّعَياتِ نفسِها.

• أوّلاً، اعتقد الغُنوصيّون أنَّ الكون الماديّ الذي نعيش فيه هو كونٌ ناقصٌ ومعيبٌ على نحو خطيرٍ- بل، حتّى أنّهم زعموا كونَه غَلْطةً، شيئاً لمْ يقصدْ اللهُ أنْ يوجدَهُ. لدى الغُنوصيّينَ والآخرينَ إحساسٌ عميقٌ بعدَم الكمال الذي يحيطُ بنا ويضطهدُنا- المرضِ، الألمِ، والموتِ في العالم. مِثلُ هذا العالَمُ لا يمكن أنْ يكون، ببساطةٍ، موطنَنا الحقيقي، لا يمكنُ أنْ يكون المكانَ الذي أُريد لنا أنْ نعيشَ فيهِ الى الأبَدِ.

• وهكذا، خلُصَ الغُنوصيّونَ وآخرونَ، وهذا رأْيٌ مُشتَرَكٌ فيهِ، الى أنَّ الإلهَ الذي خلقَ هذا الكونَ لا يمكنُ أنْ يكونَ الإلهَ الأعلى النهائيّ. بلْ، يجب أنْ يكون هذا الإلهُ إلهاً أدنى - رُبما هو الهٌ شيطانيٌّ أو مُعادٍ للإنسان. عرَضَ الغنوصيّون معرفةً (gnosis) بالإلهِ الحقيقيّ، الإلهِ الذي هو رُوحيٌّ، ونقيٌّ، وثابتٌ، على نحوٍ كليّ، إلهٍ مستحقٍ لعبادتِنا ولحُبِّنا؛ إلهٍ ما عرَفَهُ أغلبُ البشَرِ.

• هذه نقطةٌ مهمةٌ في الصراع بينَ الغنوصيّينَ والمسيحيّينَ الآخرينَ. زَعَمَ الغنوصيّونَ أنَّ إلهَ سِفرِ التكوينِ ليسَ ألهاً حقيقيّاً، بلْ، هو إلهٌ أدنى.

• سنرى أنَّ هذهِ الفكرةَ لم تكنْ على درجةٍ منْ الاختلاف عمّا اعتقدهُ اليهودُ والمسيحيّون الآخرون بالقدْر الذي نتصورُهُ، لكنَّ الأمرَ هو أنَّ الغنوصيّين وجماعاتٍ تشبههم أكَّدوا دُونيّةَ إلهِ الكتابِ اليهوديِّ المقدَّس، أو العهدِ القديم، الى حدٍ

أثارَ خصومَهم.

• ثالثاً، مالتْ الحركاتُ الغنوصيّة الى تأكيد مسألةِ أنَّ أصلَنا موجودٌ في العالم الرُّوحيِّ للإلهِ الأعلى. بمعنى أنَّ ذواتنا (selves) الحقيقيَّةَ ليستْ في أجسادنا، وأحياناً يشمل الأمرُ نفوسَنا (souls)؛ هذه الجواهر تأتي منْ الكون الأدنى وهي ليستْ أبديَّةً. وبدلاً من ذلك، ذواتُنا الحقيقيَّةِ هي عقلُنا، أو، رُوحُنا (spirit) اللذان صدرا عنْ المملكةِ الرُّوحيّةِ ويعودان اليها. وجزءٌ كبيرٌ منْ المعرفة التي عرَضها الغُنوصيّون كانتْ معرفةَ بذواتِنا الحقيقيَّة.

• أخيراً، توجَّهتْ الحركاتُ الغنوصيَّة الى إيصالِ افكارها عَبْرَ أساطيرَ دقيقةٍ تخبرُنا عمَّا هو الإله، وكيفَ جاء الكونُ الى الوجود، وكيفَ كانتْ الموجوداتُ البشريَّةُ الأولى، وما سيحدثُ في المستقبل. وتَتَّبع هذهِ الأساطيرُ أنواعاً من التراثاتِ الدينيَّةِ والفلسفيَّةِ تشملُ الكتابَ المقدَّس اليهوديَّ، وأعمالَ افلاطون وحتّى الميثولوجيا الوَثنيّة.

ابتكرَ أفلاطونُ الصفةَ (gnostikos) لوصفِ مجالاتٍ دراسيَّةٍ وأجزاءٍ منَ العقلِ البشريِّ مرتبطةٍ بالمعرفةِ (gnosis).

مخطوطاتُ نَجْعِ حمّادي:

• تصعبُ دراسةُ الغنوصيين والجماعات الأُخَر ممّنْ يُدعَوْن بالمُهرطقينَ، ذلكَ أنّه لم ينجُ مِنْ مصادرَ هؤلاءِ الاّ القليلُ جداً. ولقرونٍ، كانَ على المؤرخينَ أنْ يعتمدوا على كتابات إيريانئوس ومناوئينَ آخرين للغنوصيّين مِنْ أجل الحصول على معلومات تتعلق بهم. إنَّ هذه المعلومات مفيدةٌ لكنَّها إشكاليَّة. ومؤرشفو الهَرطقةِ الذين صنّفوا وكتبوا عنْ المهرطقين لَمْ يكنْ همُّهم تقديمَ عرْضٍ موضوعيٍّ عنْ الهرطقات ليساعدوا المؤرخينَ المتأخرينَ عنْهم، بَلْ كانَ هدفُهم عرضَ صيغةٍ كاذبةٍ للتعاليم الهرطقيّة.

• لهذا السببِ أثار المؤرخين اكتشافُ مخطوطاتٍ لأعمالٍ غنوصيّةٍ وكتاباتٍ هرطقيّةٍ في مصرَ في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وكانَ أكثرُ هذه اللِقى أهميةً مخطوطاتِ (نجع حمّادي) فقدْ عُثِرَ على ثلاثة عشر مخطوطاً قديماً في العام ١٩٤٦. ومسألةُ كونِ هذهِ المخطوطات صحائفَ بدلاً منْ كونِها لفافاتٍ كانتْ الدليلَ الأوّلَ على احتمال كون أصحابِها الأصليّين منْ المسيحيّينَ.

• كانتْ هذهِ المخطوطاتُ القديمةُ قدْ عَثرَ عليها (محمد علي السمّان)، وهو فلاّح مصريّ كان يحفر بحثاً عنْ سماد في جروف بمحاذاة النيل في مدينة نجع حمّادي، وقدْ وصلتْ الى قسّ قام بدوره بإرسالها الى القاهرة لمعرفةِ كونها أصليّةً أمْ لا.

• وعلى نحوٍ منْ السُرعةِ أدركَ العلماءُ أنّ مخطوطاتِ نجع حمّادي مكتوبةٌ باللغة القِبْطية وهي الطوْرُ الأخير للُغة المصريَّة القديمة. وقدْ ابتكر المسيحيّون أنفسُهم القِبْطيّةَ المكتوبةَ في القرْن الثالث من أجل ترجمةِ الكتاب المقدّس الى اللغة المصريَّة.

• على الرغْمِ منْ أنَّ النصوصَ في مخطوطاتِ نجْع حمّادي قد كُتبتْ بالقِبْطية، كانتْ في الأصلِ قد أُلّفتْ باليونانيّة. والمخطوطاتُ التي لدينا اليومَ يُحتمَل أنَّها قدْ نُسِخَتْ في تاريخٍ يقعُ بينَ العام ٣٥٠ والعام ٤٥٠ م، بلْ، بعضُ النصوص الأصليّة رُبما كان بعمرٍ أقدمَ بمائتي عامٍ.

• (لفافاتُ البحرِ الميّت) التي أُكتُشِفَت في تاريخٍ قريبٍ منْ تاريخِ اكتشاف مخطوطات نجْع حمّادي نُسِبَتْ الى جماعة يهوديَّةٍ خاصَّة. لكنَّ أصحابَ مخطوطات نجْع حمّادي ظلّوا مجهولين. وعلى الرغْمِ منْ أنَّ هذه المخطوطاتِ يُشار اليها أحياناً باسم (مكتبة نجْع حمّادي)، لا نعرف إذا كانتْ تضمُّ مجموعةً قصديَّةً تعود لشخصٍ فرْدٍ أم الى مؤسسةٍ. والحقيقةُ أنَّ هذه المخطوطاتِ قدْ كتبَها أربعةُ عشر من الناسخين المختلفين، كما إنَّ النصوصَ مكتوبةٌ بالعديد من اللهَجات القِبْطيّة. وعلى هذا، مِنْ الممكنِ أنَّ هذهِ الكتُبَ تعود في الأصل الى عددٍ منْ الأشخاص وقد

ضُمَّ بعضُها الى بعضٍ في زمنٍ متأخرٍ.

محتوياتُ المخطوطاتِ:

• تضمُّ مخطوطاتُ نجْع حمّادي إثنين وخمسين نصّاً، لكنَّ بعضَ هذهِ النصوصِ هي صيغٌ مختلفةٌ للعملِ نفسِهِ. وهكذا، ثمَّةَ ستة وأربعون عملاً منفصلاً أو كما يدعوها العلماء (tractates). وتتنوّعُ هذهِ الأعمالُ في شَكلِهاعلى نحوٍ واسعٍ.

• يمكنُ اعتبارُ هذهِ الاعمالِ يهوديَّةً، أو، مسيحيَّةً لأنَّها تستفيد منْ العهدِ القديم أو الكتابِ المقدَّس العبريّ، ومِنْ العهدِ الجديد، ومِنْ كتاباتٍ يهوديَّةٍ ومسيحيَّةٍ. ويظهرُ في جميع هذه الأعمال، تقريباً، شخصياتٌ منْ الكتابِ المقدَّس منْ قبيلِ آدمَ، وحواءَ، أو يسوع، والرُسُلِ. لكنَّ أعمالاً أُخَر لَمْ تصدرْ أصلاً منْ يهودٍ أو مسيحيّينَ. على سبيلِ المثالِ، ثمَّةَ شذَراتٌ حولَ جمهوريةِ إفلاطونَ التي كُتبتْ قبل المسيحيّة بقرون من الزمانِ.

• العديدُ منْ هذهِ الكتاباتِ هي رُؤىً أُخرويَّةٌ وإلهاماتٌ. وهذهِ كتبٌ فيها شخصيَّةٌ إلهيّة مثلُ يسوعَ، أو، كائنٌ بشريٌّ أسطوريٌّ، مِثْلُ آدمَ يكشفُ عنْ أحداثٍ مستقبليّةٍ، أو، عَنْ أسرارٍ كونيّة، أو عَنْ تعاليمَ روحيَّةٍ، يكشفُها، لشخصٍ، أو جماعةٍ مختارة. على سبيلِ المثالِ، في نصّ غنوصيّ يُعرَف باسم (وَحْيِ آدم)، يكشف آدمُ لإبنهِ شِيْث قصَّةَ الخلْق، ويتنبأُ بالعديد منْ الأحداثِ التي تقعُ في المستقبل.

• عُثِرَ على نماذجَ أُخَر منْ الكتابةِ في مخطوطات نجْع حمّادي تشملُ أُطروحاتٍ لاهوتيّةً، ومواعظَ، وترانيمَ، ورسائلَ فلسفيّة. أضفْ الى ذلك، ثَمَّةَ أعمالٌ منفصلةٌ متعدِّدةٌ تُدعى أناجيلَ (gopels)، على الرغْم منْ أنَّها جميعاً لا تشبه الأناجيلَ في العهدِ الجديدِ، وهي تخبرُنا قصَّةَ مَهمَّة يسوع، أيْ دوره، وتؤكِّد آلامَه وموتَه. على سبيلِ المثالِ، يمثِّل الإنجيلُ المنسوبُ الى توماس مِنْ نجْعِ حمّادي مجموعةً مِنْ أقوالِ يسوعَ، وهي نوعمّا مشابهةٌ لسِفْر الأمثال في الكتابِ المقدَّس.

التراثاتُ الدينيَّةُ في المخطوطات:

• منذُ اكتشافِ مخطوطاتِ نجْع حمّادي وترجمتِها، حدَّد العلماءُ أربعَ جماعاتٍ أو تراثاتٍ دينيَّةٍ مثّلتها النصوصُ. وأُولى هذهِ الجماعاتِ هي المدرسةُ الغُنوصيَّةُ في الفكرِ التي كتبَ حولَها أيريانوُوسُ في العام ١٨٠ الميلادي.

• وصفَ ايريانوُوسُ الأسطورةَ (myth) التي يتحدَّثُ بها الغُنوصيّون، وهي، على نحو الدقَّةِ، الأسطورةُ نفسُها التي عُثِرَ عليها في كتابِ الأسرارِ المنسوبِ الى يوحنّا مِنْ مخطوطات نجْع حمّادي.

• وترِدُ هذه الأسطورةُ في الحدّ الأقَّل، في أحدَ عشرَ عملاً (tractates) من الأعمال الأُخَر، ويشملُ هذا وحْيَ آدمَ، وحقيقةَ الحكاّم، والكتابَ المقدَّسَ للرُّوحِ الخفيّةِ العظيمةِ.

• المجموعةُ الثانيةُ منْ المخطوطات مصدرُها المدرسةُ الفالنتينيَّة (نسبةً الى القديس فالنتينوس) في المسيحيَّة. يخبرُنا أيريانوُوسُ عنْ مُعلِّمٍ مسيحيّ مؤثِّرٍ يُدعى فالنتينوس (العام ١٧٥م)، وقدْ تبنَّى الأسطورةَ الغنوصيَّةَ في إقامتهِ نظامَه الفكريَّ الخاصَّ.

• أظهرَ اللاهوتيُّون الفالنتينيُّون اهتماماً ملحوظاً تُجاهَ موضوعاتٍ مسيحيّةٍ تقليديّةٍ منْ قبيلِ الخطيئةِ، والخلاصِ، وقيامِ الموتى، والأسرارِ.

• الأعمالُ الفالنتينية التي عُثر عليها في نَجْع حمّادي تشتملُ على مقالةٍ حولَ البعْثِ والإنجيلِ المنسوبِ الى (فيليب)[1]، بَيْنَ أمورٍ أُخَر. ويرى بعضُ العلماءِ أنَّ فالنتينوسَ نفسَه هو مؤلِّفُ (إنجيلِ الحقيقةِ)[2] الشهيرِ الغُفْلِ مِنْ اسمِ المؤلِّف.

---

(١) إنجيل فيليب: يرجع إلى القرن الثاني، وقد وجدت له مخطوطة ترجع إلى القرن الثالث ضمن مجموعة نجع حمادي مترجمة إلى القبطية الصعيدية. (المراجع)

(٢) أحد أناجيل الأبوكريفا التي اكتشفت في مخطوطات نجع حمادي في ١٩٤٥. (المراجع)

• المجموعةُ الثالثة مِنْ كتاباتِ نجع حمّادي تمنحُ مرجعيةً خاصّة للرّسولِ ديديموس يهودا توماس[1]، الذي يُعزى اليهِ في التراث المسيحيّ جلبُ العقيدةِ المسيحيّة الى بلادِ الرافدَيْن والهند. في الإنجيلِ المنسوبِ الى توماس، وفي كتاب توماس المنافسِ، أكدَّ لاهوتُ توماس الأصلَ الالهيَّ للرُّوح، وسقوطَها مِنْ الكمالِ الى الجسَدِ والعالَمِ الماديّ، وقدرتَها على العودةِ الى أصلِها عَبْرَ العودةِ الى الإتحاد بذاتِها الحقيقيّة.

• المجموعةُ الرابعةُ من الكتابات تتألَفُ مِنْ ثلاثةِ أعمالٍ منفصلةٍ منْ المخطوط السادس **VI**: خطابٍ حول الثامنِ والتاسعِ، وصلاةِ الشُكْر، ومقتطفٍ من الخطابِ الكامل، ويُعرَفُ أيضاً باسم (اسكليبيوس).

• على الرغْمِ مِنْ أنَّ صلاةَ الشُكر وأسكليبوس قدْ كانا معروفَيْن قبل اكتشافِ مخطوطاتِ نجْع حمّادي، خطابُ حولَ الثامن والتاسع هو إضافةٌ جديدةٌ الى جُماع ما يدعوهُ العلماءُ بالكتاباتِ الهَرْمسيَّة، أو، الديانةِ الهَرْمسيَّة.

• تعودُ هذه الكتاباتُ الى مَتْنٍ من الكتابةِ القديمةِ يتمرْكَز حولَ الإلهِ هرمس (Hermes) التي ربما تكون قُد نشأتْ في دوائرَ دينيّةٍ وفلسفيّةٍ كانتْ ناشطةً في الأزمنة اليونانيّة- الرومانيّة ومصرَ القديمة المتأخرة. وفي هذه النصوصِ، المُوحِي الإلهيُّ هو (هرمس مثلَّث العظمة)، وهو مركَّب منْ الإله المصريّ (توث-Thoth)[2]، والإله

---

(١) توما Thomas: ومعنى اسمه بالآرامية التوأم، هو واحد من رسل المسيح الإثني عشر. وقد ورد ذكره في قائمة أسماء الرسل في الأناجيل الإزائية (متّى، مرقس، لوقا)، وفي سفر أعمال الرسل. بحسب التقليد الكنسي فإن توما الرسول وعظ الإنجيل في الرها بشمال شرق سورية، ودفن فيها ،كما أنه بشر في بريثا وبلاد فارس، وكان أول من بشر في الهند. وهناك قتل على يد كهنة الأوثان بالرماح، لذلك يصور في الأعمال الفنية وهو يحمل رمحا. (المراجع).

(٢) الأشهر تحوت أو توت: إله الحكمة عند الفراعنة. ويعتبر من أهم الآلهة المصرية القديمة، ويُصور برأس أبو منجل.اعتبر قدماء المصريين أن الإله تحوت هو الذي علمهم الكتابة والحساب. وهو يصور دائما ماسكا بالقلم وبلوح يكتب عليه. (المراجع).

الاغريقيّ (هرمس - Hermes).

• وبعدَ أنْ تفحّصنا هذه الحركاتِ وأخرياتٍ غيرَها، سنحتاجُ أنْ نسأل سؤالاً أساسياً وهو: أتصنع هذهِ الحركاتُ شيئاً واحداً يُدعى الغنوصيَّة، أمْ أنَّ الغنوصيةَ ذاتَها هي ابتداعٌ ابتدعَهُ زعماءُ الكنيسةِ القديمةِ والعلماءُ المحدَثون.

-٢-

مَنْ كانَ الغُنوصيُّونَ

منْ كانَ الغُنوصيُّونَ

كانَ على العلماءِ والمهتمِّين بالغُنوصيَّةِ، أو، الفالنتينيَّةِ، ولقرونٍ مِنْ الزمان، أنْ يعتمدوا على أيريانؤو-س مِنْ مدينة ليون، وهوَ أُسقفٌ منْ أواخر القَرْن الثاني - كانَ أيريانؤوسُ عدواً للغُنوصيّين الذين سمّاهم هراطقةً. وعلى الرغْم منْ عدَم كونهِ مصدراً موضوعيّاً للمعلوماتِ المتعلقةِ بالغنوصيّةِ، لا يزالُ أيريانؤوس يزوّدُنا بتبصُّراتٍ مُهمةٍ في هذا الجانب؛ أوّلُها أنَّ كتاباتَهُ تكشفُ أنَّ المسيحيّةَ كانتْ على أنواعٍ شتّى في قرونها القليلةِ الأولى. ثانيها، يمنحُنا أيريانؤوسُ معلوماتٍ أساسيّةٍ معيّنةٍ حولَ الغُنوصيّين: يخبرُنا ما كانَ يدعونَ اليهِ. وحتّى إنَّهُ يُعطينا إشاراتٍ دالَّةً على ما كتبوا، وهذا أمرٌ مهمٌّ. فيما يأتي سنتفحَّصُ عَنْ قربٍ أيريانؤوسَ وننظرُ فيما يمكنُ أنْ نأخذَ منه فيما يتعلق بالغُنوصيّين.

أيريانؤوس منْ مدينةِ ليون:

• في أواخِر سبيعينيّاتِ القرْنِ الثاني الميلادي، أصبحَ أيريانؤوسُ زعيماً لجماعةٍ صغيرةٍ منْ المسيحيّين في ليون التي كانتْ مدينةً رئيسةً في مقاطعة الجال الرومانية (فرنسا الحالية). كانَ أغلبُ المسيحيّين في ليون مهاجرينَ يتحدَّثون اليونانيةَ وكانوا لا يثقون بغالبية السُكّان الآخرين. وفي الواقع، عندما أصبحَ أيريانؤوس زعيماً لهذهِ الجماعة، كانتْ قدْ بدأتْ لديهم معاناةٌ من الاضطهاد الفظيع. عندما أصبح ايريانؤوس أسقفاً سعى الى إعادةِ بناءِ ثقة الجماعة المسيحية بنفسها في ليون والى حدٍّ ما سعى الى اجتذابِ أتباعٍ جُدُدٍ.

• لكنَّ أيريانؤوسَ لَمْ يكنْ الزعيمَ المسيحيَّ الوحيدَ في مدينة ليون. فقد عرَضَ معلِّمونَ آخرونَ للمسيحيّةِ رسائلَ تصطدمُ بما يدعو اليه أيريانؤوس. زَعَمَ أيريانؤوس

أنَّ هؤلاءِ المعلِّمين المسيحيّين الآخرين ينشرون معرفةً كاذبة ويجبُ أن لا يُسَمَّوْا مسيحيين - أتباعَ المسيح- بلْ يجبُ أن يُسمَّوْا فالنتينيّين - أتباعَ فالنتينوس-. فهم ليسوا أعضاءَ كنيسةٍ مسيحيَّةٍ حقيقيَّةٍ، بلْ، هُمْ أعضاءُ مدارسَ فكريَّةٍ خادعةٍ متعددةٍ - أو هي مدارسُ هَرْطَقَة.

• تعهَّدَ أيريانئوس بمنْعِ مسيحيّيِ مدينةِ ليون منْ اتّباع المعلِّمين المسيحيّين الآخرين، لكنْ ليس هذا وحسبُ، بلْ، عملَ على مساعدةِ الزعماءِ المسيحيّين الآخرين عَبْرَ العالَم في مناضلتِهم والتصدِّي لهم. وكتبَ عملاً ضخماً يُعرَف بـ(ضدَّ الهَرْطقات)، وفيهِ وصَفَ الصِيَغَ الزائفةَ للمسيحيّة ليُمكِّن قُرّاءَه مِنْ تَبيُّنِ هذهِ التعاليمِ الزائفة عندما يقعونَ عليها.

التنَّوعُ في المسيحيَّةِ المبكِّرة:

• زعمَ أيريانئوسُ وجودَ مسيحيةٍ حقيقيّةٍ واحدةٍ نشأتْ منْ يسوعَ والرُسُلِ. منْ وجهة نظرِهِ، الجماعاتُ الأُخَر منْ قبيلِ الغُنوصيّين، رُبما ادَّعَوْا كونَهم مسيحيّين، لكنَّهم يمثِّلون انحرافاتٍ كاذبةً عنْ المسيحيَّة الحقَّةِ الوحيدةِ. وادَّعى أيريانئوسُ تقديمَهُ المسيحيّةَ القويمةَ الحقَّةَ وأنَّ جميعَ منافسيهِ من المسيحيينَ همْ هراطقةٌ.

• لزمنٍ طويلٍ، جنحَ العلماءُ الى تصديق أيريانئوس، أيْ، اعتقدوا بأنَّ مسيحيّةً واحدةً موحَّدةً كانتْ قدْ وُلدتْ في القرن الأول للميلاد، وأنَّ المسيحيَّةَ الأصليَّة يمكنُ العثور عليها في العهدِ الجديد، وأنَّهُ فيما بعدُ، بعضُ المعلِّمين مِنْ قبيل الغنوصيّين وفالنتينوس، قدْ انحرفوا عنْ الخطِّ العامّ للمسيحيَّة. معَ ذلك، فيما يتعلَّقُ بتلكَ الايامِ، لا يتفق أغلبُ المؤرخين معَ الصورةِ التي رسمَها، وهم يعتقدون أنَّ المسيحيَّة كانتْ متنوّعةً مُنذُ بدايتِها الأولى.

• يمكن مشاهدة هذا التنوُّعِ في العهدِ الجديدِ قائماً أصلاً. المصادرُ المسيحيَّةُ المبكرةُ التي لدينا هي رسائلُ (بولص)، ويُعتَقدُ أنَّ وقتَ نشوئها جميعاً هو العام

الخمسون للميلاد، بما يقربُ من عشرين عاماً بعدَ وفاة يسوع المسيح. تكشفُ رسائلُ بولص عَنْ خلافٍ وَسْطَ المسيحيّين الأوائل، ويتكرَّر وقوعُ قضيّةٍ معينةٍ في رسائلِ بولص وهي: كيفَ يشمل الخلاصُ الأممَ التي تعبدُ آلهة أُخَر؟ ويُبيّن لنا الجدَلُ حولَ هذه المسألة أنَّ أوائلَ الرُسُلِ، أيضاً، لَمْ يكونوا متّفقينَ دائماً حولَ أُسسِ العقيدةِ المسيحيّة.

• يرى بعض الرُسُل أنَّ غيرَ اليهود، لكي يكونوا صالحين على نحوٍ تامّ، ويحصلون على الخلاص، لا بُدَّ لهم مِنْ الإيمان بيسوعَ باعتباره ابنَ الربّ، وأنْ يتركوا وثنيّتَهم، وذلك بأنْ يصيروا يهوداً. ويعني هذا أنَّ المؤمنين منْ غيرِ اليهود يجبُ أنْ يخضعوا للختان (إنْ كانوا ذكوراً)، وأنْ يلتزموا بالشريعة اليهودية بالتقيُّدِ بالأكل الحلال (kosher)، وما الى ذلك.

• خالفَ بولصُ هذا الموقفَ بشدَّةٍ. في رأْيِهِ، لا يحتاجُ الناسُ مِنْ غيرِ اليهود الّا الى الإيمانِ بيسوعَ لكي يكونوا صالحين. وبالتأكيد، قدْ عنى هذا تَرْكَ هؤلاءِ آلهتَهم الوثنيةَ والعيشَ حياةً أخلاقيّة. لكنْ ليسَ عليهم أنْ يختتنوا وأنْ يتّبعوا الشريعةَ اليهوديّة. أنزلَ الربُّ الشريعةَ على اليهود ليتّبعوها حتّى مجيءِ المسيحِ المخلّص. والآنَ، وقدْ جاءَ المسيحُ فإنَّ غيْرَ اليهود رُبما يشملهم الخلاصُ، ببساطةٍ، بإيمانِهم بالمسيح.

• بالمعارضةِ معَ مزاعم أيريانوّوس، يمكننا لحْظَ أنَّ الرُسُلَ الأصليّين، كذلكَ، لمْ يتّفقوا على رسالةٍ مسيحيَّةٍ واحدةٍ. والحقُّ أنّهم اختلفوا حولَ مسألةٍ أساسيّةٍ: كيفَ يُخلَّص الناسُ - أَبوساطةِ الإيمانِ بالمسيحِ وحدِهِ، أمْ، بالإيمانِ بالمسيحِ معَ اتّباعِ الشريعةِ اليهوديّةِ؟

مارسيون:

• ظلَّ الخلافُ قائماً حولَ مسألةِ ضمّ غيرِ اليهود، وما إذا كانَ يجبُ عليهم اتّباعُ الشريعةِ اليهوديّة، ظلَّ قائماً، وسْطَ المسيحيين لمُدَّةِ عقودٍ من الزمان. وقدْ رأى أحد

مُعلّمي المسيحيَّةِ، وهو مارسيون (Marcion)، أنَّ المسيحيينَ يجبُ أنْ لا يستعملوا الكتابَ المقدَّسَ اليهوديَّ مطلقاً.

• كان مارسيون مُعلِّماً مسيحياً في روما في العام (١٤٠م)، وقد خَلُصَ الى أنَّ إنجيلَ بولصَ عنْ الإيمانِ بالمسيحِ كانَ معارضاً للكتاب المقدَّسِ اليهوديِّ في تعاليمهِ المتعلقةِ بالختانِ واتِّباعِ الشريعة. وفي رأيِهِ، أنَّ يسوعَ وبولصَ قد جاءا برسالةِ التسامحِ والحُبِّ - العهدِ الجديدِ - لكنَّ الكتابَ اليهوديَّ جاءَ برسالةِ الثواب والعقابِ- العهدِ القديم.

• رأى مارسيونُ أنَّ يسوعَ لا يمكن أنْ يكونَ ابنَ إلهِ العهدِ القديم. بَلْ، أبو يسوع المسيحِ يجبُ أنْ يكون إلهاً ما آخَر، إلهاً لمْ يكنْ معروفاً حتَّى كشفَ يسوعُ عنه. جاءَ يسوع لإنقاذِ الناسِ منْ العقابِ الذي صبَّه عليهم إله العهدِ القديم الصالحِ على نحوٍ مُفرط.

• قال مارسيونُ بوجوبِ توقُّفِ المسيحيينَ عَنْ قراءةِ العهدِ القديمِ كَكتابٍ مُقَدَّسٍ بلْ عليهم استعمال رسائلِ بولصَ وإنجيلاً حولَ يسوع.

• إنَّ بولصَ نفسَه كانَ سيختلفُ معَ مارسيون، لكنَّنا نستطيع أنْ نلحظَ كيفَ أنَّ رسالةَ مارسيون يمكنُ أنْ تتطوَّرَ منْ رسالةِ بولص. ولأنَّ بولصَ غالباً ما يُفَرِّقُ الإيمانَ بالمسيح عَنْ اتِّباعِ الشريعة، استنتجَ مارسيون أنَّ المسيحيَّةَ يجبُ أنْ تكون منفصلةً على نحوٍ تامٍ عنْ اليهوديَّةِ، وعَنْ كلِّ شيءٍ يهوديٍّ، ويشملُ هذا العهدَ القديمَ.

• توضحُ قِصةُ مارسيون نقطتَيْنِ مُهمَّتَيْنِ:

▪ الأولى، لقدْ رأينا أنَّ المسيحيين كانوا متنوِّعين، وغالباً، في شقاقٍ، وأنَّ بعضَ المسيحيين، منْ قبيلِ مارسيون، قد دُعُوا باسم الهراطقة. لكنْ، لاحظْ أنَّهُ لمْ يكنْ ثمَّة دعمٍ لإعلانِ مارسيون باعتبارِهِ مهرطقاً. لم يكنْ للكنيسةِ في القرْن الثاني بناءٌ عالميٌّ ليفرضَ تعاليمَ وممارساتٍ مِعياريَّةً.

▪ الثانيةُ، ليسَ مِنَ الصحيح القولُ، كما كانَ سيقولُ أيريانؤوسُ، بأنَّ مارسيونَ قدْ انحرفَ عنْ الحقيقةِ المسيحيَّةِ الأصليَّةِ، بَلْ الأمرُ أنَّ رؤيةَ مارسيون المنمازةَ حولَ الكيفيَّةِ التي يجبُ أنْ يرتبطَ بها المسيحيّونُ معَ العهدِ القديم والشريعةِ اليهوديَّةِ تعكسُ (هذهِ الرؤيةُ) اختلافاً طويلَ الأمد حولَ المسألةِ.

ما كتَبَهُ أيريانؤوسُ حولَ الغُنوصيِّينَ:

• كما قلْنا، كتبَ أيريانؤوس (ضدَّ الهرطقات) لمساعدةِ الزعماء المسيحيِّين الآخرينَ على تمييزِ تعاليمِ مَنْ يُدعَوْن بالهراطقة، ودَحْضِ أفكارهم. إنَّ أيريانؤوس يستخفُّ بالمعلِّمين والجماعاتِ التي يصفُها، لكنَّه، معَ ذلك، يعتني بشرحِ تعاليمِهم بنوعٍ مِنَ التفصيل. وهكذا، يمكنُنا الحصولُ مِنْهُ على تبصُّرٍعميقٍ في الغنوصيّةِ.

• على نحو أساسيٍ، يخبرنا أيريانؤوسُ بأنَّ الغنوصيِّينَ يعلّمون أُسطورةً تفسِّرُ مَنْ هوَ الله، وكيفَ ظهرَ العالَمُ الذي نعيش فيه الى الوجود، وكيفَ يتصَّرف الربُّ لإنقاذِ الناس. وفي رأي أيريانؤوس تُقدِّم هذهِ الأسطورةُ صورةً معقدَّة للربِّ.

• يقولُ أيريانؤوسُ بأنَّ الربَّ الغنوصيَّ يتألَّف مِنْ جوانبَ متعدِّدةٍ، أو فيوضاتٍ الهيّة، تصدرُ عِنْ الربِ تُدعى الأيونات (aeons). وتخبرُنا الأسطورةُ أيضاً عنْ خلْق هذا العالمِ بوساطة تنقيحِ وإعادةِ سَرْدِ قصصِ سِفْر التكوين في الكتاب المقدَّس. أخيراً، قالَ الغنوصيّون بأنَّ يسوع قدْ جاءَ الى هذا العالَم لانقاذِهِ، وهو سيجمع أرواحَ مَنْ أنقذ في نهايةِ الزمان.

• الملمحُ الأكثر إثارةً للإنتباهِ في الأُسطورةِ الغنوصيَّة كما يسردها أيريانؤوس هو أنَّ الهَ سِفْرِ التكوينِ كائنٌ سماويٌّ أدنى من الله النهائيِّ الأعلى، والأوّلُ متغطرسٌ، وجاهلٌ، وشريرٌ. هذا الإلهُ مُعادٍ للكائناتِ البشريَّةِ لأنَّ هذه الكائناتِ تمتلك جُزءاً منْ الرُّوح الإلهيَّةِ التي تعود الى الله الأعلى. الإسمُ الحقيقي للإلهِ الذي خلقَ العالمَ هو (يالدابوث)، كائنٌ رُوحانيٌّ يدير شؤونَ هذا العالَمَ مثْلَ طاغيةٍ.

• هذه الفكرةُ- فكرةُ أنَّ اللهَ في سِفْرِ التكوين هو حاكمٌ كونيٌّ حاقدٌ خبيثٌ - لها مضامينُ مُهمَّةٌ فيما يتعلق بالكيفيَّةِ التي يفهمُ بها الغنوصيُّون بقيَّةَ قِصَّةِ التكوين.

• إنْ كانَ هذا الإلهُ معادياً للكائناتِ البشريَّة، إذاً، عندما يأمرُ آدمَ وحواءَ بعدمِ الأكلِ مِنْ شجرةِ معرفةِ الخيرِ والشرّ، فإنَّه يمنعهما مِنْ معرفةِ الحقيقةِ الرُّوحيَّةِ.

• عندما أكل آدمُ وحواءُ مِنْ الشجرةِ، حازا المعرفة (gnosis)، معرفةَ الإلهِ الحقيقيِّ (الله). وحيثُ تستمرُّ الكائناتُ البشريَّةُ في طلَبِ المعرفةِ الرُّوحيّةِ، تزداد غَيْرةُ يالدابوث (Yaladaboath) مِنْ حُبّهم للهِ الأعلى، فيُحدِثُ طوفاناً لينهيَ وجودَ البشريَّة. والجيّدُ في الأمرِ، يُنَجّي الإلهُ الأعلى نوحاً وأهلَه مِنْ فِعْلِ يالدابوث الشرّير.

▪ أخيراً، تبدأُ الكائناتُ البشريةُ فيما بعدُ خسارةَ المعرفة التي حازَها آدمُ وحواء مِنْ أكلهما مِنْ الشجرة. لكنَّ اللهَ الأعلى يرسلُ يسوعَ مَن أجلِ استعادةِ هذه المعرفةِ (gonisis) المفقودةِ، وينقذُ هذهِ الكائناتِ البشريةِ مِنْ يالدابوثَ ورفاقِهِ الحكّامِ.

• الواضح أنَّ الأسطورةَ الغنوصيّةَ كانتْ تحدياً مباشراً للكيفيّةِ التي يرى بها أيريانئوسُ اللهَ ويسوعَ، لكنْ، يمكنُنا الخروجُ باستنتاجَيْن من هذا الكلامِ.

▪ الأوّلُ، انشغل الغنوصيّونَ بجوانبِ الإلهِ في سِفْرِ التكوين التي لا تبدو جوانبَ إلهيّةً. مثلاً، هلْ يغيّرُ الإلهُ الكاملَ رأيهُ حولَ خلقِ البشرِ؟ استنتجَ الغنوصيُّون مِنْ هذا الموقف أنّ الالهَ الذي فعلَ ذلكَ يجب أنْ لا يكونَ هو الإلهَ النهائيّ، اللهَ الكاملَ، بلْ، هو شيءٌ أدنى منهُ وغيرُ كاملٍ.

▪ الثاني، لقدْ شاهدْنا أنّ المسيحيّينَ مختلفونَ حولَ الدورِ الذي يجبُ أنْ يؤديه الكتابُ المقدَّسُ اليهوديُّ في دينهم المسيحيّ. عندما قالَ بولصُ أنَّ الخلاصَ كانَ مُقاماً على أساسِ الإيمانِ بالمسيحِ، وليسَ على أساسِ اتّباع شريعةِ اليهودِ فإنّه قدْ فتحَ البابَ للمسيحيّين مِنْ قبيل مارسيون الذي استنتج أنَ الكتابَ المقدَّسَ اليهوديَّ قدْ توقَّف عَنْ كونهِ ذا علاقةٍ بالمسيحّيين. كانتْ مقاربةُ الغنوصيّين مختلفةً. الكتابُ المقدّس ذو علاقة، لكنّهُ ليس دقيقاً على نحوِ التمامِ.

في الأسطورةِ الغُنوصية، الحيّةُ التي تُقنع آدمَ وحواءَ بأن يأكلا مِن شجرةِ المعرفةِ رُبما لا تكونُ تدفعُهما الى الخطيئةِ, بل, تساعدُهما على الحصولِ على معرفةٍ روحيّةٍ حقيقيّةٍ .

-٣-

اللّٰهُ في الأسطورةِ الغُنوصيّةِ

اللهُ في الأسطورةِ الغُنوصيَّةِ

كتابُ الأسرارِ المنسوبُ الى يوحنّا هوَ الكتابُ الغنوصيُّ الأكثرُ أهميةً مما بقيَ. ونعرف كونَهُ غُنوصياً بسببِ أنَّ الجزءَ الرئيسَ منه ُينطبقُ عليهِ ما يخبرُنا به أيريانؤوسُ عنْ التعاليمِ الغنوصيَّةِ. وهوَ نصٌّ مهمٌّ لأنَّهُ يخبرُ عنْ الأسطورةِ الغنوصيّةِ برُمَّتها، مبتدئاً باللهِ وخلقِ هذا العالَمِ ومنتهياً بمجيءِ المخلّص وخلاصِ البشريّة. يعتقد العلماءُ أنَّ الكتابَ قد كُتبَ في زمنٍ بينَ العام (١٠٠) والعام (١٥٠) للميلاد، وهو أمرٌ يجعلهُ أقدمَ عملٍ مسيحيٍ وصلَنا منْ النوعِ الذي يقدِّم سرديَّةَ خلاصٍ كاملةً وشاملةً. في هذهِ المحاضرةِ سنستطلع المفهومَ الغنوصيَّ عنْ اللهِ الموجودَ في هذا العملِ.

كتابُ الأسرار باعتباره نبوءةً حولَ نهايةِ العالم:

• يقدِّم كتابُ الأسرارِ المنسوبُ الى يوحنّا نفسَه على أنَّه وَحيٌ من المخلِّصِ الى التلميذِ والرسولِ يوحنّا.

▪ عندما يبدأ النصُّ، يكون صَلْبُ وبعثُ يسوع قدْ وقعَ منْ قبلُ، فالتلميذُ يوحنّا في طريقهِ الى المعبدِ في أورشليمَ، حيث يلتقي واحداً مِنْ الفريسيّين. يخبرُ الفريسيُّ يوحنّا بأنَّ يسوعَ قد ضلَّلهُ وصرفَهُ عنْ التقاليدِ الحقيقيّةِ لأسلافهِ اليهود. وهذا يثير يوحنّا الذي يبدأ بمساءلةِ معتقداتِهِ.

▪ عندَ هذهِ المرحلةِ تنفتح السماءُ ويظهرُ المخلِّص ليوحنّا. يتَّخذ المخلّصُ، وعلى نحوٍ غريب، ثلاثةَ أشكالٍ - شَكْلِ طفلٍ، وشابٍ، وشيخٍ. عندها يشرَعُ المخلِّصُ في كلامٍ طويلٍ معَ يوحنّا ويستغرقُ هذا الكلامُ بقيّةَ الكتابِ.

▪ عندَما يُنهي المخلِّصُ وحيَهُ، يوجّه يوحنّا الى كتابتِهِ والحفاظِ عليهِ في أمانٍ. بعدَ ذلكَ يختفي المخلِّص وينطلقُ يوحنّا ليخبرَ التلاميذ بما قدْ أوحاهُ اليهِ المخلِّص.

▪ إذاً، كتابُ الأسرارِ هو نوعٌ مِنَ التنبؤِ بنهايةِ العالمِ - وحيٌ صادرٌ منْ شخصٍ الهيٍّ الى كائنٍ بشريٍّ. كتبَ اليهودُ والمسيّحيُّون العديدَ من هذا النوعِ منَ الوحْيِ في قرونٍ سبقتْ يسوعَ وفي قرونٍ تلتْهُ.

▪ كانتْ هذهِ الكشوفاتُ المُوحاةُ وسيلةً مهمَّة للنّاس منْ أجلِ تناقلِ التبصُّرات الدينيَّةِ. وسجَّلَ مؤلفوها تبصُّراتِهم في هيأة وحْيٍ منَ اللهِ أُوحي به الى شخصيّة بشريّةٍ مرجعيّةٍ منَ الماضي. وغالباً ما يأمرُ المُوحي الالهيُّ الكائنَ البشريَّ أنْ يحتفظ بما أُوحيَ اليه سرّاً حتى يحينَ الوقتُ المناسب،وفي العادة يفسّرُ الموحي حوادثَ ويتنبأُ بما سيقعُ في المستقبل.

▪ كتابُ الأسرار المنسوبُ الى يوحنّا، كبقيةِ كُتبِ الوحي الأُخَر، يصوّرُ نظامَ العالَمِ القائمِ في صورةِ عالَمٍ يسيطرُ عليه حُكّام أشرارٌ، يظلمون البشَر، ويعملون على منعهم منْ إنجازِ قدراتِهم الروحيّة التامّة. لكنَّ الكتابَ يعرضُ الأملَ في أنَّه منْ خلال المخلِّص، سيطيحُ الله قريباً بهؤلاء الحكّام ويخلِّص شعبه. في هذا الجانب، يشبه كتاب الأسرار كُتباً يهوديَّةً ومسيحيَّةً أُخَر في زمانِهِ. لكنَّهُ، أيضاً، شَكْلٌ مختلفٌ منْ أنواعِ الوحْيِ الأُخَر اليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ. على خلافِ كتابِ الوحي، كتابُ الأسرار ليسَ رمزيّاً وهو يركّز على الماضي أكثرَ من المستقبل. يفصِّل كتابُ الأسرار قصَّةَ خلقِ البشريَّة ويُولي وصفَ الله قدراً عظيماً من الإهتمام. ووِفْقاً للمؤلِّف الغنوصيِّ، يمكن أنْ يعبّر الناسُ عنْ الأمل والخلاص بوساطة الفهمِ الأفضل لماهيَّةِ الله، وكيفَ وُجِدَ العالم الذي نعيش فيهِ، وليسَ بوساطةِ معرفةِ ما سيحدثُ في المستقبل.

اللهُ الغُنوصيّ:

• الأسلوبُ الأفضلُ في تصويرِ اللهِ الغنوصيِّ هو أنْ نفكِّر به في هيأةِ عقلٍ واسعٍ، عقلٍ - يشبهُ عقولَنا، لكنْ أعظم كثيراً منْها. وفي مَثلَه كعقلٍ، اللهُ معقَّدٌ، ممتليءٌ بأفكار تدعى (أيونات -aeons)، وهو فعّالٌ وخلاّقٌ باستمرارٍ. وتماماً، كما إنَّنا نجدُ السلامَ

حينَ تكونُ عقولُنا مستقرَّةً وهادئةً، كذلك، اللهُ أيضاً، مستقرٌّ وهاديءٌ معَ كونه فعّالاً وخلّاقاً. أضِف الى ذلك، تماماً، كما إنَّنا لا نستطيع أنْ نعرف عقلَ شخصٍ آخرَ على نحو تام، فإنَّ اللهَ لا يُعرَف نهائيّاً من جهةِ الكائناتِ البشريَّة.

• وهذا هو الموضعُ الذي يبدأ منه وحْيُ المُخلِّص الى يوحنّا - بعدَمِ القدرةِ النهائيّةِ على معرفةِ الله. المخلِّص يسمّي هذا الربَّ النهائيَّ الذي لا يُدرَك كنهُهُ بأنَّهُ الرُّوحُ غيرُ المرئيّةِ، أو، الرُّوحُ العذراءُ الخفيّةُ. وهذهِ الرُّوحُ غيرُ محدودةٍ، لا يُسبَر غورُها، ولا تُوصَفُ، ولا تُقَاس، ولا يعتورُها الفسادُ. هذهِ الرُّوحُ يجبُ أنْ لا تُسمَّى الهيَّةً لأنَّها أبعدُ مِنْ مفهومِنا عنْ الألوهيَّة. إنَّها صمْتٌ تامٌ، وسكونٌ تامٌ.

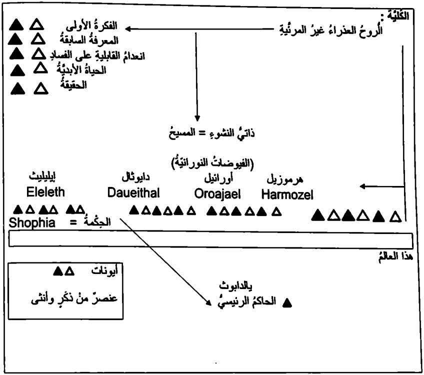
• لو كانتْ الرُّوحُ غيرُ المرئيّةِ هي كلُّ مايتعلقُ باللهِ، لنْ يكونَ بإمكانِنا أنْ نعرفَ الله. والحقيقةُ، لا نكون موجودينَ، وسببُ ذلك أنَّ الرُّوحَ غيرَ المرئيةِ ستكونُ في حالةِ سكونٍ أبديّ. لكنْ، مرّةً أخرى، اللهُ يشبهُ العقلَ (intellect): على هذا، الرُّوحُ غيرُ المرئيّةِ تفكّرُ، وتفكيرُها ينتجُ فكرةً أولى تُدعى (الفكرةَ الأولى، أو الفكرة السابقة) (أنظر الشكل ١). الفكرةُ الأولى هي فكرةُ الرُّوحِ غيرِ المرئيّة عنْ نفسِها.

▪ الفكرةُ الأولى (forethought) هي الأيونُ الأوَّلُ الذي يصدرُ عنْ الرُّوحِ غيرِ المرئيَّةِ، وهذا الأيونُ هوَ المستوى الأعلى للهِ الذي يمكن أنْ نأملَ بمعرفتِهِ. آمنَ الغنوصيُّون بأنَّ البشرَ، على غرارِ أفكارِ اللهِ، في النهايةِ، يصدرونَ عنْ فكرةٍ أولى وسيعودونَ اليها.

▪ كتابُ الأسرارِ، أيضاً، يمنحُ الفكرةَ الأولى اسماً آخرَ هوَ الباربيلو (Barbelo) الذي لا مكافيءَ لهُ في اللغةِ الانكليزية.[1]

(١) تُعرَّف بأنَّها الفيضُ الأوّلُ عنْ اللهِ في العديدِ من أشكالِ الكوزمولوجي الغنوصيّ، أو، إنَّها الكيانُ الأوّلُ الذي يصدرُ عنْ اللهِ في الكتاباتِ الغنوصيةِ القديمة. (المترجم).

الشكل (١): النظرةُ الغنوصيَّةُ لله (كتابُ الأسرارِ)



• بوجودِ هذَيْن الجانبَيْن للهِ؛ وهما الُروحُ غيرُ المرئيَّة، والفكرةُ الأولى، يمكننا البدءُ في التفكيرِ في اللهِ ليسَ كشخصٍ فحسْبُ، بلْ، كشيءٍ يشبهُ مكاناً، أو مملكةً مأهولةً بأفكارِ اللهِ، الأيوناتِ. عندما يُفكِّر الغُنوصيُّون في اللهِ باعتبارهِ مجموعةً منْ الأيوناتِ، أو، كائناتٍ سرمديَّةً، فهمْ يدعون اللهَ بالسرمديَّةِ، بمعنى، مجموعَ كلِّ الحقيقةِ الرُّوحيّةِ، التي هي الله.

• وبالطبعِ، في الوقتِ الذي يبدأ اللهُ فيه التفكيرَ وينتجُ فكرةً أولى، يظهرُ العديدُ من الأفكارِ الأُخَر. تُدعى الباربيلو بـ(رَحِمِ) الأبديَّةِ وذلك لأنَّها كفكرةٍ أولى للهِ، تبدأ مضاعفةَ أفكارِ اللهِ.

• وبالتعبيرِ الأُسطوريّ، تطلبُ الباربيلو منَ الرُّوحِ غيرِ المرئيَّةِ أنْ تحصلَ على عوالمِها السرمديَّة وتُجابُ بظهورِ أربعةِ أيوناتٍ جديدة: المعرفةِ السابقةِ، وعدمِ الفساد، والحياةِ الأبديَّة، والحقيقةِ. رُبما تُعتَبر هذهِ الأيوناتُ الجوانبَ الأكثرَ أساسيَّةً للهِ، أفكارَ اللهِ الأكثرَ أصالةً ومركزيَّةً.

▪ توجدُ كلٌّ منْ هذهِ الأيوناتِ في زوجَيْنِ منْ ذكَرٍ وأنثى يُعبّرانِ عنْ وحدةِ جانبَيْ الحقيقةِ نفسِها. وما يُحدِّد أيُّهما الذكر وأيُّهما الأنثى هوَ جِنْسُ اسمِ الأبوَيْن في اللغة اليونانيّة.

▪ في هذا الموضع، تنظرُ الرُّوحُ غيرُ المرئيَّة الى الباربيلو (الملء)، وتُحدِثُ هذه النظرةُ شرارةً مضيئةً، وتصيرُ هذهِ الشرارةُ أيوناً جديداً يُدعى باسم (الالهيّ ذاتيّ النشوءِ): باليونانية هو (Autogenis)، الذي يدعى أيضاً بالمسيح. يفهمُ الغُنوصيّون الرُّوحَ غيرَ المرئيَّةِ، والباربيلو، والمقدَّس ذاتيَّ النشوءِ باعتبارها مشابهةً للأُسَرةِ النوويّة: الأبِ، والامّ، والإبنِ.

• ينشأُ عنْ ولادةِ ذاتيّ النشوءِ فيضٌ منَ المزيدِ منْ الأيونات. التي توجد في هيأةِ أربعِ مجموعاتٍ، كلُّ واحدةٍ تشتمل على ثلاثةٍ مِنها، والمجموعاتُ الأربعُ يقودها أربعةُ كائنات تُدعى الفيوضاتَ الإشراقيَّة.[1] وأسماؤُها هي: هارموزيل، وأورايئيل، ودايوثاي، وأيليليث. والأيوناتُ الأثنا عشر التي تقودها الفيوضاتُ (الملائكةُ) لها أسماءٌ مجرَّدةٌ تشيرُ الى جوانبِ الله، مِثْلِ الإدراكِ، والذكاءِ، والسلامِ، والحكمةِ.

خَلْقُ العالمِ:

• وفقاً لِما جاءَ في كتابِ الأسرار، ظهرَ عالمُنا الى الوجودِ عندما تعرّض الانسجامُ والاستقرارُ في (الكُليّة-entirety) للاضطراب. أرادتْ الحكمةُ، وهي الأيونُ الأدنى،

(١) وهي نوع من الملائكة لدى عدد من المذاهب الغنوصية. (المترجم).

أنْ تفكّر تفكيرَها الخاصّ بها بعيداً عن إرادةِ الرُّوحِ غيرِ المرئيَّةِ وبدونِ موافقتِها. أنتجَ تفكيرُها كائناً سماوياً آخرَ، لكنْ، لأنّها تصرَّفت منْ لَدُنْ نفسِها، كان الوليدُ ناقصاً وقبيحاً.

• أُذلَّت الحكمةُ بما كانتْ قدْ فعلتْ. أسمتْ كائنها السماويَّ المشوَّهُ الذي أنجبتهُ باسمِ يالدابوث، ونبذتْهُ خارجَ الكليَّة. وخارجَ ذلك العالم، كانتْ المادَّةُ سديميّةً لا هيأةَ لها استعملها يالدابوث لصناعةِ الكون. ولأن يالدابوث جاءَ من الكليّة فلديهِ ذكرى معتمةٌ عمّا يكونُهُ العالمُ الروحيُّ، فصنعَ هذا الكونَ كنسخةٍ لهُ. لكنْ، بسببِ هذا الجهل وعدمِ كمال المادَّة، يشبهُ الكونُ الذي نعيش فيه العالمَ الرُّوحيَّ لكنَّه ناقصٌ - مليءٌ بالفساد والتحلل.

• مع ذلك، كان يالدابوث متأثراً جداً بما فَعَلَ. فقد أعلن (أنا إلهٌ غيورٌ، لا إلهَ إلّا أنا). وهمُ يالدابوث أزعج أمّه، الحكمةَ، التي أدركتْ أنّه قدْ أخذَ القوَّةَ منها والآنَ، يعتقد أنّهُ الإلهُ النهائيُّ. بدأتْ الحِكمةُ تدور في حزنِها مسبِّبةً اضطراباً في سكونِ وانسجامِ الكُليّةِ.

أصولُ الأفكارِ الغُنوصيّةِ:

• كما رأينا، اعتقد الغُنوصيّون بأنَّ اللهَ النهائيَّ كانَ بعيداً، ولا يمكن معرفتُه على نحو التمام، وما يمكن أنْ نعرفهُ ونفهمهُ هي الجوانبُ الدنيا أو تجليّاتُ الله فحسْبُ، وأنَّ الكونَ قدْ خلقه إلهٌ أدنى في هيأة نسخةٍ رديئةٍ للعالَمِ الرُّوحيِّ.

• لم تكنْ النظرةُ الغنوصيةُ الى الإلهِ غريبةً على نحوٍ خاصٍّ في سياقِها القديم. والحقيقةُ أنّها كانتْ شبيهةً بأفكارٍ موجودةٍ في أعمالٍ فلسفيَّةٍ في ذلك الوقت كانتْ مدينةً لإفلاطون. في أحدِ أعمالِ إفلاطونَ الأكثر شهرةً، التيماؤوس، وصفَ إفلاطون كيفَ أنَّ إلهاً يُسمى (الديمارج- الفاطر)، قدْ خلقَ الكونَ الذي نقطنهُ في شكلِ نسخةٍ ماديّةٍ لعالَمٍ روحيٍّ مثاليٍّ مصنوعٍ من المُثُل الأبديَّة.

• قبَلَ الآخرون منْ اليهودِ والمسيحيّينَ أيضاً هذهِ الأفكارَ. على سبيلِ المثال، كان (فيلون) فيلسوفاً يهوديّاً عاش في الإسكندرية في مصر في القرن الأوّل الميلادي. يقولُ فيلون بإنَّ اللهَ النهائيَّ هو، ببساطةٍ، وجودٌ في ذاتِهِ خارجَ معرفتِنا المباشرة.

▪ إنجيلُ يوحنّا في العهدِ الجديد لهُ أفكارٌ مشابهةٌ لِما تقدَّم، وِفْقاً ليوحنّا، إنَّ كلمةَ اللهِ هي التي صارتْ إنساناً في يسوعَ المسيحِ وليسَ اللهُ النهائيُّ، الأبُ.

• ما يبرزُ لدى الغنوصيّين في هذا السياقِ هو مسألةُ أنَّ إلهَهُمْ الفاطرَ هو يالدابوث الجاهلُ والشّريرُ وليس الهاً إيجابيّاً، كما لدى إفلاطونَ وفيلونَ والعهدِ الجديد. وكما أُقترِحَ في المحاضرةِ السابقة، الأكثرُ رجوحاً أنَّ الغُنوصيّين قدْ خلصوا الى أنَّ الإلهَ الخالقَ في سِفْرِ التكوينِ هو جاهلٌ وخبيثٌ لسببَيْن.

▪ الأوّلُ، الإلهُ في سِفْرِ التكوين، في أوقاتٍ، يتصرَّف بما يُوحي بجهلِهِ وخبثِهِ. في قَصَصٍ منْ قبيلِ قصَّةِ نوحٍ والطوفانِ، يدمّر الإلهُ أعداداً هائلة من البشر. رُبما رأى الغنوصيُّون في هذهِ الأفعالِ أفعالاً منافيةً لسلوكِ إلهٍ صالحٍ.

▪ الثاني، كانَ ثمَّةَ ميولٌ في التراث المسيحيِّ الى النظرِ الى العهدِ القديم سَلبيّاً. على سبيلِ المثالِ، يفصلُ بولصُ الإيمانَ بالمسيحِ عنْ الخضوعِ للشريعةِ اليهوديَّة: يجبُ على المسيحيّين إتّباعُ الإيمانِ لا الشريعةِ.

▪ وهذا، وبناءاً على الفلسفةِ الإفلاطونيةِ لذلك الزمان، وعلى الإزدواجيّة المسيحيَّةِ حولَ الموروثِ اليهوديّ، استنتجَ الغنوصيُّون أنَّ مَنْ خلقَ هذا العالمَ هو الإلهُ الأدنى يالدابوث، وليستْ الرُّوحُ الخالصةُ والكاملةُ التي لا تدرِكُها الأبصارُ.

-٤-

الغنوصيّةُ: حول الخلقِ، والخطيئةِ، والخلاصِ

الغنوصيّةُ: حول الخلقِ، والخطيئةِ، والخلاصِ

اعتقدَ الغنوصيّونَ بأنَّ سِفر التكوين يخبُرنا عنْ الكيفيّة التي ظهرتْ بها البشريّةُ الى الوجود، وعنْ كيفيّة فَقْدِنا معرفتَنا الأصليّةَ باللهِ، وكيفَ يعملُ اللهُ على مساعدتنا. لكنَّ في سِفر التكوين مشكلةً رئيسةً. على غرارِ أغلبِ الشعوبِ القديمةِ، آمن الغنوصيّون بأنَّ موسى قدْ كَتَبَ الأسفارَ الخمسةَ الأولى منْ الكتاب المقَّدس- التوراةَ وبضمنها سِفرُ التكوين. لكنَّهم اعتقدوا بأنَّ موسى قدْ ارتكبَ خطأً فادحاً: لقدْ اعتقدَ أنَّ يالدابوث هو الربُّ الحقيقي.

وهكذا، يُعيدُ كتابُ الأسرار روايةَ قصَصِ التكوينِ، لكنّه (يُصَحِّحُ) لموسى. في هذه المحاضرة سنُركِّزُ على ثلاثة مواضع في إعادةِ الرواية: خلقِ الموجوداتِ البشريَّةِ، وأحداثٍ في جنَّة عدْن، ومَنْ نجا مِنْ الطوفان.

خلقُ البشريّةِ:

كما تتذكرون، بعدَ أنْ خلقَ يالدابوث هذا الكونَ، زعمَ متغطرساً أنَّهُ الإلهُ الوحيدُ، ندمتْ أمُّهُ، الحكمةُ، على فعلها في التفكير المستقِل الذي جاء بيالدابوث، وقد رقَّ لها وأشفقَ عليها كلٌّ منْ الرُّوحِ غيرِ المرئيةِ والأيوناتِ الأُخَر، وأعادوها الى حالةٍ من الإنسجامِ معَ الكُليّة. وقدْ وُحِدِّتْ الحكمةُ مؤقتاً معَ أيونِ الفكرةِ اللاحقةِ. بعد ذلك، عملتْ الحِكْمةُ والفكرةُ اللاحقةُ مع الفكرةِ الأولى الباربيلو منْ أجلِ استعادةِ القوةِ الالهيّةِ التي أخذَها يالدابوثُ منْ الحِكْمة.

• الخطوةُ الأولى هيَ إلهامُ يالدابوث ليخلقَ العالَم. تُسقِط الفكرةُ الأولى الصورةَ الممتلئة نوراً للكائنِ البشريّ المقدَّسِ على العوالَم الأدنى. يقرِّرُ يالدابوثُ ورفاقُه الحكّام خلقَ كائنٍ بشريّ على هذهِ الصورةِ.

■ يتطابقُ هذا الفعلُ معَ كلماتِ اللهِ في سِفْرِ التكوينِ: «لنصنعْ بشراً في صورتنا». لاحظْ، في هذا المقطع، تُصنَع البشريّةُ في صورةٍ إلهيّةٍ، وتُسهمُ كائناتٌ سماويّةٌ عديدةٌ في عمليةِ الخلقِ.

■ وهذا شبيهٌ باعتقادِ بعضِ اليهودِ والمسيحيّينَ في ذلك الوقت بوجوبِ وجودِ مساعدين لله في خلقهِ لآدمَ وحواء، رُبما كانوا من الملائكةِ.

● يخلقُ يالدابوثُ والحُكّامُ البشريَّةَ مرَّتَيْن، في المرَّةِ الأولى يخلقون كائناً بشريّاً رُوحيّاً، على نحوٍ خالصٍ، ويصنعون جسَمةً من المادَّة التي تُكوِّن الرُّوحَ. في المرَّةِ الثانيةِ، يخلقون جسماً ماديّاً تَحَلُّ فيهِ الرُّوحُ.

■ هذا الخلقُ ذو المرحلتين ينشأ عنْ كونِ خلقِ البشرِ قد رُوِيَ مرَّتَيْنِ في سِفْرِ التكوين (١:١-٢:٣ و٢: ٤-٢٥). يعتقد العلماءُ المحدَثون أنَّ مُحرِّرَ، أو مؤلِّف سِفْرِ التكوين، ركَّبَ قصَّتَيْن منفصلتَيْن أصلاً للخلْق ودمجَهما في كتابٍ واحد.

■ لكنَّ أغلبَ القدامى منْ اليهودِ والمسيحيّين قدْ اعتقدوا بأنَّ اللهَ لا بدَّ أنْ يكونَ قدْ خلقَ النَّاسَ مَرَّتَيْن - في الأولى خلقَهم في صيغةٍ رُوحيّة، في صورةِ اللهِ، وفي الثانية خلقَهم في هيأةٍ ماديّةٍ، في مادَّةٍ طبيعيَّة - قذارة. رُبما، عندما ينفخ اللهُ الرُّوحَ في الإنسان الماديّ، فإنّه يُوحِّدُ الإنسانَ الرُّوحيَّ معَ الإنسانَ الماديَّ.

● يشتركُ كتابُ الأسرارِ في هذهِ الفكرة - لكنْ في التواءٍ. بعدَ أنْ يخلق يالدابوثُ والحكّامُ الإنسانَ، لا يتحركُ الإنسانُ. تُرسلُ الحِكمةُ والباربيلو بعضَ الكائناتِ السماويّةِ متخفيَّةً في هيأة حكّامٍ أدنى الى يالدابوث، وتُقنعُ هذه الكائناتُ يالدابوثَ بأنَّه إنْ نفخَ منْ رُوحه في الإنسان فسيعيشُ الثاني، وقدْ فعلَ يالدابوثُ ما طُلب منه، ولقدْ وقفَ الإنسانُ منتصباً.

■ لكنَّ هذهِ كانتْ خدعةً! نفخَ يالدابوثُ حصتَهُ منْ القوَّةِ الالهيَّةِ مِنْ الكُليّة في الإنسانِ وعندما ينتصبُ الإنسانُ، يُدرِكُ يالدابوثُ والحكّامُ أنَّ الإنسانَ أكثرَ منهم ذكاءاً وقوَّةً.

■ عند ذلك يصنعُ يالدابوثُ والحكّام جسماً ماديّاً منْ القذارة ويضعون الإنسانَ الرُّوحيّ فيهِ. وهدفُ هذا إعاقةُ التفكيرِ الإنسانيّ، وجعلهُ غامضاً، ومنعُ الإنسانِ منْ إدراك تفوّقهِ عليهم.

■ ورداً على هذا، ترسل الباربيلو (النورُ المحيطُ بالرُّوح العذراء، بالإلهِ الأعلى، وهي الأمُّ أيضاً)، ترسلُ، الحكمةَ في هيأةِ فكرةٍ لاحقةٍ لتتخفى داخلَ الإنسان، ولكي تدلَّ تفكيرَ الإنسان الى الكُليّة.

• وهنا تبدأ الدراما العظيمة للخلاص في الأسطورةِ الغنوصيَّة. تسعى الحكمةُ والباربيلو الى استعادة القوَّةِ الالهيّة التي سرقها يالدابوثُ والتي هي الآنَ موجودةٌ في الإنسان. في المقابل، يحاولُ يالدابوثُ وحكّامُه منْعَ الإنسان منْ إدراكِ القوة التي في داخلِهِ واعاقتَهُ عنْ عبادةِ الإلهِ الأعلى. ويستمرُّ هذا الصراعُ العظيم الى يومِنا هذا.

جنَّةُ عَدْن:

• تقعُ اللحظةُ الأولى لهذا الصراعِ في جنَّة عدْن وضِمْن أسرةِ آدم. وكما رأينا، كان يالدابوثُ قدْ وضع آدمَ في جسَدٍ ماديّ، وهذا الجسدُ يميل الى جعلهِ ينسى طبيعتَه الحقَّة. لكنَّ الحكمةَ (wisdom) اختبأتْ داخلَ آدمَ في هيأةِ الفكرةِ اللاحقةِ (afterthought).

• وفقاً لكتابِ الأسرار، يدركُ الحُكّام أنَّ الفكرةَ اللاحقة هي في داخل آدم، وهمْ يحاولون امتلاكها بوساطةِ خلْق جسَدٍ أنثويّ على صورتها. وعندما يأخذ الحُكّام جُزءاً منْ آدم ويستعملونهُ في خلْق حواء، تغادرُ الفكرةُ اللاحقة آدمَ وتدخلُ حواءَ. لكنْ، على نحو المعجزةِ، يُمكِّنُ هذا الحكمةَ منْ الكشف عنْ نفسها لآدم على نحو تامّ. عندَها يستيقظ آدمُ منْ نسيانه، ويدركُ أنَّ نفسَه الحقيقيّةَ هي جزءٌ من الإلهيّ.

• المحاولةُ التاليةُ للحُكّام في منْع آدمَ وحواءِ منْ الأكل منْ شجرةِ المعرفةِ – معرفةِ الخيْرِ والشرِّ – لكنْ، مَرّةً أُخرى، تساعد الفكرةُ اللاحقة آدمَ وحواء بظهورِها في هيأة نسرٍ

وتشجّعهما على الأكل منْ الشجرة. ويأكلانِ من الشجرة ويرتفع تفكيرُهما. يغضب يالدابوثُ منْ إدراك آدم وحواء أنّ يالدابوث ليسَ هو اللهُ ويطردهما منْ الجنَّة.

• كذلك، يرى يالدابوثُ أنَّ الفكرةَ اللاحقةَ - بمعنى الحكمةِ - تشعُّ مِنْ حواء - فيقررُ أنْ يغتصبها. ترسل الباربيلو كائناتٍ الهيَّةً تخرجُ الحكمةَ منْ حواء وهو الأمرُ الذي يعني أنَّ يالدابوثَ يغتصبُ حواءَ لكنّهُ يفشلُ في أنْ يلحق الأذى بالحكمة. يُولَد قابيل وهابيل منْ اغتصابِ يالدابوث حواءَ ممّا يساعد على تفسيرِ المنافسةِ والعداوةِ بيْنهما.

• اغتصابُ يالدابوثَ حواءَ هو أصلُ الجماع (الإتِّصال الجنسي) الذي يُنظر اليه، وعلى نحو واضحٍ، بأنَّهُ أمرٌ إشكاليٌّ. تنشأ الرغبةُ الجنسيَّةُ منْ الحكّام، والإتصالُ الجنسيُّ نفسُهُ يؤدي الى ولادة أجسادٍ مادّيَّةٍ تتشتتُ فيها القوَّةُ الإلهيَّةُ التي أخذها. معَ ذلك، ليسَ الإتصالُ الجنسيُّ سيئاً على نحو كليٍ لأنَّ آدم وحواءَ يمارسانهُ ويُولَد شيثٌ. يولَد شِيثٌ في صورةِ النموذجِ الأوّليّ (archetypal)(١) لشِيثِ السماويّ الذي يسكنُ الكُليّة. وهكذا، يُصبح شيثُ الأبَ الرمزيَّ لكلِّ النّاسِ الذين يحملون في داخلهم القوَّةَ الالهيَّة.

• هذا الجزءُ منْ القِصَّةِ ينتهي باعطاءِ الحُكّام آدمَ وحواءَ ماءَ النسيانِ فيؤدّي هذا الى وقوعِ البشَر في النسيان وينسَوْن أصلَهم الحقيقيَّ.

نوحٌ والطوفانُ:

• في سِفْرِ التكوين، الفصلِ السادس، كائناتٌ غريبة تُسمَّى (أبناءَ الله) تتَّخذُ منْ نساءِ البشرِ زوجاتٍ لها، وتُنجب هذهِ النساءُ عمالقةً. يلي هذا، يرى اللهُ أنَّ البشر يقترفون أعمالاً شريرة. يأسف اللهُ على خلقهِ ويقرِّرُ تدميرَ البشريَّة بوساطة طوفان. ينقذ

(١) أو النمط البدئي: استعملها عالم النفس كارل يونغ (١٩٦١)، ليعني بالأنماط نماذج فطرية، عالمية للأفكار أو مجموعة من الذكريات والتفسيرات المرتبطة بالنمط البدائي. (المراجع).

اللهُ نوحاً وأسرتَه إذْ يأمرُهُ ببناء سفينة.

• اعتقدَ أغلبُ القدامى منَ اليهود والمسيحيّين بأنَّ (أبناءَ اللهِ) هم ملائكةٌ أشرارٌ ساقطون أفسدوا نساءً منَ البشَر. على الرَغْمِ منْ أنَّ الطوفانَ الذي أرسلهُ اللهُ كانَ كارثيّاً، آمن القُرّاءُ منَ التاريخ القديم بأنَّ الطوفان كانَ عقاباً عادلاً منَ اللهِ للبشر المُذنبينَ.

• في كتابِ الأسرار، يريدُ يالدابوث، أيضاً، أنْ يدمّرَ البشريَّةَ لأنَّها لمْ تعبدْهُ ولم تخدمْهُ على النحوِ الصحيح. مع ذلك، يوجّه الباربيلو نوحاً الى وَعْظهم حولَ الحقيقة. يفشل نوحٌ في اقناع أغلب الناس، لكنْ، يُصغي لهُ عددٌ منهم، وعلى وجهِ الخصوص، جماعةٌ تُدعى العِرْقَ الساكنَ (immovable race). تنقذُ الفكرةُ الأولى نوْحاً والعِرْقَ الساكنَ من طوفان يالدابوث في سحابٍ بارق. وهكذا فالبشرُ الذين نجَوْا منْ طوفان يالدابوث هم أولئكَ الذين أصغَوْا الى وعْظ نوحٍ وهم المخلِصون للألوهيّةِ الحقَّةِ.

• بعد ذلك، يرسل يالدابوثُ ملائكته الخاصّين الى الأرض للتزاوج معَ نساءٍ من البشر. في أوّل الأمر تقاوم النساءُ الملائكةَ الأشرار، حينَذاك يُلفِّق الحكّام (روحاً مزيَّفة) تضلِّلُ البشرَ وتحتَ تأْثير الرُّوحِ المزيَّفة، يحدث اتصالٌ جنسيٌ بينَ النساءِ البشريّات والملائكةِ الأشرار، وتخسرُ البشريَّةُ معرفتَها للإلهِ الحقيقيِّ (الله).

الخلاصُ:

• يتحدثُ كتابُ الأسرار عنْ الناس الذين أُنقذوا باعتبارهم جُزءاً من الذُريّة التي انحدرتْ منْ شيثٍ، أو ارتبطتْ معه، كذلك، يشير الى النَّاس الذين أُنقِذوا باعتبارهم (العِرْقَ الساكن). هذه اللغة تجعل الأمر يبدو كأنَّما بعضُ البشر فحَسْبُ لديهم القوَّةُ الإلهيَّةُ في داخلهم وسيُنقَذون.

• لكنْ في كتاب الأسرار، يتحدث المُخلِّص عن قوَّتَيْن نشيطتَيْن في حياة الكائنات البشريَّة: رُوحِ الحياة التي تنحدر منْ فوق، منْ الرُّوح غيرِالمرئيَّة والباربيلو،

والروحِ المزيَّفة التي تأتي منْ أسفل، منْ يالدابوث والحكّام. هاتان الروحانِ تنزلانِ على الإنسان وتتنافسانِ على التأْثير في الأرواحِ البشريَّة.

• يقسّمُ المخلِّصُ الناسَ الى ثلاث جماعات ليفسّرَ الخلاصَ على النحوِ الأكثر:

▪ الجماعةُ الأولى تتألف منْ النَّاس الذين تنزلُ عليهمُ روحُ الحياة والذين يصيرون كاملين مستحقّين للخلاص. وهذه الأرواحُ تحصلُ على الحياة الأبديَّة. هذهِ الطائفةُ منْ الناس يجب أنْ تكون الغنوصيّين وأولئكَ الذين يصغون الى تعاليمهم فيصبحون غنوصيّين (عارفين).

▪ الجماعةُ الثانية تتضمَّن الأرواحَ التي تنزلُ عليها الرُوحُ المزيَّفة، وهم يُقادون الى عمل الخبائث. وهؤلاءِ ليسوا غنوصيّين ويرفضونَ الرسالةَ الغنوصيَّة. عندما يموتُ هؤلاءِ، تحَلُّ أرواحُهم في أجسادٍ أُخَر ويمرّون بحيواتٍ متعددةٍ حتّى يتكاملوا ويصلوا الخلاصَ.

▪ الجماعة الثالثةُ تشتمل على الناس الذين (عَرفوا، ثُمَّ أعرضوا عمّا عرفوهُ). وهذه الأرواحُ ستُعذَّب بعقاب أبديّ، الى جانب الحُكّام، في نهايةِ الزمان. بعبارةٍ أخرى، المُرتدّون هم البشرُ الوحيدون الذين سيعانون اللعنةَ الأبديَّة.

• كيف سيُخلِّص الناسُ؟ يشير كتاب الأسرار مراراً الى النَّاس باعتبارهم قدْ ضاعوا في (النسيان). لقد نسينا مَنْ نحنُ حقاً - نحنُ شظايا إلهيَّةٌ منْ الكُليّة. لهذا، يحتاج النَّاسُ الى أن يُخرَجوا منْ النسيانِ والى العودةِ الى معرفةِ اللهِ. ومَنْ ينجزُ هذا الأمرَ هو الفكرةُ الأولى، أيْ، الباربيلو.

• في كتابِ الأسرار، تخبرُنا الفكرةُ الأولى أنّها قدْ نزلتْ الى البشريَّةِ مَرَّتَيْنِ من قَبلُ، لكنْ كانَ عليها العودةَ الى الكليَّة، لئلا تُدمَّر البشريَّةُ. أخيراً، تخبرُنا أنّها جاءتْ الى البشريَّةِ مرَّةً ثالثةً، وأخيرةً. وأصبحتْ متجسدةً في الجسَد البشريّ، وأعلنتْ فيهِ رسالةَ خلاصٍ وإيقاظِ الكائناتِ البشريَّة.

■ لأنَّ كتابَ الأسرار يُعرِّف يسوعَ بأنَّه المسيحُ والمخلِّص، يبدو معقولاً أنْ نستخلصَ أنَّ زيارةَ الفكرةِ الأولى (forethought) للبشريَّة في جسَدٍ تشيرُ الى تجسُّدِها في يسوع. ومِنْ خلال يسوعَ تدعو الباربيلو الكائناتِ البشريَّةَ الى الاستيقاظ مِنْ رقدتها لإدراك طبيعتِها الحقَّةِ، والى مقاومة يالدابوث والحكَّامِ والى أتْباعها (الباربيلو). يمكنُنا الحصولُ على الخلاص بالالتحاقِ بالغنوصيّين.

في كتابِ الأسرارِ، لا ينقذُ يسوعُ الناسَ بوساطةِ موتِهِ مِنْ أجلِ خطاياهم، بلْ بوساطةِ إيصالِ رسالةِ الباربيلو في هيأةٍ بشريةٍ.

-٥-

يهودا كبطلٍ غُنوصيٍ تراجيديٍ

يهودا كبطلٍ غُنوصيٍ تراجيديٍ

صارَ اسمُ يهودا ممثِّلاً للخيانةِ والغدرِ. إذاً، ربما يبدو مثيراً للدهشة أنْ نعلمَ أنَّ الغنوصيّين لديهم نصٌّ يدعى إنجيل يهودا، يزعمُ أنَّ يسوعَ قدْ كشفَ ليهودا وحدِهِ الحقيقةَ المتعلقةَ بالله وبخلْقِ هذا العالم والبشريَّةِ. أَضفْ الى ذلك، عندما سلَّمَ يهودا يسوعَ الى الصلْب فإنّه حرَّكَ أحداثاً ستؤدي الى تحلُّلِ نظامِ العالَم القائمِ وإقامةِ نظامٍ جديد مكانَهُ. إنْ كانَ كتابُ الأسرار المنسوبُ الى يوحنّا قدْ مثَّلَ صيغةً غنوصيّةً جديدةً لقصَّة الخلقِ لسِفْر التكوين عندَهُ، فانَّ إنجيلَ يهودا يمثِّلُ صيغةً غُنوصيّةً جديدةً لقصَصِ الأناجيلِ حولَ يسوع.

اكتشافُ إنجيلِ يهودا:

• لم يُعثَر على إنجيل يهودا في نجع حمّادي. كان مُضَمَّناً في مخطوط (codex) قِبْطيٍ قديمٍ يُعرَف بـ(Codex Tchacos). وللأسف تضرَّرَ هذا المخطوطُ بقدْرٍ كبيرٍ، وأغلبُ الضررِ الذي حاقَ به حدثَ بعدَ اكتشافه.

• كان هذا المخطوطُ (codex Tchacos) واحداً منْ أربعةِ مخطوطاتٍ عثرَ عليها فلاحون في أواخر سبيعينيّات القرن العشرين، في كهفٍ قديم للدفْنِ يقع على مسافة ٣٥ الى ٤٠ ميلاً عن مدينة (المنيا) المصرية. ولأنَّ المنيا تقعُ شمالَ نجْع حمّادي، فمنْ غيرِ الراجحِ أنْ تكونَ هذه المخطوطاتُ جُزْءاً منْ نفسِ مجموعةِ مخطوطاتِ نجْعِ حمّادي.

• بعدَ العثور عليها، تناقلتها أيادي سلسةٍ منْ تجّار الأعمال القديمة الذين لم يحسنوا التعاملَ معها. وقد انتهى المطافُ بها الى حيازة مؤسَّسةِ (Maccenas) للفن القديم في سويسرا. وتحتَ رعاية المؤسَّسة، استطاع فريقٌ صغير من العلماء إعادةَ

بناء هذا المخطوط الممزَّق وترجمةَ نصّهِ. في ربيعِ عام ٢٠٠٦ قُدِّمَت نتائجُ هذا العمل الى العالم.

● لكنَّ القصَّة لم تنتهِ هناك. يظهر أنَّ واحداً من التُّجار احتفظَ ببعض الأجزاء التي لم تتوفر الّا في الأعوام القليلةِ المتأخرة. ويرجحُ أنَّهُ لا تزالُ أجزاءٌ أكثرُ موجودةً لم يطَّلع عليها العلماءُ.

الأُسطورةُ الغُنوصيَّةُ في إنجيلِ يهودا:

● في المشهدِ الأوّلِ منْ إنجيل يهودا يعثرُ يسوعُ على التلامذة يصلّون صلاةَ الشكر على الخبز فيضحك منهم. يسألُ التلامذةُ يسوعَ: «أيُّها المعلمُ، لِمَ تضحكُ منْ صلاةِ شكرِنا؟ ماذا فعلْنا؟ هذا هو الشيءُ الصحيحُ». ويردُّ عليهم يسوعُ: «لستُ أضحكُ مِنكم - أنتُم لا تقومونَ بهذا بإرادتِكم، بلْ، بهذا يتلقَّى ربُّكم الثناءَ». وهذا أوَّلُ مؤشّرٍ الى أنَّ إنجيل يهودا غُنوصيٌّ. فهو يرفض الإلهَ الذي يعبدُهُ المسيحيّونَ الآخرون، إلهَ العهدِ القديم.

● إشهارُ يسوعُ أنَّ إلهَ التلامذةِ ليسَ إلهَهُ هو أمرٌ يغضبهم. ويتحدّاهم يسوعُ: «دَعُوا مَنْ هوَ قويٌّ بينَ الناسِ يُمثِّلِ الانسانَ الكاملَ ويقفُ أمامي». بعبارةٍ أخرى، يريدُ يسوع أنْ يعرف ما إذا كان أيُّ واحد منْ التلامذة ينتمي الى النَّاس الناجينَ (المخلَّصين)، وما إذا كان أيٌّ منهم يمكنه أنْ يكشف معرفتَهُ (gnosis) أمامَه.

● لا يجرؤُ أيٌّ من التلامذة على إجابةِ يسوع، ما عدا يهودا الإسخريوطي. يقف يهودا أمامَ يسوعَ ويقول: «أعرفُ مَنْ أنتَ ومِنْ أينَ أتيتَ. أتيتَ من الأيونِ الخالدِ، الباربيلو. لكنْ، بالنسبة الى الفرد الذي أرسَلكَ، لا أستحقُّ أنْ ألفظَ أسمَهُ».

■ هذا المشهدُ قدْ صِيغ، تقريباً، وِفْقَ نموذجِ المشهدِ الموجود في أناجيلِ العهدِ الجديد، وفيه يسألُ يسوعُ التلامذةَ: «مَنْ أنا برأيكم؟»، وهم يجيبون إجاباتٍ مختلفة، إلّا (سيمون بيتر) فقدْ أجابَ على النحوِ الصحيح «أنتَ المسيحُ، إبنُ اللهِ الحيّ».

يؤتِيسُ هذا المشهدُ لِيبترَ كقائدٍ للتلامذة؛ هو الوحيدُ الذي يصرّحُ بهُويّة يسوع.

■ لكنْ، في إنجيل يهودا، مَنْ يجيبُ هو يهودا، وهو يقول بأنَّ يسوع قدْ جاء من (أيون الباربيلو). مع ذلك يقول يهودا بأنه لا يمكنُهُ أنْ يُسمّي مَنْ أرسلَ يسوع. والأكيد أنَّ هذا الإلهَ الذي لا يمكن تسميتُه هو الرُّوحُ غيرُ المرئيَّة، اللهُ النهائيُّ، الذي لا تحيطُ به العقولُ والحواسُّ، الواردُ في كتاب الأسرار المنسوب الى يوحنّا.

• فيما بعدُ، وفي الإنجيل، عندما يكشف يسوعُ ليهودا الطبيعةَ الحقَّة للهِ والكونِ، تظهرُ عناصرُ أُخَر للأسطورةِ الغنوصيَّة وتشتمل على (ذاتيّ النشوء)، وخدمِهِ الملائكيّين، والكائنِ البشريّ السماويّ، آدماس. كذلك، ثمَّة العديدُ منَ الإشارات الى (العِرْقِ العظيمِ غيرِ القابلِ للسيطرة) المرتبطِ بِشِيثٍ. معَ ذلك، ثمَّةَ وجهانِ لاختلافِ إنجيل يهودا عنْ كتابِ الأسرار المنسوب الى يوحنّا.

■ الوجهُ الأوّل، وجودُ اهتمامٍ أقلّ بكثيرٍ بالشخصيّات الأنثوية سواءٌ أكانتْ سماويّةً أمْ بشريّةً.

■ الوجهُ الثاني، في كتاب الأسرارِ، لا يبدو وجودُ إرادةٍ للهِ في أنْ يُوجدَ يالدابوثُ. لكنْ، في إنجيلِ يهودا يظهرُ يالدابوث ومساعدُهُ (ساكلاس) الى الوجود بمبادرةٍ منْ شخصيّةٍ سماويّةٍ، التي يبدو أنَّها (إيليليث)[1]. وهي واحدةٌ من خدَمِ (ذاتي النشوء) الأربع.

■ على الرغمِ منْ هذهِ الفروقِ، كتابُ الأسرار المنسوبُ الى يوحنّا، وإنجيلُ يهودا، كلاهما يعلّمان الأُسطورةَ الغنوصيّة الأساسيّةَ. ويتّفقُ الإثنانِ على أنَّ الهَ العهد القديم هو أدنى وأنَّه كائنٌ سماويٌّ كاذبٌ. اللهُ الحقُّ هو الرُّوحُ غيرُ المرئيّةِ وفيضاهُ الأساسيّانِ

(١) أصل شخصية ليليث الأسطورية هي شيطانة عواصف من بلاد الرافدين تُرافق الريح، واعتُقِد أنها تحمل المرض والموت. ظهرت ليليث للمرة الأولى كشيطان أو روح مرتبطة بالرياح والعواصف، عُرفت باسم ليليتو في سومر، حوالي ٣٠٠٠ ق. م. وهي تظهر في المعارف اليهودية باعتبارها شيطان الليل، وكبومة نائحة في طبعة الكتاب المقدس. (المراجع).

هما الباربيلو، وذاتيُّ النشوءِ.

دورُ يهودا:

• كما أوردنا، يهودا هوَ الشخصيّةُ الوحيدةُ في إنجيل يهودا التي تمتلكُ المعرفةَ باللهِ ويسوعَ. يعبد التلامذةُ الآخرون (ساكلاس) مخطئينَ (يُعَرِّفُ هنا باعتبارِهِ إلهَ العهدِ القديم)، ويعتقدون أنْ يسوعَ يأتي منْ ساكلاس. من شأن هذا أنْ يبدو كإشارةٍ الى أنَّ يهودا شخصيةٌ ذاتُ امتيازٍ، عضوٌ في العِرْق العظيمِ الذي يقولُ الإنجيلُ بأنّه سيحصلُ على الخلاص.

• لكنَّ دورَ يهودا في الإنجيلِ ليسَ إيجابياً جداً. على سبيلِ المثالِ، يقول يسوعُ ليهودا في واحدٍ منْ المواضع: «سأُخبرُكَ بأسرارِ المملكةِ، ليسَ لكي تذهبَ الى هناك، بلْ، لكي تكونَ أكثرَ حُزناً». أيْ، يقول يسوع بأنَّ يهودا ليسَ واحداً من النَّاسِ الذين سيحرزون الخلاصَ. مثلُ هذهِ المقاطعِ تبدو مشيرةً الى أنَّ يهودا شخصيَّةٌ سلبيَّةٌ.

• يميلُ أغلبُ العلماءِ الى النظرِ الى يهودا ليسَ باعتباره شرّاً، بلْ، باعتبارِهِ غامضاً ملتبساً. يهودا نوعٌ منْ البطلِ التراجيديّ: يلعبُ دوراً أساسيّاً في الخلاص، لكنَّهُ دورٌ يعاني منْ أجلِهِ، رُبما لا يكون قَدَرُهُ النهائيُّ أنْ يسكن السماءَ، لكنَّهُ سيتلقَّى موضعاً مُمجّداً يمنحُهُ قوّةً ومرجعيّةً عظيمتَيْن.

• وعلى نحوٍ يثيرُ الاهتمام، وجهةُ النظرِ هذهِ المتعلقة بيهودا لا تختلفُ كثيراً عمّا نراه في أناجيل العهد الجديد. فهناكَ، خيانةُ يهودا مطلوبةٌ لخلاصِ البشريّة؛ إنَّها جزءٌ منْ خطَّة الله وقدْ تنبّأَ بها العهدُ القديم، ويموتُ يهودا بسببِ ذنبِهِ. في الإنجيلِ الغنوصيِّ، يجبُ على يهودا أنْ يسلّم يسوعَ وهو يعاني الماً لفعلِهِ هذا، لكنَّهُ يحصلُ على موقعٍ بارزٍ في الكون.

• رُبما تكونُ اللحظةُ الأكثرُ جدلاً منْ أجلِ فهمِ يهودا في إنجيل يهودا هيَ عندما يخاطبه يسوعُ قائلاً: «أنتَ الشيطانُ (daimon) الثالثَ عشر».

■ في العصورِ القديمةِ، الكلمةُ اليونانيّة daimon، بمعنى شيطان، تقوم أحياناً بوظيفةِ مصطلح عامّ لكلِّ الكائناتِ السماوية بما في ذلك الآلهة. مع ذلك، في أحيان كثيرة تشيرُ على نحو خاصّ الى كائنات سماويّةٍ في موقعٍ متوسطٍ بين آلهةٍ كاملةِ الأهليّةِ مثلِ أبولو، وبينَ بشَرٍ خارقينَ مثلِ هيراقليس.

■ بَلْ على نحوٍ أكثرَ خصوصيّةً، غالباً ما يستعمل الفلاسفة كلمة daimon في إشارةٍ الى الكائنات السماويّة، التي عاشتْ وعملتْ داخلَ كوننا، في حين سكنتْ الآلهةُ في عالَمٍ مختلف. وقدْ فوّضتْ الآلهةُ الى هذهِ الكائناتِ وظيفةَ إدارةِ هذا العالم تحتَ إشرافِها.

■ يبدو محتملاً أنَّ إنجيلَ يهودا يستعملُ مصطلحَ diamonds بهذا المعنى المحايدِ أخلاقيّاً وليسَ بمعنى شيطان (demon). على هذا، يخبرُ يسوع يهودا بأنَّ الثانيَ سيحصل على (ترقية) من منزلةِ كائنٍ بشريّ الى حاكمٍ سماويّ. وسيحدثُ هذا ليهودا لأنّه، تحديداً، الوحيدُ الذي يعرف الحقيقة الكاملة حولَ اللهِ وحولَ يسوعَ، لأنّه كان راغباً في القيام بفعل أدّى الى صلْب يسوعَ الخلاصيّ.

إعادةُ تنظيمِ الكونِ:

• الرسالةُ النهائيّةُ لإنجيلِ يهودا هي رؤيةٌ غُنوصيّةٌ لإعادةِ تنظيمٍ مستقبليةٍ للكونِ - شيءٌ يساعدُ يهودا في تحريكِهِ.

• يخبرُ يسوعُ السماويُّ يهودا بأنَّ الأوّلَ سيُضحّي بالكائنِ البشريّ الذي يسكنُهُ يسوعُ وليسَ بالمخلّصِ السماويّ نفسِهِ. وهذا العملُ سيحرّكُ سلسلةً منْ الأحداث ستؤدي الى تحلُّل نظامِ العالَم القائمِ، وإعادة تأسيسهِ تحتَ قيادة يهودا، الحاكمِ (daimon) في أعلى سماءٍ منْ عالمنا، السماءِ الثالثة عشرة.

■ سيُطاحُ بالقادةِ الحاليّين الذي يقودهم يالدابوتُ وساكلاسُ؛ وحتّى النجومُ المرتبطةِ بهمْ ستُدَّمر. وسيحلُّ يهودا محلَّهم كحاكمٍ للكون المـاديّ، في حين

سيدخل الناسُ الذين أُنقذوا المملكةَ الروحيَّةَ.

• إحدى النقاط المثيرة للاهتمام في هذه الرؤية هي دورُ النجوم. كما رأينا في كتاب الأسرار المنسوبِ الى يوحنّا، اعتقد الغنوصيّون بأنَّ الطريقَ الوحيد الذي سلكه يالدابوثُ والحكّام الأشرار الآخرون في محاولتهم إعاقةَ معرفتنا لله هي السيطرةُ على قراراتنا بوساطة القدرِ الذي يمكن تسييدُهُ بوساطة النجوم. مع ذلك، وفقاً للغنوصيّين، عملَ أيون الباربيلو، ومنْ خلالِ يسوع، على تحرير الكائناتِ البشريَّة منْ القدَر والنجوم بوساطة المعرفة (gnosis).

▪ كذلك، يتحدَّثُ إنجيلُ يهودا عنْ النجوم ترشدُ وتدلُّ الناس، لكنَّهُ لا يستخدم مصطلح (قَدَر)، ويربطُ نجوماً معينة مع كائناتٍ بشريَّةٍ معيَّنةٍ ومعَ جماعاتٍ منْ النَّاس. على سبيلِ المثال، ليهودا نجمُهُ الخاصُّ الذي يمكن أنْ يهديهُ أو أنْ يُضلَّه.

▪ يبدو أنَّ هذا الفهمَ للنجوم أقربَ الى الكتاباتِ اليهوديَّةِ القديمة حيثُ فيها النجومُ كائناتٌ تشبه الملائكةَ أو الشياطين، تقودُ، وتؤثِّر في الأحداث، لكنْ، كجُزْءٍ منْ خطَّة أوسع يوجّهُها اللهُ، كما إنَّ تأثيرها ليسَ قسْرياً كالقدَر.

• كذلك، منْ المثيرِ للإهتمام أنْ نلحظَ أنَّ إنجيل يهودا يرفع يهودا الى موقعِ حاكمِ العالَم المستقبليِّ، ويصوِّر التلامذةَ الآخرينَ باعتبارِهم جاهلينَ بالحقيقةِ الدينيّةِ.

▪ في رؤيا غريبةٍ، يرى التلامذةُ أنفسَهم في هيأة كهنة تقوم بالتضحية عندَ المذبح. يقدِّمون الحيوانات، بلْ وحتى البشَر، قرابينَ لله ويكتسبون الكثير من الخطايا الأُخَر- كلُّها بإسم يسوع. وعندما يخبرُ التلامذة يسوعَ رؤياهم يأمرهم بحزْم «توقَّفوا عنْ تقديمِ الأضاحي منْ الحيوانِ». بعبارةٍ أخرى، توقفوا عنْ الذهاب بالمسيحيّين الآخرين الى موتهم الرُّوحيِّ.

▪ وهنا، ينتقد الإنجيلُ بشدَّةٍ القادةَ المسيحيّين الذي يزعمون كونَهم خلفاءَ الرُّسل، الذين يعملون ككهنة ويحتفلون بإقامة القربان المقدَّس (العشاءِ الربَّانيّ) باسم يسوع باعتباره تضحيةً مسيحيَّةً جديدة لوجه اللهِ. بمعنى آخر، هوَ يصوِّر الأساقفةَ والقساوسة

المعاصرين ككهنةٍ زائفين يعبدون الهاً زائفاً من الكتاب المقدَّس ويقودون أتباعَهم الى اللعنة.

يروي إنجيلُ يهودا الغنوصيُ سلسلةَ حواراتٍ بينَ يسوعَ وتلامذتِهِ وبينَ يسوع ويهودا التلميذِ الوحيدِ الذي يحوزُ المعرفةَ الحقَّة.

-٦-

قَصَصُ الإنجيلِ الغُنوصيِّ

قَصَصُ الإنجيلِ الغُنوصيّ

كما رأينا في كتابِ الأسرار المنسوب الى يوحنّا وإنجيلِ يهودا، يُعيد الغنوصيّونَ سرْدَ قصصٍ منْ الكتاب المقدَّس. وتقريباً، عادةً ما تكون قَصَصاً منْ الفصول الأولى من سِفْر التكوين. في هذه المحاضرة، سنناقش نصَّينِ غنوصيّيْنِ آخرَيْنِ يعيدانِ أيضاً كتابةَ الفصول من سِفْر التكوين: وهما وحيُ آدم، وحقيقةُ الحكّام. هذان النصّان المذهلان ساعدا القُرّاء الغنوصيّين على أنْ يروا كيف ارتبطتْ القصَصُ في سِفْر التكوين بهم وبخلاصهم. كما إنّها تساعد في تفسير ملامحِ معيَّنةٍ للنصّ الكتابيّ الذي يراه الغنوصيّون والنّاسُ القدامى إشكاليّاً وغامضاً.

خلفية النصَّيْن:

• كُتِبَ (وحيُ آدم)، و(حقيقةُ الحكام) في الأصل باليونانيّة، وربما يرجع تاريخُهما الى القرْن الثاني أو أوائل القرن الثالث الميلاديين.

• يقدِّمُ وَحْيُ آدمَ نفسَه باعتبارهِ وحيَ آدمَ الأخيرَ لولدهِ شِيْث. يوضح آدمُ كيف خُلِق هو وحواء وما حدث لهما في جنّة عدْن. بعد ذلك يتأمّل أحداثَ المستقبل في سِفْر التكوين منْ قبيل الطوفان وسدوم وعمورية.

• يُزعَم أنَّ نصَّ حقيقة الحكّام قدْ أُرسِلَ منْ المعلِّم الغنوصيّ الى تلميذ سأَل عن حقيقة الكائناتِ الرُّوحيّة التي تظهر في رسالةِ العهدِ الجديد الى أهل أفسوس[1]. يكتبُ مؤلّف أهلِ أفسوس: «ليسَ صراعُنا مع اللّحمِ والدمِ، بلْ معَ سلطاتِ العالمِ والحشودِ الرُّوحيّةِ لِلخبيثِ». يسعى المؤلّف الغنوصيُّ الى إيضاح أصلِ وطبيعة

(1) أو أفسس: من أعظم المُدن الاغريقية القديمة في الأناضول. أسست في القرن العاشر قبل الميلاد. كانت أهم مركز للمسيحية. استخدمها الرسول بولس كقاعدة له. كتب رسالة كورنثوس الأولى منها. (المراجع)

الحُكّام الرُّوحيّين لهذا العالَم.

إعادةُ سردِ قصصِ الكتابِ المقدَّسِ:

• يُعيدُ اليهودُ والمسيحيونَ سرْدَ قَصَص الكتاب المقدَّس لعددٍ من الأسباب. أحدُ الدوافع، على سبيلِ المثال، هو لحلِّ التناقض بينَ رواياتٍ مختلفةٍ لأحداثٍ وردتْ في الكتاب المقدَّس. كذلك، رُبما يرغب النَّاس في ملء فراغات في قَصَص معيَّنةٍ، أو، إضافةِ عناصر لم تردْ في الكتاب المقدَّس. أضف الى ذلك، قدْ يكرِّرُ النَّاسُ إعادة رواية قَصَص الكتاب المقدَّس لخلقِ أمور لاهوتيّةٍ، أو، لربطِ أنفسهم على نحوٍ أكثر قُرْباً مع القَصَص.

• اليهودُ والمسيحيّون القدامى يعيدون روايةَ قَصَص الكتاب المقدَّس لنفس الأسباب. على سبيلِ المثال، بعضُ النصوص الأكثرُ إثارةً المتبقّيةُ من اليهوديَّة القديمة هي مجموعةُ كتُبٍ تدعى (الترجوم)[1]. وهذه هي صيَغٌ منقَّحة للكتاب المقدَّس باللغة الآراميَّة. مثل هذه الكتب كانتْ مُهمَّةً، وسببُ ذلك أنَّ كلَّ الكتاب المقدَّس اليهوديّ يُكتَب باللغة العبْريَّة، لكنْ، خلال القرون الميلاديَّة القليلة، أغلبُ اليهود العاديّين في فلسطين قدْ تحدثوا بالآراميَّة.

• الترجوماتُ لا تترجمُ قَصصَ الكتاب المقدَّس فحسْبُ، بلْ أيضاً تنقُّحها. وبهذا فهي تُبرز هُمومَ اليهود القدامى. تأمَّلْ، مثلاً، الكتابَ المعروف بإسم ترجوم جوناثان

(١) كلمة آرامية من الأصل الأكادي (تورجومانو) وتعني (مترجم)، ومنها انتقل الجذر إلى عدة لغات سامية أخرى، كالعربية والآرامية والعبرية. ويُطلَق المصطلح على الترجمات الآرامية للكتاب المقدَّس. وقد وُضعت هذه الترجمات في الفترة الواقعة بين أوائل القرن الثاني وأواخر القرن الخامس قبل الميلاد. وأصبحت مثل هذه الترجمة أمراً مهماً بالنسبة إلى اليهود، لأن الآرامية حلَّت محل العبرية بعد التهجير البابلي. فمنذ أيام عزرا، كانت تُضاف ترجمة آرامية بعد قراءة أجزاء من العهد القديم، وصار هذا تقليداً ثابتاً. ومن أشهر الترجمات الآرامية للكتاب المقدَّس: ترجوم أونكيلوس لأسفار موسى الخمسة، وترجوم يوناثان لبقية أسفار العهد القديم. (المراجع)

المنحول. ربما يرجع تاريخُ صيغتهِ النهائيّةِ الى القرن الثامن الميلاديّ، لكنّه يحتوي تراثاً وموادّاً ترجع الى زمن الغُنوصيّين في القرنين الثاني والثالث.

▪ يُعيد هذا الترجومُ روايةَ سِفر التكوين، وواضحٌ أنَّ الأمَر الذي يشغل بالَ المؤلّف هو طبيعةُ وشخصيَّة الله في سِفر التكوين. على سبيلِ المثال، في قصَّة الكتاب المقدَّس حولَ جنَّة عذن، يسأل اللهُ آدمَ «أينَ أنتَ؟». وهذا السؤال يجعل الإلهَ يبدو بشرياً وجاهلاً. لكنْ، في الترجوم ليس اللهُ نفسُه هو الذي يسير في الجنة إنَّما هو كلمةُ الله (word) (في الآرامية: Memra)، وهي نوع من التجليّ الأدنى للإلهِ النهائيّ.

● كذلك، يجعل ترجومُ جوناثان المنحولُ قصةَ التكوين ذاتَ علاقة بدرجةٍ أكبرَ معَ اليهود المعاصرين. وفي وقت تأليفِ الترجوم كانَ الحاخامات يشجّعون اليهودَ على بناء حياتهم على أساس اتّباعٍ شديدٍ للشريعة كما هي في الكتاب المقدَّس. لكنْ في الكتاب المقدَّس لا تظهر الشريعةُ حتَّى زمنِ موسى. مع ذلك، في الترجومِ يمنح اللهُ آدمَ وحواءَ الشريعةَ في الجنَّة، وبهذا يضعُ المعتقداتِ والممارساتِ الدينيَّةَ المعاصرةَ في قصَّة الكائنات البشريَّة الأولى.

إعادةُ الروايةِ الغُنوصيّةِ حولَ الخلقِ:

● النصَّانِ، الوحيُ الى آدم، وحقيقةُ الحكام، ينفقان وقتاً في مناقشة خلْق البشَر، وهمُّهما الأوّلُ هو مرورُ الرُّوح الإلهيَّة أو القوَّةُ الإلهيَّة الى داخلِ وخارجِ آدمَ وحواءَ.

● كما رأينا في كتاب الأسرار المنسوب الى يوحنّا، أتتْ القوَّةُ الالهيَّة الى البشر عبْر يالدابوث وانتشرتْ في البشريَّة. تمكِّن هذه القوةُ الالهيَّة البشَرَ منْ معرفة الله الحقيقيّ، وقصةُ الخلاص هي قصَّة عملِ اللهِ مِنْ أجل عودة القوَّة الى العالم الرُّوحيّ للكُليّة.

● في كتـابِ الوَحْي الى آدم، يخلقُ يالدابوث وأتباعُه منْ الحُكّامِ البشريّةَ في مرحلتين، تماماً كما في كتاب الأسرار، لكنْ، هنا يوضح المؤلّف أنَّ الكائنَ البشريَّ الرُّوحـيّ الأصـليَّ هو خنثى مكوَّنٌ من كـلٍّ منْ آدمَ وحـواءَ. إنَّ العديد منْ اليهود

والمسيحيّين في العالم القديم قدْ اعتقدوا أنَّ الانسانَ الأصليَّ (الأوّل) كان خنثى في الجنس بسبب نصٍ قصةِ الخلق في الكتاب المقدس جاء فيهِ: «وخلقَ اللهُ الانسانَ؛ خلقَهُ على صورتِهِ: وجعلهما ذكراً وأنثى» (التكوين ١: ٢٧).

• فلنتذكرْ أنّه في الفصل الثاني من سِفْر التكوين تبدوعملية الخلق مُعادةً. هنا، يخلق اللهُ آدمَ ويضعهُ في الجنَّة، لكنّه لمْ يجدْ له شريكاً مناسباً منْ الحيوان؛ لذلك صنع اللهُ امرأةً منْ ضلع آدم.

▪ وكما أسلفنا، يعتقد علماءُ الكتاب المقدَّس المحدَثونَ بأنَّ سِفر التكوين يمثِّل تركيباً لسردَيْن منفصلَيْن أصلاً للخلْق وجعْلَهما قصَّةً واحدةً مُرْبكة الى حدٍ ما. لكنَّ القدامى منْ اليهود والمسيحيّين قدْ اعتقدوا بأنَّ مؤلّفاً واحداً مُلهَماً من السماء، هو موسى، قد كتبَ كلَّ سِفْر التكوين: وهكذا، كانَ عليهم أنْ يفهموا الروايتَيْنِ كرواية متَّسقةٍ واحدة.

▪ كانَ الحلُّ المنتشر هو القول بأنَّ النصَّ الأوّل للتكوين يروي خلقَ إنسانٍ خنثويٍّ مثاليٍ، وأنَّ النصَّ الثاني منْ التكوين يخبرنا عنْ تقسيم هذا الإنسانِ الى ذكرٍ وأنثى معَ نتائجَ سَلبيَّةٍ وإيجابيَّةٍ للأمر.

▪ هذا هو الموقف في كتاب الوحي المُنزَل على آدم. عندما خُلِق آدمُ و حواءُ مرَّةً وحَلَّتْ القوَّةُ الإلهيَّةُ، أو المجدُ الإلهيُّ، فيهما وجعلتْهما متفوقَيْن على الحُكّام الذين صنعوهما. لكنْ، عندما فصل الحكّامُ آدمَ وحواءَ الى كائنَيْن، غادرتْهما القوَّةُ الإلهيَّةُ وحلَّتْ في بشَر آخرين، وتحديداً، في نَسلِ شيث.

• حقيقةُ الحُكّامِ هي كذلك مموَّهةٌ بالانقسام الى آدم وحواء، وهنا أيضاً تكون النتيجة خسارةَ القوَّةِ الإلهيَّة. في هذا النصّ، يبدو الإنسانُ الأصليُّ هوَ آدمُ تماماً، لكنّه يحمل في داخله القوَّةَ الالهيَّة أو المساعدَ الرُّوحي، الذي يُصَوَّر في هيأةِ انثى. يحاولُ الحُكّامُ الكونيّون الأشرارُ الحصولَ على هذهِ القوَّةِ الإلهيَّة بخلقهم حواءَ، والواقعُ هو أنَّ القوةَ الإلهيَّة تغادرُ آدمَ وتسكنُ حواءَ الحديثة الخَلْق.

• في الجانب الإيجابيّ، يعني هذا أنّ المساعد الرُّوحيّ يمكنهُ الآن أنْ يتحدَّثَ مباشرةً الى آدم ويُلهمهُ. وفي الجانب السَلبيّ، يظلُّ الحكّامُ يريدون امتلاكَ القوّة أو المساعد ويحاولون اغتصابَ حواء.

• لكنَّ القوّةَ الإلهيَّةَ تغادرُ حواءَ وتذهبُ الى الحيّة في جنَّة عدْن. ينجحُ الحُكّام في اغتصاب حواء، لكنَّ المساعدَ الرُّوحيَّ يتحدَّث الى آدمَ وحواءَ منْ خلال الحيّةِ ويشجّعهما على الأكل منْ شجرةِ المعرفة التي تُعلِّمهما التمييزَ بَيْنَ الخَيْرِ والشرّ. وبهذه الطريقة، ينتبهُ آدمُ وحواءُ الى أنّهما قدْ فقدا القوّة الالهيَّة.

▪ على الرَغْمِ منْ أنَّ هذينِ النصَّيْنِ الغنوصيّيْنِ لا يتفقانِ على ماحدث مِنْ خطأ على نحوٍ دقيقٍ، كلاهما يخلُصُ الى أنَّ فصلَ البشريَّة الى ذكرٍ وأنثى قدْ جلبَ معهُ عواقبَ مأساويَّة.

إعادةُ روايةِ الطوفانِ الغنوصيّةِ:

• كذلك، كلٌّ مِنْ وحي آدم، وحقيقة الحُكّام، يعيدُ روايةَ قصَّةِ نوحٍ والطوفان. قصةُ الطوفانُ مشكلةٌ قديمةٌ في تأمُّل طبيعةِ وشخصيَّةِ الله في الكتاب المقدَّس. هل غيّرَ اللهُ رأيَهُ فقرَّر تدميرَ البشريَّة؟

▪ يعتقد كِلا النصَّيْن الغنوصيّيْن بوضوحٍ أنَّهُ لا يمكنُ لإلهٍ حقيقيٍ فعلُ هذا، ولذلكَ همْ يعتقدونَ أنَّ مَنْ فعلَ هذا هو يالدابوث مِنْ أجل منْعِ البشَر منْ إدراك أنَّهُ ليسَ إلهاً حقيقيّاً.

▪ في كِلا النصَّين، نوحٌ ليسَ شخصيَّةً صالحةً. ينقذه يالدابوثُ منْ الطوفان لأنَّه يعبدُ يالدابوثَ.

▪ إنْ كانَ يالدابوث يستعمل الطوفانَ لإبادةِ البشريَّةِ فمَنْ يستطيع الإمتناعَ عنْ عبادتهِ، ونوحٌ هو حقاً أحدُ أتباع يالدابوث، إذاً، مَنْ سيُنقَذ؟ كيف يضع الغنوصيّون أنفسَهم في القصَّة الكتابيَّة.

■ في وحْي آدم، مَنْ أُنْقِذَ مِنَ النَّاسِ تُمثّلهم جماعة تُدعى نسْلَ شيثٍ، أو أولئك النَّاس. ينجو نسْلُ شيثٍ منْ هجمات يالدابوث عليهمْ لأنَّ الآيونات الرُّوحيَّة منْ الكُليّة تنقذُهم وتحفظُ سلامتهم. والواضحُ أنَّ نسْلَ شيثٍ يمثّلُ الغنوصيّين.

■ في النَّصِ، يخبر آدمُ شيث بأنّه في المستقبل، سيأتي إنسانٌ يحمل علاماتٍ ويتساءَل، ليجلبَ المعرفة بالله الى البشَر وليوقظَ نسْلَ شِيْثٍ. وسيعاقبُ الحُكّامُ جسَدَ هذا الإنسان لكنْ بلا طائلٍ.

■ كذلك، يتنبأ آدمُ بأنّهُ عند نهاية الزمان سينالُ النَّاسُ الذين حازوا الخلاص حياةً أبديَّة،لكنَّ البَشَر الذين لمْ يدركوا اللهَ الحقيقيَّ سيفنون الى جانب حُكّام هذا العالم.

• في نصِّ حقيقة الحُكّام، ليسَ شيثٌ هو جدُّ الغنوصويّين، بلْ، جدُّهم شخصيَّةٌ غنوصيَّةٌ جديدة، هي نوريا (Norea) أُختُ شِيْث.

■ عندما تلدُ حواءُ نوريا بعدَ شيث تقول «رزقَني اللهُ عذراءَ كمساعدٍ لأجيالٍ عديدةٍ مِنْ البشر». تصبح نوريا المساعدَ الروحيَّ الأنثى لكلِّ البشريَّة. عندما تساعد نوريا البشريَّةَ لتطويرِها رُوحياً، يقرِّر الحُكّام تدميرَ البشريَّة بالطوفان.

■ وتماماً، كما أراد الحُكّامُ اغتصابَ حواء عندما حلّتْ فيها القوَّةُ الإلهيَّة والمساعدُ الرُّوحيُّ، يحاولون فعْلَ الأمر نفسِهِ بنوريا. لكنّها تتحدى الحُكّام وتصرخ الى اللهِ طالبةً النجدةَ.

■ يرسل اللهُ أيليليث الى نوريا لانقاذها، وأليليثُ واحدٌ منْ الفيوضاتِ الأربع التي تخدم (ذاتيَّ النشوء). يكشف أيليليث لنوريا أنّها أُمُّ البشَر المُنقَذين الذين يسمّيهم (أبناءَ) نوريا. ولا يمكن لحُكّام هذا العالم الأشرار الاقترابُ منْ أبناء نوريا لأنَّ فيهم تحلُّ رُوحُ الحقيقة. وهم يملكون المعرفةَ بالله (gnosis)، ويعيشون خالدينَ وسْط النوعِ البشريِّ الفانيِ.

■ وكما تنبأ آدمُ في وحْي آدم، يخبر أيليليثُ نوريا بأنّه في وقتٍ ما في المستقبل، سيكشف إنسانٌ وجودَ رُوحِ الحقيقة، ويعلِّم ذريّةَ نوريا أموراً تتعلق بالكُليّة، ويحرّرُهم

منْ عمههم وموت الحُكّام. بعد ذلك، سيهلكُ هذا العالَمُ وحُكّامُه، وسيحصلُ أبناءُ النُّورِ على الخلاص.

مشهدُ المَهْدِ في عيدِ الميلادِ هو مثالٌ للكيفيَّةِ التي يُعيدُ بها المسيحيُّونَ روايةَ قَصصٍ منْ كتابِهم المقدَّسِ، مُركّبينَ عناصرَ منْ إنجيلَيْ متّي ولوقا في سَرديّةٍ واحدةٍ منسجمةٍ.

-٧-

المسلكُ الطَقْسيُّ الغنوصيُّ الى اللهِ

المسلكُ الطَقسيُّ الغنوصيُّ الى اللهِ

في النصوصِ الغنوصيَّةِ، يشيرُ الغنوصيون الى أنفسهم باعتبارهم ذريةَ شيث، الإبنَ الثالث لآدم وحواء، أو ذريّةَ نوريا، أختِ شِيث. لكنْ منَ المحتمل أنْ لا يكون الأمرُ أنَّ المرءَ كان عليهِ أنْ يولَد في الغنوصيّة. بدلاً منْ ذلك، يبدو أنَّ النَّاس أصبحوا ذُريَّةَ نوريا، أو، نسْلَ شِيثٍ منْ خلال تعميد طقْسيّ. لا يوجد نصٌّ يمنحنا وصفاً واضحاً لهذا الطقس، لكنْ في هذه المحاضرة، سنتفحص خمسَ كتابات غنوصيَّة جديدة منْ نجْع حمّادي تحملُ دليلاً على التعميد وأشكال أُخَر للعبادة الغنوصيَّة. وهذه الكتاباتُ هي الفكرةُ الأولى في ثلاثة أشكال، والكتابُ المقدَّس للرُّوح العظيمة غيرِ المرئيَّة (الإنجيل المصري)، وألواحُ شِيث الثلاث، وزوستريانوسُ، والغريبُ.

التعميدُ الغنوصيُّ:

• شاهدْنا إشـاراتٍ مختصرة الى الماء والـخلاص، وحتّى التعميد، في بعض النصوص الغنوصية التي ناقشناها من قبلُ، منْ قبيل كتاب الأسرار المنسوب الى يوحنّا ووحْي آدم. نصٌّ غنوصيٌّ آخر، الفكرةُ الأولى، في ثلاثة أشكال، وهو إعادة روايةٍ شعريَّةٍ طويلةٍ للأسـطورة الغنوصيَّةِ. وهي تُختَتَم بالفكرةِ الأولى (الباربيلو)، توضحُ كيفَ غسلَتْ وأنقذَتْ شخصاً.

• تصف الباربيلو فعْلَ الغسل في ماء التعميد، إضافةً الى أفعالٍ سريَّة أكثر، بأنَّه تنصيبٌ، وتمجيدٌ، وخلعٌ، جميعها تنفّذها كائناتٌ إلهيَّة. وفي النهاية يعيش الشخصُ المُعَمَّدُ تجربةَ (المكان النورانيّ)، في إشارة محتَملة الى الكُليَّة.

• ينتهي هذا الوصف للتعميد في ذكْرٍ جُزئي للأختامِ الخمسِ العائدةِ الى الفكرة الأولى. يبدو أنَّ الأختامَ الخمس هي صفة مميّزة للتعميد الغنوصيّ، لكنّا لا نعلم ما

كانتْ هذهِ الأختام. ربما تشيرُ الى أفعالٍ خمسٍ في الطقْس التعميديّ: الإلباسِ، والغسلِ، والتنصيبِ، والتمجيدِ، والخلعِ.

• اهتمَّ الغنوصيون بالتعميد (baptism) باعتبارهِ جُزءاً من فريضة عباديّة أكبر، حيثُ نعرف منْ الكتاب المقدَّس للرُّوح غير المرئيَّة العظيمة نوعاً منْ الطقْس الغُنوصيِّ يبلغ ذروتَهُ في التعميد. يخبرنا الكتابُ المقدَّس أسطورةً، معَ توقفات في العديد منْ النقاط لكي يمكن الثناءُ على الكائناتِ السماويَّةِ بوساطة الترانيم. كما إنَّه يَعِدُ بأنَّ مَنْ يُعَمَّد سيحصل على المعرفة (gnosis)، ولنْ يذوق الموت.

• ولم يكن التعميد هو المرَّة الأولى التي يُنشِد فيها الغنوصيّون الترانيمَ. فالكتابُ المسمَّى (ألواحَ شيثٍ الثلاث) يتألف منْ سبعِ ترانيم، ويُختَم بتوجيهاتٍ حولَ كيفيَّة استعمالها. والترانيمُ مُرتَّبةٌ فيه على نحوٍ بحيث تقود العُبّادَ في اتجاه عِلويّ نحوَ تأمُّل الله في كلِّ نقطةِ صمْتٍ لهم، بعدَ ذلك، تعود الترانيمُ بهمْ الى الأسفل مَرَّةً أخرى.

زوستريانوس وتجربةُ المعرفةِ:

• يخبرنا كتابُ (زوستريانوس) قصةَ شخصٍ يحمل هذا الإسمَ، يرغبُ في تأمُّل اللهِ وحقائقَ روحيَّةٍ أُخَرَ. ينصرفُ بعيداً عنْ الأشياء الماديَّة ويمارسُ منهجاً للتدريب البدنيّ، وللدراسةِ الفلسفية والتعليم. ومنْ خلال عمله القاسي يتعلمُ زوستريانوس أنْ يرى العالَم الاعتياديَّ للأشياء الماديّةِ كشيءٍ تافهٍ ضئيلٍ، ويصوغ أسئلةً عميقة حولَ الحقيقة العليا. لكنْ، لأنَّهُ لا يصلُ هدفَهُ في تأمّل الله على نحوٍ مباشر، يجد نفسَهُ حزيناً ميَّالاً الى الإنتحارِ.

• يظهرُ ملاكُ المعرفة لِزوستريانوس ويدعوهُ الى العروجِ عبْرَ العوالم الأدنى لهذا الكونِ صُعوداً الى الكُليّة. يهجر البطلُ جسدَهُ الماديَّ ويُحمَل الى الأعلى في سحابةٍ نورانيّةٍ. يلتقي زوستريانوسُ العديدَ منْ المُتَنبِئينَ السماويّينَ، ويُعَمَّد مِراراً، ويحوزُ على نحوٍ متزايدٍ معرفةً باطنيَّةً عنْ كوننا وعنْ الكُليّة. وتأخذُهُ رحلتُهُ أعلى، ليسَ

بالمعنى الكونيّ فحسبُ، بلْ كذلك، بالمعنى الفكريّ حيثُ يتزايد تأمُّلُهُ لمستوياتٍ تجريديَّةٍ للحقيقة.

• وفي الآخِر، يصعد الى أيون الباربيلو، المستوى الأعلى منْ الإله الذي يمكن لمخلوقٍ بشريّ أنْ يعرفه. في أوْج هذهِ الرحلة، يسعى زوستريانوس الى أنْ يفهم الرُّوحَ غيرَ المرئيَّة، لكنَّ عملَهُ هذا يوصف بأنَّهُ (متهوّر). عندما ينزل زوستريانوس يعودُ الى جسدهِ الماديّ. ويعظُ الآخرين برسالة إصلاح أخلاقيّ وبمعرفةٍ بالله.

• فكرةُ السَفر عبْرَ العوالم السماويَّة للحصول على معرفةٍ بالكون وبالله جاءتْ من تراثٍ طويل منْ التصورات اليهوديَّة عنْ نهايةِ العالمِ والقيامة (apocalypse)، منْ قبيلِ كتابِ أينوخ. في ذلك الكتاب، البطلُ صالحٌ صلاحاً مُفرطاً في اتّباعِهِ الشريعةَ اليهوديَّةَ ويُظهر ارتباطاً شديداً بإله إسرائيل. لهذه الأسباب، يُؤخَذ في رحلةٍ عبْرَ السماوات ويتعلم أسراراً مُهمَّةً حولَ الكون. وفي الآخر يعيش تجربةَ رؤيةِ الله: بعدَ ذلك يعود الى الأرض ويحضُّ يهوداً آخرين على اتّباعِ الشريعة والإخلاص لله.

▪ رأينا العديدَ من أوجه الشبَهِ بينَ رِحْلة زوستريانوس السماويَّة وبينَ رِحْلة أينوخ. في كلتا القصَّتين، الشخصانِ الرئيسان يسافرانِ الى الأعلى عبْر السماوات، يرشدُهما واحدٌ أو أكثر منْ الملائكة، ويكتسبان معرفةً إلهيَّةً حولَ الكون. والتجربتان كلتاهما نوعٌ منْ الإتِّصال معَ الله، وهما بعد ذلك يعودان الى الوعْظ وتعليم الآخرين.

▪ معَ ذلك، ثَمَّةَ اختلافاتٌ مهمَّة بين القصَّتَيْن تُظهر تَميُّزَ الرؤيةِ الدينيَّة الغنوصيَّة. أولاها، يتلقى أينوخ رحلتَهُ السماويَّة كجائزة على اتّباعهِ الشريعةَ اليهوديَّة وإخلاصهِ لإله إسرائيل. وبالمقارنة، يقوم زوستريانوس بمنهاجٍ منْ الزُهْدِ والدراسةِ؛ يسيرُ في طريق الفلسفة حتّى تتوقفُ الفلسفةُ عنْ الذهاب به الى أبعدَ ممّا وصلَ، وهنا يدخل الإلهُ.

▪ ثانيها، المعلوماتُ التي أحاط بها أينوخُ في رحلته تتعلقُ في الأغلب بالخَلْق، وتركيبِ هذا الكون، وحُكمِ الله في المستقبل. كذلك يرى زوستريانوس كيفَ خلقَ اللهُ العالمَ وكيفَ سيحكم النّاسَ، لكنّه يرى أشياءَ أُخَر. فهو يرى أيوناتِ الكُليّة، ويرى

الأشكالَ الأبديَّةَ التي نُسِخَتْ وِفْقَها أشياءُ هذا العالَم بعبارة أخرى، يرى زوستريانوس مفاهيمَ فلسفيَّةً منْ الأسطورة الغنوصيَّة.

▪ أخيراً، تصل رحلةُ أينوخ ذروتَها في رؤيتِهِ وَجْهَ اللهِ، ولكنْ، عندما يطلب زوستريانوس فهمَ الإله النهائيِّ يُعتَبَر طلبه (تهوُّراً). الإلهُ النهائيُّ للغنوصيّين لا يمكن فهمُهُ، وليسَ لهُ وَجْهٌ يمكن رؤيتُه.

● في قصَّة زوستريانوس، ركَّبَ الغنوصيون تراثاً يهوديَّاً حول نهاية العالم يتعلقُ بالحصول على معرفة باللهِ بوساطة رِحْلة سماويَّة، ركَّبوه، معَ تراثٍ فلسفيٍّ يتعلقُ بمعرفة اللهِ بوساطة الدراسة والتأمُّل. ويمكنُ تتبُّعُ هذا الطريق الفلسفيِّ الى إفلاطون.

▪ وَصْفُ إفلاطون المشهور للكيفيَّة التي يمكن للإنسان أنْ يعيش تجربة المعرفة العِرفانيَّة باللهِ يمكن العثور عليه (على هذا الوصف) في حواره (symposium)[1]. في هذا الكتاب يُمتِّع جماعةٌ منْ المتعلمين أنفسَهم بعدَ تناولهم عشاءاً بوساطة القاء خطابات في مديح إيروس (Eros) إلهِ الحُبِّ الشَبَقيِّ.

▪ في حديثٍ عن الذروة الجنسية (climactic)، نعرف أنَّ الرغبة الشبقيَّة يُقصَد منها الوصول بنا الى حُبِّ اللهِ. وهنا، يقوم رجل الفلسفة برِحلة تجريدٍ متزايدٍ، تبدأ بحُبِّ الجمال في جسَد بشريٍّ معيَّن، وتتحركُ نحوَ جمالِ الجسَدِ على نحو عامٍّ، ثُمَّ جمالِ الرُّوح، وهكذا، وصولاً الى الجمال ذاتِهِ. يقول إفلاطون بأنَّه إنْ درَّب الإنسانُ نفسَه على هذا النحو فرُبما يكون محظوظاً بقدرٍ كاف ليُمنَح (فجأةً) رؤيةُ الجمال ذاتِهِ، الذي هو اللهُ.

---

(١) وتعني المأدبة أو الندوة: نص فلسفي لأفلاطون مؤرخ ٣٨٥-٣٧٠ ق. م. تصور مسابقة ودية لخطب ارتجالية ألقاها مجموعة من الرجال البارزين الذين حضروا مأدبة. ومن بين الرجال الفيلسوف سقراط، والشخصية العامة والسياسية السيبياديس، والكاتب المسرحي الكوميدي أريستوفانيس. يوجب فيها إلقاء الخطب في مدح إيروس إله الحب والرغبة. وهي مترجمة الى العربية. (المراجع).

▪ ما نشاهده في زوستريانوس هو تعديلٌ لمنهج إفلاطون في معرفة الله لِيصبحَ فكرةَ رِحلةٍ سماويّةٍ كشفيّةٍ. يقوم زوستريانوس، كما ينصح إفلاطون بذلك، بدراسة الفلسفة، وخلال رِحلتهِ السماويّةِ يتأمّل مستوياتٍ تجريديّة للحقيقة على نحو متزايدٍ ومِنْ ضِمْنها المُثُل الأبديّة التي يقول عنْها إفلاطونُ بأنّها نماذجُ لكُلِّ شيءٍ في هذا الكون.

▪ (الخطأ) الوحيدُ الذي يرتكبه زوستريانوس هو أنّه على نحوٍ منْ التهوُّر حاول الحصول على فهم الإلهِ النهائيّ. لكنْ، وفقاً لإفلاطون، لا يمكن فرضُ مثل هذه الرؤية، إنّما تحدث هذه الرؤية (فجأة). كذلك يقول إفلاطون بأنَّ الشخص الذي يُمنَح هذهِ الرؤية يصبح (خالداً). معرفةُ الله تمنح الشخصَ الخلاصَ منْ هذا العالم الماديّ كما تمنحه الحياةَ الأبديّة. ربما لا يحصلُ زوستريانوس على معرفة (gnosis) بالرُّوح غيرِ المرئيّة، لكنّه يحصلُ على ما هو ممكن في هذه الحياة: معرفةِ الهيّةِ بالكونِ والكُليّةِ تبلغ ذروتها في معرفة الباربيلو. وهذا يأتيهِ بالخلاصِ والحياةِ الأبديّة.

الغريبُ وتجربةُ المعرفةِ:

● يشبَهُ الكتابُ المسمّى الغريبَ زوستريانوس. بطلُهُ، واسمه ببساطة (الغريب)، وهو إنسانٌ أسطوريٌّ من الماضي البعيد - ربما يكون شِيْثاً. الغريبُ، كذلك، يعيش تجربةَ رِحلةٍ سماويّة يرشده فيها ملاكٌ إسمُهُ لوئيل. وعلى غرارِ زوستريانوس، يصعد الغريبُ الى حدِّ أيون الباربيلو، وهو مستوىً للحقيقةِ يقعُ تحتَ الحقيقة غيْرِ المرئيّة تماماً. يخبر لوئيل الغريبَ بأنّه سيتلقّى وحيَ الله الذي لا يُدرَكُ كُنهُهُ ولا يمكنُ وَصْفُهُ، سيتلقّاهُ، بعدَ مائةِ عام.

● يقضي الغريبُ الوقت يهيءُ نفسه لهذه التجربة. وعندما ينقضي القَرْن يخرج منْ جسده الى مكانٍ مقدَّس. وهناك، توجّهُهُ موجوداتٌ سماويّةٌ الى كيفيّة التأمُّل في الله بصرْفِ انتباههِ نحوَ نفسِه ونحو تأمُّل أبنيةِ عقلِهِ على نحوٍ متعاقب.

■ هذهِ العمليةُ منْ الإنسحابِ العقلي تشبهُ صعودَ إفلاطون من خلال مستويات تجريد الحُبِّ، لكنَّها فكريَّةٌ وذاتيَّةُ التوجيه على نحو كُليٍّ. يجب أنْ نعرفَ نفوسَنا الحقيقيَّة، بمعنى أنْ نعرفَ عقولَنا، منْ أجل أنْ نعرفَ الله.

■ يمكننا فعلُ هذا الآنَ مَنْ يُنتجُ الباربيلو، والأيونات الأُخَر، هو الفِعْلُ الخاصُّ للرُّوح غيرِ المرئيَّة المتعلق بمعرفتها ذاتَها - بتفكيرِها في ذاتها - بِنْيَةُ عقلنا هي شذرة، أو صيغةٌ مصغَّرة لبنيةِ الكُليّة التي هي عقلُ الله.

■ وإذْ يؤدِّي الغريبُ هذا التأمُّل الذاتي، يحصل على معرفة بجوانب الباربيلو التي هي (أيْ هذه الجوانب) موجودة أيضاً في عقلِهِ: البركةِ، والحيويَّةِ، والواقعِ. يحصلُ على معرفةٍ (gnosis) بنفسه، ويكتشفُ أيونَ الباربيلو بإعتبارهِ (الذي هوَ قائمٌ فِيَّ).

• بعد ذلك، يتلقَّى الغريبُ رؤيا الرُّوحِ غيرِ المرئيَّة. يريد أنْ يفهم الرؤيا، لكنَّ الكائناتِ السماويّةِ تبيِّنُ لهُ أنَّ الُروحَ غيرَ المرئيَّة لا تُعرَف ولا يُحاط بها عِلْماً. في النهاية، ما يتعلّمه الغريب هو تناقض (paradox): يفهم الرُّوحَ غيرَ المرئيَّة مِنْ خلال عدَمِ فهمِها. في الآخر، يعرج الغريب ليعرفَ الله بوساطة سياحةٍ عَبْرَ عقلِه هو، ويتلقَّى معرفةً بالرُّوح غيرِ المرئيَّة كجائزة.

• هنا، نصلُ الى أمرٍ لا بُدَّ أنْ يكون هو الأكثر إغراءً في التعاليم الغنوصيَّة. أقَرَّ الغنوصيُّون بأنَّ هذا العالمَ ناقصٌ وحافلٌ بالتعاسة، ورأَوْا أنَّ أجسادنا والعالمَ الماديَّ يمكنها أنْ تعيق تأمّلنا وفهمنا للحقائق الروحيّة العليا. لكنْ، ثمةَ عالَمٌ رُوحيٌّ منْ الحقيقة والكمال وراءَ هذا الكون، وعدَمُ رضانا عنْ هذا العالَم هو علامةٌ على كوننا نعود الى ذلك العالَم الأعلى. إنْ تأملْنا على نحوٍ صحيحٍ يمكنْ أنْ نعيشَ تجربةَ معرفة الله الحقيقيِّ - مهما كانتْ مختصرة. هذه التجربةُ تؤكِّد حقيقةَ ما كان يعلِّمُه الغنوصيّون.

-٨-

المؤَنَّثُ في الأُسطورةِ الغنوصيّةِ

المؤنَّثُ في الأُسطورةِ الغنوصيّةِ

عندما شرَعَ العلماءُ للمرَّةِ الأولى في قراءة نصوصٍ منْ مجموعة نجْع حمّادي في ستينيات وسبعينيات القرْن العشرين، دُهِشوا عندما شاهدوا المرَّاتِ المتكررة التي تصور بها هذه الكتبُ اللهَ والكائناتِ السماويَّةَ الأُخَرَ في صورة أُنثى. أوضح هذا العنصرُ الأنثويُّ بأنَّ الغنوصيّين لديهم فكرة أكثر حصراً وأقلّ أبويَّةً حول الإله مما لدى الخطِّ العامِّ اليهوديِّ والمسيحيِّ. مع ذلك، منذ سبعينيَّات القرْن العشرين صارَ العلماء أَقلَّ حماساً حول أدوار المرأة والأنثى في الأسطورة الغنوصيَّة. في هذه المحاضرة سنتفحص ثلاثة أمثلة عنْ الأنثى في النصوص الغنوصية: الإلهَ الأنثى في كتاب الأسرار المنسوب الى يوحنا، والمُوحي الكاشف الأنثى في (الرعد- the thunder): العقل الكامل، والبطلة الأنثى في (حقيقة الحُكّام).

الإلهُ الأنثى:

• يصفُ كتاب الاسرار المنسوب الى يوحنّا، الباربيلو على النحو الآتي: «صارتْ الرَّحِمَ الكونيَّ، لأنَّها سبقتْ كلَّ شيء، هي الأمُّ - الأبُ، والإنسانُ الأوَّل، والرُّوحُ القُدُس، والذكَرُ الثلاثيُّ، والقوَّةُ الثلاثيَّة، والخُنثى ذاتُ الأسماءِ الثلاثةِ، والأيونُ وسْطَ الكائناتِ غيْرِ المرئيَّة، وأوَّلُ ما يتقدَّم».

• هذا الوصفُ يوازن مرَّتَيْنِ العنصرَ الذكَريَّ والأنثويَّ: فالباربيلو هي الأُمُّ - الأبُ، وهي (خنثى). في موضع، يجعل المؤلف الباربيلو تبدو أنثى: (هيَ الرَّحِمُ الكونيّ)، مع ذلك يدعوها (الذَكَرَ الثلاثيَّ) (thrice male وriple male)- وتبدو كلمة (Thrice) رطانةً غنوصيَّةً تعبّرُ عنْ معنى (عالٍ) أو (جداً). وعلى هذا النحو فالباربيلو هو ذكَرٌ على نحوٍ عالٍ، مع ذلك، فهو أيضاً رَحِمٌ - وخنثى. كيف يمكن لهذا أن يكون صحيحاً؟

• في الفكرِ الحديث، ربما تُفهَم الخنثى على أنَّها تعني حُصَصاً متساوية لمبدأيْنِ متساويَيْنِ. بتعبيرٍ آخر، كونُ الشخص خنثى يعني أنْ يكون ذكَراً وأنثى على نحو التساوي، وأنَّ هذهِ الصفات متساويةٌ في القيمة. لكنْ رُبما لمْ يكنْ هذا ما اعتقده الناسُ القدامى حولَ الخنثى.

▪ كما جاء في محاضرة سابقة، خُلِقتْ البشرية مرَّتَيْن في أوَّل فصلَيْنِ مِنْ سِفْر التكوين. في الفصل الأوّل يقول النصُّ «وخلقَ اللهُ الانسانَ، خلقَه على صورتِهِ، وجعلهما ذكراً وأنثى» (سِفْر التكوين ١: ٢٧). مِنْ الصعب أنْ نعرف ما إذا كان الله قدْ خلق بشراً عديدينَ، وهُمْ إمّا ذكورٌ أو إناثٌ، أو نعرفَ أنَّهُ قدْ خلق إنساناً مفرداً هو ذكرٌ وأنثى في الوقت ذاتِه.

▪ في الفصل الثاني، يصنع اللهُ رفيقةً لآدمِ مِنْ ضلع آدم - في إزالة للأنثى كجُزءٍ مِنْ الذكَر. لا يبدو هذا يشيرُ الى فصْل نصفَيْن متساويَيْن. بلْ تبدو الأنثى أقلَّ مِنْ الذكَر. إنَّ العديد منْ النَّاس القدامى لا يعتقدون بأنَّ الذكَر والأنثى جنسانِ متعارضانِ ومتساويانِ، لكنَّهم يعتبرون الأنثى جانباً مُشتقّاً منْ الذكَر. أنْ يكونَ الشخصُ أنثى يعني أنَّهُ ذَكَرٌ بدرجةٍ غيرِ كافيةٍ.

▪ على هذا الفهم، الخنثى ليستْ إتِّحاداً لجنسَيْنِ متساويَيْن، بلْ هي الدمْجُ الصحيح للأنثى في الذكَر الأكثر أساسيَّةً وتفوقاً.

• يبدو هذا هو ما شاهدناه في الباربيلوعلى وجْه الدقَّة. يصوِّرها كتاب الأسرار على نحو أساسيٍّ كشخصية أنثوية لِأنَّ اسمَها الآخر، الفكرة الأولى (first thought)، هو اسم مؤنَّثٌ في اللغة اليونانيَّة. وفي موضعٍ، تحبَل الباربيلو بذاتي النشوء منْ نظرةٍ من الرُّوح غيرِ المرئيَّة. لكنْ، ككائنٍ سماويٍّ كامل، الباربيلو مذكّرٌ من الناحيّة الجوهريّة. في الحقيقة، هي (ذكر ثلاثي) لأنَّها تشتمل في ذكوريّتها على خصائص أُنوثةٍ. النظرةُ الغنوصيَّة الى الله تُدخِل العناصرَ الأُنثويَّة، لكنَّها لا تُخرِجُ تفوُّقَ الذكَر.

• أيونُ الحِكْمَةِ (Sophia في اليونانيَّة) هو شخصيةٌ أنثويَّة على نحوٍ أكثر وضوحاً

منَ الباربيلو لأنَّ لها أيونٌ ذكريٌّ غيرُ مسمًّى كشريكٍ لها، وهي أيضاً أمٌّ يالدابوث. كذلك، هي مثالٌ جيّدٌ لغموضِ الأنثى السماويّةِ في الأسطورة الغنوصيَّة.

■ مِنْ جانبٍ، الحِكمةُ هي مَنْ يُعرِّف الكائناتِ البشريَّةَ بأُصولها الحقيقيَّة في الكُليّة، ويعلِّمُها طريقَها الى المعرفة (gnosis).

■ مِنْ جانبٍ آخر، الخطأُ الذي أدَّى الى ولادة يالدابوث، وخسارةِ القُدرةِ الإلهيَّة هو خطأُ الحكمةِ في المقام الأَوَّل. ولنتذكَّرْ أنَّها هي مَنْ اقترفتْهُ بدونِ موافقة شريكِها.

■ يؤكِّد مؤلِّفُ كتابَ الأسرارِالإنسجامَ بشدَّةٍ. وبتأمُّلِ الحكمةِ نفسَها، تسبّبُ اضطراباً في الانسجام الذي يجبُ وجودُهُ بَيْنَ الأيوناتِ الذكورِ والأيوناتِ الأناثِ.

المُوحي المؤنَّث:

■ واحدٌ منْ أكثر النصوص الغنوصيَّة منْ نجع حمّادي بروزاً هو كتاب (الرعد: العقل الكامل)، ربما كُتِبَ قبل ٣٠٠ ق.م. ويتألف على نحو كليٍّ مِنْ حوارٍ فرديٍّ كشفيٍّ تتحدث به مُوحيةٌ سماويّة أنثى. في بعض مقاطعهِ، تحضُّ المتحدثةُ مستمعيها على الإصغاء لرسالتها، وعلى إدراك نفوسِهم الحقيقيَّة. في مقاطع أُخَر، تتحدَّثُ عنْ نفسها في حالات من التناقض. على سبيل المثال:

أنا الأولى والأخيرةُ.

أنا الساميةُ والحقيرةُ.

أنا الداعرةُ والمقدَّسةُ. أنا الزوجةُ والعذراءُ...

أنا العريسُ والعروسُ.

وزوجي وَلَدَني.

■ ماذا تعني هذه التناقضات لقُدامى الغنوصيّين؟ توجد فرضيَّةٌ مقنعة هي أنَّ هذه الأقوال تكوِّنُ أُحجيةً تكشف عنْ هويّة المتحدث. أيّةُ امرأة هذه التي تُوقَّر وتُحتَقر في ذات الوقت، ويُنظَر اليها مقدَّسة وعاهرةً، ولها زوجٌ قدْ ولدَها؟ تبدو، الموحية،

الكاشفة، الأنثى في كتاب الرعد أنّها حواءُ لكنّها حواءُ كتجسيدٍ للمقدَّس الأنثى سواء أكانَتْ الحِكمة، أمْ الفكرة الأولى، أمْ الباربيلو.

• باتِّباع كتاب الرعْدِ مونولوجاً وَحْيَويّاً لإلهة أنثى، هو يُشبه على الأقل نصَّين قديمَيْنِ آخرَيْنِ، أحدُهما يهوديٌّ والآخر (وثنيٌّ).

▪ في العهد القديم، في سِفْر الأمثال، تُشَخْصَنُ حكمةُ الله كأنثى. الكلمةُ العِبْرية هي (hochma)، وهي مؤنثة تماماً كما هي في اليونانية (Sophia). يصوّرُ سِفْرُ الأمثال الحكمةَ كمساعد لله في خلق العالم، وهي تخاطب البشرَ على نحوٍ مباشر، داعيةً إيّاهم الى اتّباعها. منْ الناحيةِ العمليّة، الأمرُ المؤكّد هو أنَّ مؤلِّف (الرعد) الغنوصيَّ قد صاغَ صاحبةَ الوحْي السماويّةَ الأنثى وِفْقاً لحكمة سِفْر الأمثال. وبقيامه بهذا، هو يشيرُ الى أنَّ الحكمةَ الحقيقيّةَ لله يمكن أنْ نجدها في الأسطورة الغنوصيّة.

▪ ربما يكون المؤلِّف قدْ ألهمَهُ، وعلى نحو مساوٍ، نصٌّ مشهور يُدعى مديح إيزيس (Isis Aretalogy). وهذا النصُّ مشهور لأنّه يُظهر إلهةً - وليس إلهاً - تزعم لنفسها قوىً عظيمة. في النَصّ، تُعدِّد إيزيس فضائلها الكثيرة، وتذكّر البشَرَ بكلِّ ما فعلته لَهُمْ: «أنا فصلتُ الأرضَ عنْ السماء» و«أنا مَنْ بيّنَ طريقَ النجومِ». و«أنا مَنْ نظَّمَ مسارَ الشمسِ والقمرِ».

البطلةُ الأنثى:

الغنوصيّون مشهورون، ليس بآلهاتهم الإناثِ فحسْبُ، بلْ، كذلك بمنحهم الأنثى البشريّةَ حواءَ دوراً أكبر في قِصّة التكوين، وبإضافتِهم الشخصيّةَ الكتابيّةَ الجديدة (نوريا)، شقيقةَ شِيثٍ، وهي شخصيّةٌ بارزة في نصّ حقيقةِ الحُكّام. مقارنةً بالكتابات الغنوصية الأُخَر، يوصِّفُ هذا النصُّ الغنوصيّين ليسَ باعتبارِهم مِنْ نسل شيثٍ، بلْ باعتبارهم مِنْ نسل نوريا التي تقودُ البشريّةَ الى الأفضل والى تحدِّي الذكور منْ بني الإنسان وبضِمنِهم نوحٌ والحُكّام الأشرار.

• كتابُ (حقيقةُ الحُكّام) منمازٌ بكيفيّةِ وضعهِ الجنسَ (بالمفهوم الاجتماعي- gender)، والعنفَ الجنسي (بالمفهوم البايولوجي sexual)، في مركز القِصَّة. مُنذُ البداية، القوةُ الإلهيّةُ التي تدخل هذا العالمَ مشفَّرةٌ في أنثى، والحُكّام الأشرار لهذا العالم يعيشون انجذاباً شبَقيّاً اليها. هم يصنعون آدمَ وحواء على نحو دقيق لكي يتمكنوا من امتلاك القوَّة الالهيّة منْ فوق. عندما تدخل الرُّوحُ الالهيَّة حواءَ، يريد الحُكّام اغتصابها.

• عندما تُصبح نوريا المصدرَ الأنثوي للمعرفة الالهيَّة، هي، أيضاً، تدخل في صراع مع الحُكّام. في المَرَّة الأولى، عندما يقرِّر الحكّام أنْ يدمروا البشريَّة بالطوفان، تحاولُ نوريا أنْ تنجو من الطوفان في سفينة نوح. وعندما يرفض نوحٌ أنْ تصعد نوريا الى سطح السفينة تتسبَّب نوريا في تدمير السفينة بالنار، ويتوجب على نوحٍ أنْ يبني سفينة أُخرى.

• في هذه المرحلة، يقرّر الحُكّامُ مهاجمة نوريا. يقول لها رئيس الحكام «جاءتْنا أمُّكِ حواءُ». لكنَّ نوريا تردُّ: «إنّكم حُكّام الظلامِ: أنتم ملعونوَن. وأنتَ لا تعرفُ أُمّي؛ بلْ، أنتَ تعرفُ شريكتَكَ الأنثى. لأنّني لستُ سليلتَك، بلْ أنا قادمةٌ مِنَ العالمِ العُلويّ». لا يرتدع رئيس الحُكّام، وتصرخ نوريا مناديةً الله من أجل نجدتها. يصل أيليليث الفيضُ النورانيُّ لانقاذها ويكشف لها عَنْ أنّها ستكون أمّ كلِّ النّاس الذين سيحرزون الخلاص.

• أمرٌ صعب أنْ نعتبرَ تصوير النساء والجنس (gender) في هذه الحكاية الغنوصيَّة إيجابيّاً على نحو تامٍ، أو سَلبيّاً على نحو تامٍ. منْ جانبٍ، يعمل المبدأ الروحيُّ السماويُّ الأنثويُّ على أنْ يتغلب بذكاء على الحُكّام الأشرار، ونوريا إمرأةٌ واثقة تتحدّى نُوحاً والحُكّام. ومِنْ جانبٍ آخر، النساءُ والأنثى هُنَّ أهدافٌ متكرّرة للعنف الجنسيِ.

• على نحو العمومِ، تصوّرُ الأسطورةُ الغنوصيَّةُ نظرةً سَلبيَّة للرغبةِ الجنسيَّة.

بالتأكيد، بعضُ حالات الإتِّصال الجنسي لها عواقب جيدة. مثلاً، ينجب آدم وحواء شيئاً، وفي الكُليّة، الحَبَلُ بـ(ذاتي النشوء) بوساطة الرُّوح غيرِ المرئيَّة والباربيلو يشبهُ بشدَّة الإتصالَ الجنسي. لكنْ، لا يُنظَر الى الرغبة الجنسيَّة في حدّ ذاتِها باعتبارها شيئاً جيداً.

• في كتاب (حقيقة الحكام)، تدفعُ الرغبةُ الجنسيَّة الحُكّامَ الأشرار الى مهاجمة حواء ونوريا. في كتاب الأسرار المنسوب الى يوحنّا، يغتصب يالدابوثُ حواءَ، وفيما بعد يغري الحكّامُ إمرأةً منْ البشر مما يؤدي الى خطيئة بشريَّة.

▪ بعدَ اغتصاب يالدابوث حواءَ، يكتب مؤلف كتاب الأسرار (استمرَّ الإتصال الجنسي الى هذا اليومِ بسببِ الحاكمِ الأوّل). بعبارة أخرى، الجنس (sex)، كما نعرفه، يأتي من يالدابوث، والرغبةُ الجنسيَّة وسيلةٌ رئيسةٌ بوساطتِها تُضَلِّلُ الرُّوحُ المزيّفةُ البشَرَ.

▪ إنْ لمْ يكنْ الغنوصيّون إيجابيّينَ تجاهَ الجنس (sex) فإنَّ أغلبَ أوائلِ المسيحيّين كانوا أيضاً في الموقف نفْسِهِ. في سِفْر الكورنثيين، أخبر بولصُ أتباعه برغبته في بقاء المسيحيّين جميعاً عزاباً وشجَّعَ غير المتزوجين على الإمتناع عنْ الزواج. ولا يعني هذا أنَّ الغنوصيّين، أو المسيحيّين الأوائل كانوا يعتبرون الزواج خطأً. كان مقبولاً للمسيحي أنْ يتزوج، لكنْ، كانَ التناسلُ هو السببُ الصحيح للمعاشرة الجنسيَّة. أقرَّ المسيحيّون في مستوى العالَم بأنَّ الجنسَ منْ أجل المِتعة كان أمراً غير صحيح.

كانتْ إيزيس إلهةً مصريةً، لكنَّ المعابَد المكرَّسةَ لعبادتِها انتشرتْ عَبْرَ عالمِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ القديمِ.

-٩-

الأقوالُ الغامضةُ في إنجيلِ توماس

الأقوالُ الغامضةُ في إنجيلِ توماس

الإنجيلُ المنسوب الى توماس، وهو يتضمَّن أكثر منْ مائة منْ أقوال يسوع، يُحتمل أنْ يكون الإنجيلَ (الغنوصيّ) الأكثر شهرةً. بالنسبة للعديد منْ النّاس، هذا الإنجيل يمثل الغنوصيَّة بكلِّ ما تعنيه. لكنْ، كما سنرى، يفتقر إنجيلُ توماس الى أغلب التعليماتِ والممارساتِ المميّزة التي شاهدناها في الكتابات الغنوصيَّة. ولهذا يتزايد تردُّدُ العلماء في وَصْفهِ غنوصيّاً. بَلْ، نحتاج الى تقييمِ إنجيل توماس مِنْ أجلِ الإنجيلِ ذاتِه، كما نحتاج الى محاولةِ فهمِ تعاليمه المنفردة حولَ كيفيّة إستطاعةِ يسوعَ قيادةَ النّاسِ الى المعرفةِ بالله.

خلفيةٌ لإنجيلِ توماس:

• عرفَ العلماءُ دائماً وجودَ نصّ يُدعى الإنجيل المنسوب الى توماس لأنَّ العديد منْ المؤلّفين المسيحيّين الأوائل قدْ جاءوا على ذكره. حتّى أنَّ أحدَ آباء الكنيسة، وهو هيبوليتوس[1] (القرن الثالث)، يقدِّم اقتباساً قصيراً منْ إنجيل توماس الذي وُجد فيما بعدُ مطابقاً لقولٍ ليسوع عُثرَ عليهِ في نصّ إنجيليّ في نجْع حمّادي.

• وحالَ أنْ حصل العلماءُ على الإنجيل باللغة القِبْطيَّة، أدركوا أنَّ لديهم هم أيضاً قِطَعٌ منه باللغة اليونانيَّة عُثِرَ عليها في حفريات مدينة (أوكسيرنكوس)[2] المصريَّة

---

(١) أو هيبوليطوس، هيبوليطس، إيبوليطس، إيبوليتس: قس روماني عاش حوالي ١٧٠-٢٣٧م، ومن أهم كُتاب اللاهوت في الكنيسة الرومانية الأولى، ومن المحتمل أن يكون تلميذًا للقديس إيرينيؤس، إذ كان مدينًا له في اللاهوتيات، كما يظهر بوضوح في تعليمه عن الخلاص. يوجد خلاف كبير بين الدارسين بخصوص شخصيته والكتابات المنسوبة إليه. (المراجع).

(٢) أو أوكسيرنكوبوليس: أي مدينة السمكة المدببة الأنف، وهي مدينة بهنسا حالياً. وعثر فيها على مئات البرديات. (المراجع).

حوالي العام ١٩٠٠م. يُرجع العلماءُ هذه القِطعَ المخطوطةَ اليونانيَّة الى أعوام القرن الثالث (العام ٢٠٠م)، الأمرُ الذي يعني أنَّ الإنجيل الأصليَّ لا بُدَّ أنْ يكون قَدْ كُتب في زمنٍ ما قبلَ العام ٢٠٠م.

• يبدأ إنجيلُ توماس على النحو الآتي: «هذه هي الأقوالُ الِسريَّةُ التي تحدَّثَ بها يسوعُ الحيُّ، وسجَّلها ديديموس يهودا توماس». لكنْ، لا يعتقدُ أيُّ مؤرخ بأنَّهُ فعلاً قدْ كتبهُ التلميذ توماس. أغلبُ الأناجيل المسيحيَّة المبكرة، بما فيها تلك التي في العهد الجديد، كانت (أيْ هذه الأناجيل) في الأصل غُفلاً منْ اسم المؤلِّف. ولم تُضَف الّا في وقتٍ متأخر عناوينُ من قبيل (المنسوب الى متّي) أو (المنسوب الى لوقا) الى هذهِ الكتب.

• على نحو التقريب، يتَّفقُ كلُّ علماء الكتاب المقدَّس على أنَّ أقدمَ إنجيل كانَ قدْ كتبهُ مرقصُ ويُحتَمل أنْ يكون زمنه العام ٧٠م. كذلك يتَّفقون على أنَّ المؤلِّفَيْن متي ولوقا استعملا إنجيلَ مرقص في كتابتهما إنجيلَيْهما. ولا إجماعَ حول ما إذا كان مؤلِّف إنجيل يوحنّا كان قدْ قرأ أيّاً من الإنجيلَيْن الآخرَيْن. هلْ عرفَ مؤلِّف إنجيل توماس، واستعملَ، أناجيلَ مرقص ولوقا ويوحنّا؟

• لا يتَّفقُ المؤرخون حولَ هذه المسألة. يعتقدُ بعضُهم أنَّ مؤلِّف إنجيل توماس (ديديموس يهودا توماس) لمْ يطَّلعْ على الأناجيل الأُخَر، وهكذا، منْ المحتمل أنَّه يرجع في تاريخه الى القَرْن الأوَّل الميلادي. معَ ذلك، يعتقدُ أغلبُ المؤرخين أنَّ مؤلِّف إنجيل توماس يستعمل الأناجيلَ التي في العهد الجديد، وهذا يعني احتمال صدوره منْ القرْن الثاني الميلادي.

▪ جوابُ هذا السؤال يُهمُّ على نحوٍ أساسيٍ العلماءَ المهتمينَ بدراسة ما دعا اليه يسوعُ نفْسهُ. إنْ كانَ إنجيل توماس لا يعتمدُ على أناجيل العهد الجديد، إذاً، هذا يأتي بشاهدٍ مستقلٍ على التعاليم التي رُبما قالَها يسوعُ ونقلها أتباعُهُ شفهياً.

رسالةُ الإنجيل:

على خلافِ أناجيل العهد الجديد، ليسَ إنجيلُ توماس قصةً حولَ يسوع، بلْ هو «كتابُ حِكْمةٍ»، مجموعةٌ منْ الأقوال الحكيمة. في الأنجيل، يتحدَّثُ يسوعُ بأسلوب كأسلوب الحِكْمة في سِفْر الأمثال: يتحدَّث عنْ نفسهِ ويدعو النَّاس الى اتِّباعه في طاعةِ الله. وواقعُ الأمرِ، يمكنُ القولُ بأنَّ في إنجيل توماس، يسوعُ هو حِكْمةٌ، أوعلى الأقَل، صوتُ حِكْمةٍ. في هذا الجانب، يسوعُ شيءٌ ما يشبه أيونَ الحكمة في النصوص الغنوصيَّة. هو صوتُ الإله يدعونا الى فهم نفوسنا الحقَّةِ، وهو الإمكانيَّةُ الإلهيّةُ في داخلنا التي تكوِّنُ نفوسَنا الحقَّةَ.

• من الأقوالِ الافتتاحية لإنجيل توماس، نعرفُ أنَّ ما يشرحه الإنجيل هو قضيّةُ الحياةِ والموت، قضيّةُ الخلاصِ. ومصدرُ الخلاص قائمٌ في أقوال يسوع، ومعنى هذه الأقوال هو ما يجب أنْ نسعى وراءَه. في الآخر، ما نسعى وراءَه ليس بعيداً عنّا، بل هو في داخلنا.

• ولأنَّ يسوعَ هو حِكْمة الله فهو أبديٌّ حيٌّ. الإنجيلُ غيرُ مهتّمٍ بيسوع الذي عاش قبلَ أعوام في فلسطين. وهو يكرِّر تسمية يسوعَ بـ(يسوعَ الحيّ) - يسوعَ الذي يعيش الآن، يسوعَ الحاضرِ في النَّاس.

• وباعتباره حِكْمةً، يسوعُ مصدرُ كلِّ موجود، وقائمٌ في كلِّ الخلق: «أنا النورُ الذي يحيطُ بكلِّ شيءٍ. أنا الكلُّ: عنّي صدرَ كلُّ شيء، واليَّ يرجعُ كلُّ شيءٍ، إقطعْ جذمةً من الخشبِ تجدْني فيها. إرفَعْ حجراً تجدْني تحتَهُ». (٧٧).

• يسوعُ هو الحضورُ الالهيُّ في كلِّ ما هو موجود، لكنَّه، على نحو الخصوص، قائمٌ في الكلمات التي يقولها. يخبرُ التلامذةَ بأنَّهم سيفهمون مَنْ هو ممّا يقوله لهمْ. وأكثر منْ هذا، النُّورُ الذي هو يسوع هو أيضاً في داخلِ الموجود البشريِّ. نحنُ أنفسُنا ننتمي الى العالَم الروحيِّ: «ثمَّةَ نورٌ داخلَ الشخصِ النُورانيِّ، وهذا النورُ يَسْطعُ على كُلِّ العالَمِ فإنْ لمْ يسطعْ فالعالَمُ في ظلامٍ». (٢٤).

• حينَ نسمع رسالة يسوع، ندرك أنَّ مملكةَ السماء هي في داخلنا، وأنَّ معرفتَنا ليسوع هي معرفتنا لنفوسِنا الحقيقيّة. إنْ لمْ ندركْ النُّورَ الذي في داخلنا فإنَّا نظلُّ في الظلام. لكنْ، إنْ عرفْنا هذا النُّورَ فإنّا سنصبح على نحو جوهريٍّ يسوعَ الذي هو نورٌ.

الاختلافات بينَ توماس والغُنوصيّة:

• في عددٍ منْ الجوانب، تشبه تعاليمُ إنجيل توماس ما يقوله الغنوصيّونَ. نحن ننتمي الى عالَم النُّور الرُّوحيّ، والعالَمُ الروحيُّ قائمٌ فينا في هيأةِ نُورٍ. ينقذنا يسوعُ بإيقاظنا فنستوعب هذهِ الحقيقةَ، وذلك يكون بوساطة كشْفهِ طبيعتَنا الحقَّة لنا، بمنْحِنا المعرفةَ المُخلِّصةَ التي نحتاج.

• لكنَّ الغنوصيّين لا يؤكِّدون معرفةَ النفس باعتبارها معرفةً بالله بنفس القدْرالذي يؤكِّده إنجيلُ توماس. كان الغنوصيّون مهتمّين بمسافتنا عنْ الله، وبمسألة أنّنا لم نماهِ أنفسَنا بقوّةٍ معَ الله. لدى الغنوصيّين، عندما نعيش تجربةَ المعرفة بالله (gnosis) نحن لا ندرك ببساطة نفوسَنا الحقَّة. بَلْ، يجب علينا الصعودُ عبْر مستوياتٍ منْ التجريد لنتأمّل أيونَ الباربيلو.

▪ في الأسطورةِ الغنوصيّة، مَنْ تحدَّثَ منْ خلال يسوعَ الإنسانِ كان أيونُ الباربيلو، ومَنْ قادَ آدمَ وحواءَ وشِيْثاً وأختَهُ نوريا نحوَ الله كانتْ الحِكْمةُ.

▪ يشاركُ إنجيل توماس الغنوصيّين فكرةَ كوننا نحمل داخلَنا إمكانيّةً إلهيّةً علينا أنْ ندركَها. وعلى غرارِ الغنوصيّين، يقول لنا بأنَّ يسوعَ جاءَ ليكشفَ هذهِ الحقيقةِ المتعلقة بنفوسنا. كذلك، ثمّةَ إشاراتٌ في إنجيل توماس الى أنَّ هذا العالَمَ يسيّطر عليه كائناتٌ سماويّةٌ متدنّيةٌ. لكنْ، فيما عدا ذلك، يفتقد إنجيل توماس الى الخصائص الُمميّزة للإسطورة الغنوصيّة.

• ولهذهِ الأسبابِ، أغلبُ علماء المسيحيّة المُبكرة متردّدون في استعمال مصطلح غنوصيٍّ (Gnostic) لإنجيل توماس. هذا الإنجيل يدعو الى الخلاص بوساطةِ

المعرفة بالله، لكنَّهُ لا يشارك في ميثولوجيا وطقوسِ المدرسةِ الفكريّةِ الغنوصيّة. بَلْ، يمثِّل إنجيلُ توماس طريقاً أخرى الى الخلاص عَبْرَ المعرفة ضِمْنَ تنوّع عظيمٍ في المسيحيّة الأولى.

مملكةُ الربِ في نهايةِ الزمانِ:

• واحدٌ من الأوجهِ المُهمَّة التي تكون فيها الأسطورةُ الغنوصيّة أُقرب الى مسيحيّةِ الخطِ العامّ منها الى إنجيلِ توماس هو نظرتُها الى التاريخ والمستقبل. العهدُ الجديد، والآباءُ الأوائل للكنيسة، والأسطورةُ الغنوصيَّةُ، كلُّ أولئكَ، متَّفقون على أنَّ التاريخ متَّجهٌ نحو نهايةِ العالَم الذي نعرفهُ وإقامةِ مملكةِ الربِّ الجديدة. لكنَّ إنجيلَ توماس يرفضُ على نحوٍ صريح هذا الكلامَ. ليس ثمَّةَ مملكة للربِّ في المستقبل؛ الخلاصُ متوفرٌ الآن.

• وفقاً للعهد الجديد، صرَّح يسوع «الزمانُ في نهايتِهِ، واقتربتْ مملكةُ الرَّب، فتوبوا وآمِنوا بالإنجيل» (مرقص ١: ١٥). وعندما يسأل التلامذةُ يسوع متى تأتي مملكة الربِّ؟ يجيب جواباً متناقضاً. فمن جانبٍ، ستكون ثمَّةَ علاماتٌ منْ قبيلِ الحربِ والمجاعةِ وانتهاكِ الحرُمات. ومن جانبٍ آخر، علينا أنْ نكون مستعدين لأنَّنا لا نعلمُ متى تأتي مملكةُ الله.

• يُسمّي العلماءُ هذا الكلامَ حولَ مملكةِ الله المستقبلية دراسة ما يحدث في آخرالزمان (Apocalyptic). يشي المصطلحُ بنظرة دينيَّة تتضمَّن تأكيدَ معرفةٍ مُوحاةٍ حولَ نهاية العالَم. يمكن العثور على الرؤيةِ النهايويّةِ في العهد القديم، وفي التراث اليهوديّ، ولدى المسيحيّين الأوائل، وفي تعاليم الغنوصيّين.

• لكنَّ الإنجيلَ المنسوبَ الى توماس يرفض في صراحةٍ هذهِ الرؤيـةَ. مملكةُ الربِ ليستْ حدَثاً مستقبليّاً يتّجه نحوَهُ العالَمُ. مملكةُ الربِ حاضرةٌ أصلاً، مخبوءةٌ في داخل كلِّ واحدٍ منا. وعندما ننتبهُ الى هذهِ الحقيقةِ سنعيش تجربةَ المملكة،

ونحصل على خلاصٍ كامل.

• في افتتاح الإنجيل، يرفض يسوعُ فكرةَ كونِ المملكةِ مكاناً أو حقيقةً خارجيَّة: «المملكةُ داخلَكم، وهي خارجَكم». لا تبدو مكاناً مطلقاً، بلْ هي تجربةٌ، شيءٌ ما يحدثُ عندما «تعرفونَ أنفسَكم».

• وكما يفعلون في أناجيل العهد الجديد، التلامذةُ في إنجيل توماس يسألون يسوع عنْ زمان مجيء مملكة الربِّ. ويُجيب يسوعُ برفضه فكرةَ أنَّها قادمة في المستقبل. «قالَ له تلامذتُهُ متى تحدثُ الراحةُ للموتى ومتى يَحِلُّ العالمُ الجديدُ؟ فردَّ عليهم هو ما تأملونَ حلولَهُ لكنَّكم لا تعلمونَهُ».

• بعضُ الحكايات الرمزيَّة التي يسردها يسوع في هذا الإنجيل تفصحُ عنْ خطورة عدَم الإقرار بمملكة الربِّ: «يقولُ يسوع: مملكةُ الأبِ تشبهُ إمرأةً كانتْ تحملُ جرَّةً مملوءةً طعاماً. وبينما كانتْ تسيرُ في طريقٍ طويلٍ انكسرتْ عروةُ الجَرَّة التي تُمسك بها فكانَ الطعامُ يتساقطُ وهي تسيرُ غيرَ داريةٍ به، وما كانتْ هذه المرأة تعرفُ الكدْحَ، وحينَ وصلتْ منزلَها، وضعتْ الجَرَّةَ على الأرض لتكتشف أنَّها خاليةٌ».

• جهلُ المرأة بسقوط الطعام من جرَّتها يمثِّل جهلَ أولئك الذين يمرُّون بالحياة غيرَ منتبهين الى وجود الله داخلَهم، تماماً كما هو حالُ المرأة، وهي تصل نهايةَ رحلتها وليس لديها شيء. النَّاسُ الذين ليس لديهم معرفةٌ بالله يصلون نهايةَ حياتهم وهم لمّا يكتشفوا حقيقةَ أنفسهم وحقيقةَ الإله.

• لاحظ أنَّ المرأة يُقال عنْها في النصّ بأنَّها لا تعرف الكدْحَ. يوضح الإنجيلُ أنَّ يسوع قدْ كشف الحقيقة لنا، لكنْ، علينا أنْ نبذل جهداً لنجدَ ونفهمَ ما كشف لنا.

في العهدِ الجديد، يقولُ يسوعُ بأنَّ شفاءَ المرضى كانَ علامةَ قُرْبِ نهايةِ حكمِ الشيطانِ لهذا العالمِ.

■ الكَدْحُ الذي تتطلبه المعرفة (gnosis) هو العمل الشاقُّ منْ أجلِ محاولةِ فهمِ أقوالِ الإنجيلِ المنسوبِ الى توماس التي تكون مُحيّرةً في أحيانٍ كثيرة. فإنْ بذلْنا الجهد في معرفتها فسنكتشف نفوسَنا الحقيقيَّة وتجربةَ مملكة الربِّ - ليس في المستقبل، بلْ، الآنَ في اللحظةِ القائمةِ.

اقتباساتٌ مِنْ إنجيلِ توماس[1]

١- القولُ الأوَّلُ:

قالَ يسوعُ: «مَنْ يجدْ تفسيرَ هذه الأقوالِ فلنْ يذوقَ الموتَ».

٢- القولُ الثاني:

قالَ يسوعُ: «فليستمرْ الساعي في سَعْيِهِ ولا يتوقفْ حتّى يعثرَ على بُغيتِهِ، وعندما يعثرُ على بُغيتِهِ سيضطربُ. وعندما يضطربُ فسيندهشُ وسيحكمُ الجميعَ».

٣- القولُ الثالثُ:

قالَ يسوعُ: «إنْ قالَ لكمْ زعماؤكم: (أنظروا، المملكةُ في السماء. ستصل الطيورُ التي في الفضاءِ الى هناكَ قبلَكم). وإنْ قالوا لكم: (إنَّها في البحر). عندها سيسبقُكم السَّمكُ الى هناك. لكنَّ المملكةَ داخلَكم وخارجَكم. عندما تعرفون نفوسَكم فأنتم أطفالُ الأبِ الحيِّ. لكنْ إنْ لمْ تعرفوا نفوسَكم فأنتمْ في فَقْرٍ وتجسّدونَ الفقرَ».

٤- القولُ السادسُ والتسعون:

قالَ يسوعُ: «إنَّ مَثَلَ مملكةِ الأبِ مَثَلُ إمرأةٍ أخذتْ خميرةً قليلةً وأخفتْها في عجينةٍ، ثُمَّ صنعتْ مِنْها أرغفةَ خبزٍ. فليُصْغِ مَنْ له سمْعٌ».

٥- القولُ الثامنُ والتسعون:

قالَ يسوعُ: «إنَّ مَثَلَ مملكةِ الأبِ مَثَلُ شخصٍ أرادَ أنْ يقتل شخصاً شديدَ البأسِ، فاستلَّ سيفَهُ وهو في بيتِهِ وطعَنَ بِهِ الجدارَ ليكتشفَ ما إذا كانتْ يدُهُ ستخترقُهُ. بعدَ ذلك قتلَ الرجلَ القويَّ».

---

(١) الاقتباسات معدَّلة عن كتاب (أناجيل يسوع الغنوصية: المجموعة التعريفية للأناجيل العرفانية وكتب الأسرار حول يسوع الناصرة)، لمؤلفه مارفن. دبليو. ميير Mavin w. Meyer , New York, Harper One, 2005.

٦- القولُ السابعُ بعدَ المائةِ:

قالَ يسوعُ: «إنَّما مَثَلُ المَملكةِ مَثَلُ راعٍ كانَ لهُ مائةٌ من الخرافِ، ضلَّ واحدٌ منها وهو الأضخمُ. فتركَ الراعي التسعةَ والتسعين خروفاً، وبحثَ عنْ الخروفِ الضالِّ حتّى وجدَهُ. وبعدَ جَهْدٍ وسعْيٍ قالَ للخروفِ «أحبُّك أكثرَ منْ التسعةِ والتسعينَ».

٧- القولُ الثامنُ بعدَ المائةِ:

قالَ يسوعُ: «مَنْ يشربْ مِنْ فمي سيكونُ مِثلي؛ أنا نفسي سأكونُ ذلكَ الشخصَ، وستُكشَف لهُ الأمورُ الخفيّةُ».

٨- القولُ الثالثَ عشرَ بعدَ المائةِ:

«قالَ لهُ تلامذتُه: (متى تأتي المملكةُ؟)، فقالَ يسوعُ: «لنْ تأتي بالبحثِ عنْها، ولنْ يكونَ ذلك بالقولِ: (أنظروا هنا أو أنظروا هناكَ، بلْ، تنتشرُ مملكةُ الأبِ على الأرضِ لكنَّ الناسَ لا يَروْنها)».

-١٠-

إنجيلُ توماس: حولَ إعادةِ توحيدِ النفسِ

إنجيلُ توماس: حولَ إعادةِ توحيدِ النفسِ

أقصرُ قولٍ في إنجيل توماس هو: «قالَ يسوعُ: كُنْ عابرَ سبيلٍ». نحنُ ننتمي الى مملكة الرُّوحِ والنُّورِ وليس الى هذا العالَمِ، عالمِ اللحمِ والظلامِ. وهكذا، يأمرنا يسوع أنْ نعيش في هذا العالم كعابري سبيلٍ. في آخر محاضراتنا عرفنا أنَّ إنجيل توماس يشارك الغنوصيّين اعتقادَهم بأنَّ الخلاصَ يأتي منْ خلالِ المعرفة (gnosis)، وهي المعرفةُ الخاصَّة بالله التي جاء بها يسوع. لدى توماس، المعرفةُ (الغنوص) هي معرفة نفوسِنا الحقيقيّة. ونحن نحتاج الى استعادة المعرفة بنفوسنا الحقيقيَّةِ مِنْ خلال أقوال يسوع. في هذه المحاضرة، سنعرفُ أكثر حولَ هذه النفْسِ الحقيقيَّةِ وما المقصود من «أنْ نكونَ عابري سبيلٍ».

النفسُ الحَقَّة:

• ما هو أساسيٌّ في كلِّ شيءٍ يدعو اليه إنجيل توماس حول الكائنات البشرية هو فكرةُ أنَّ أجسادنا لا علاقة لها بمَنْ نحن. نفوسُنا الحقيقيّةُ هي رُوحيّةٌ على نحوٍ تامٍّ، وغيرُ ماديّة، وليستْ منْ لحمٍ ودمٍ. الجسدُ واللحم فقيران لا نفعَ فيهما مقارنةً بغنى وروعةِ النَّفْس (soul) والرُّوحِ (spirit).

• يخبرنا الإنجيلُ بأنَّ أرواحنا كانتْ في عالَم رُوحيٍ منْ النور قبلَ نزولها وسكَنها أجسَامنا، وأنَّ مصيرنا هو العودة الى ذلك العالَم. على سبيل المثال، يقول يسوع: «طُوبى للفرادى المُنعزلينَ والمختارينَ: ستجدونَ المملكةَ. لأنَّكم قدْ جئتم مِنْها وإليها سَتَرجِعونَ».

• أغلبُ الناس يشبهون تلك المرأةَ صاحبة جَرَّة الطعام التي التقيتها فيما سلف من الكلام: يمرُّون بالحياة غيرَ واعين نفوسَهم الحقيقية. لكنْ، عندما نصغي الى

رسالة يسوع، نستيقظ منْ غيبوبتنا وندرك مَنْ نحنُ حقّاً. عندما يحدث ذلك، يمكننا أنْ نعيش تجربةَ الراحةَ ونعودُ الى العالَم الرُّوحيّ - حتَّى في هذا العالَم القائمِ. وفقاً لتوماس، هذه هي مملكة الله.

• الكثيرُ من هذه الأفكار يأتي منْ فلسفة إفلاطون. لدى إفلاطون، أيضاً، الكائناتُ البشرية هي منْ الناحيةِ الأساسيَّة نفوسٌ موجودةٌ قبْلَ ولادتنا في هذا العالم المادِّيّ، وستستمر في الوجود بعد أنْ تموتَ أجسادنا. وفقاً لحوار إفلاطون (تيمايؤوس - Timaeus)، خلقتْ الآلهةُ نفوسَنا مع بذرة إلهيَّة داخلها. لَقَدْ عُلِّمْنا أموراً حوْلَ الكون ثُمَّ أُنْزِلنا لكي نعيشَ في أجسادنا. ونحنُ في أجسادنا، نميلُ نحو نسيان ما قدْ علمناهُ عندما كُنَّا قدْ وُجِدنا كنفوسٍ فحَسْبُ، لكنْ، منْ خلالِ الفلسفةِ والتعليمِ، نتذكَّر ويمكننا الحصولُ على السعادة.

• يُشاركُ إنجيل توماس وجهةَ النظر الإفلاطونيَّة عنْ أصل ومصير البشَرِ، لكنَّ هذا الإنجيلَ يصرُّ على أنَّ يسوعَ، وليستْ الفلسفةُ، هو مَنْ يجلبُ التَّبصُّر الى أرواحنا، ويكشف لنا أصولَنا في عالم الرُّوح والنُّور، ويُعَرِّفُنا طريقَ العودة الى هذه الأصول.

الصيرورةُ واحداً:

• في إنجيل توماس، يقولُ يسوع«طوبى للنسّاكِ المنفردينَ والمختارين». والحقُّ، العديدُ من الأقوال في إنجيل توماس تشيرُ الى أفرادٍ حصلوا على المعرفة (الغنوص) والخلاص وحيدِينَ.

• في إنجيل توماس يشير مصطلح (وحيد) و(منعزل) الى شخصٍ تغلَّبَ على انقساماتِ وتعدُّديَّةِ الحياةِ في هذا العالم وصارَ مُوَّحداً. وفي ردٍّ على سؤال للتلامذة، يبيِّنُ يسوعُ أنَّ الخلاصَ يأتي منْ تركيبِ الأضداد:

«قالَ لهم يسوعُ: (حينَ تجعلون الإثنين واحداً، وحينَ تجعلون الداخلَ كالخارجِ والخارجَ كالداخلِ، والأعلى كالأسفلِ؛ وحينَ تجعلون الذكرَ والأنثى في فردٍ واحدٍ، فلا

يكونُ الذكَرُ ذكَراً ولا الأنثى أنثى؛ حينَ تضعون عيوناً مكانَ عينٍ واحدةٍ، ويداً مكانَ يدٍ، وقدَماً مكانَ قدمٍ، وصورةً مكانَ صورةٍ، عندَئذٍ ستدخلون المملكةَ)». (٢٢).

• وتبدو الفكرة هنا أنَّهُ قبْلَ إنقاذنا، نحنُ فِعْلاً لا نعرفُ نفوسَنا الحقيقيّةَ. ولهذا السببِ فنحنُ منقسمونَ. لدينا نَفْسٌ واحدة تعيش في هذا العالم، لدينا أُسْرةٌ ووظيفةٌ ونعتقد أنَّ هذهِ الأمورَ تكوّنِ الحياةَ. لكنَّ هذه النَّفْسَ كاذبةٌ. ثَمَّةَ نَفْسٌ أخرى لا تنتمي الى هذا العالم، بلْ الى عالَم الرُّوح (spirit) والنُّورِ. عندما نحصلُ على الغُنوص (المعرفة بالله) تصيرُ النَّفْسانِ كلتاهما نَفْساً واحدةً.

• لكنَّ التغلبَ على هذا الانقسام هو جزءٌ منْ القصَّة فحسْبُ، فعندما نعرف نفوسَنا، نعرفُ كذلك يسوعَ، ونُدركُ أنَّنا نورٌ كما إنَّ يسوعَ نورٌ. وهكذا، يتلاشى الفرق بَيْنَ النَّفْسِ ويسوعَ.

• هذه الفكرةُ - فكرةُ التغلُّب على الإنقسام بينَ المؤمن ويسوع - يُرمَزُ اليها باسم المؤلِّف المفترَض لهذا الإنجيل، ديديموس يهودا توماس.

▪ كلا الاسمين، (ديديموس -Didymus) اليوناني و(توماس - Thomas) الآرامي يمكن أنْ يعنيا (ثنائياً) أو (تَوْأَماً) في لغتيهما. لذلك، اعتقد بعض المسيحيّين الأوائل بأنَّ ديديموس يهودا توماس هو الأخُ التوْأَمُ ليسوع، بمعنى تشابههما الشديد.

▪ تصبح تَوْأَمَة توماس معَ يسوع مجازاً للعلاقة بينَ كلِّ نَفْسٍ (soul) بشريّة ويسوع. وكما رأينا، في إنجيل توماس، معرفةُ النَّفْسِ هي معرفةُ بالله. نفوسُنا الحقيقيّةُ إلهيّةٌ تماماً كما إنَّ يسوع إلهيٌّ. يوجد داخلنا نورٌ هو يسوعُ. وهكذا، نعرف نفوسَنا كنور إلهيٍّ، بعد ذلك سنعرف يسوعَ ونُدركُ وحدتَنا الجوهريَّةَ. يسوعُ والنفْسُ (soul) الفرديَّةُ واحدٌ - تَوْأَمٌ، مثلُ توماس ويسوع.

التعميدُ في إنجيلِ توماس:

• واحدٌ من الانقسامات التي يتغلَّب عليها الخلاصُ هو الإنقسامُ بَيْنَ الذكَر والأنثى. يقول يسوع بأنَّ المسيحيّين سيدخلون مملكة الربّ عندما «يُصيِّرون الذكَرَ والأنثى واحداً، لذلك فالذَّكَرُ ربما لا يكون ذَكَراً ولا الأنثى تكون أُنثى». لقد رأينا قبْلُ في الأسطورة الغنوصيَّة أنَّ الإنقسام بينَ الذَّكَر والأنثى كانَ رمزاً دينيّاً قويّاً.

• اعتقدَ بعضُ أوائل المسيحيّين على نحوٍ واضحٍ أنَّ التعميدَ قدْ أعاد الكائناتِ البشريَّة الى صورة الله، وكانتْ هذه الكائناتُ قدْ فقدتْها عندما ارتكبتْ الخطيئة. في الرسالةِ الموجَّهة الى أهل (غلاطية)[1]، يتغلَّب هذا التجديدُ على التقسيمات وسْط البَشَر: «لمْ يَعُدْ يوجد يهود، أو يونانيّونَ، ولا عبدٌ، ولا حرٌّ، ولا ذكرٌ، ولا أنثى: لأنّكم جميعاً واحدٌ في يسوعَ المسيحِ» (٣:٢٨). كذلك يخبرنا القولُ الثاني والعشرون منْ إنجيل توماس بأنَّ الخلاص يأتي حين يتغلَّب النَّاس على هذه التقسيمات.

• في العهدِ الجديد، غالباً ما يُشَبِّهُ يسوع أتباعَه بالأطفال، ويذهب إنجيل توماس أبعدَ من ذلك: فأتْباع يسوع ليسوا، ببساطة، أطفالاً، بلْ، هم رُضَّعٌ صغارٌ. مثل هؤلاء الحديثي الولادة هم في مرحلة ما قبل - الجنس: لم ينقسموا لحدِّ الآن الى ذكَر وأنثى. وهكذا يقدِّم الرُّضَّعُ الصغار مجازاً جيداً لما يقوله الإنجيل. الإنسانُ الجديد متجاوزٌ للذَّكَر والأنثى كالرَّضيع منْ الصغار.

• بهذا الفهم للتعميدِ، والخلاصِ، والوحدةِ، يمكننا الآنَ أنْ نفهم على نحوٍ أفضل القولَ الأخير لإنجيل توماس: «قالَ لهم سيمونُ بيتر: إجعلوا مريمَ تغادرُ، لأنَّ الإناث غيرُ جديراتٍ بالحياة». «وقال يسوع: أنظروا، سأرشدُها لأجعلَها ذكَراً لكيْ يمكنَ لها أيضاً أنْ تصبحَ رُوحاً ذكوريّةً حيّةً مثلَكم، لأنَّ كلَّ أنثى تجعل منْ نفسِها ذكَراً ستدخلُ مملكةَ السماء». (١١٤).

---

(١) وجهها بولص الى أهل غلاطية الرومانية، وهي تتعلّق بمسألة وجوب، أو عدم وجوب، اتّباع المسيحيين مِمَّنْ كانتْ أصولُهم وثنيةً لشريعة موسى. (المترجم).

▪ بيترُ ومريمُ، هنا، رمزانِ للعنصر الذكَريّ والأنثويّ، ويجب أنْ يُحوَّل العنصرُ الأنثويُّ الى ذكَريّ للوصولِ الى مملكة الله. مرةً أخرى، نرى أنَّ المؤلِّف القديم لا يفهم التغلُّبَ على الانقسام الذكَريّ - الأنثويّ باعتباره إتحادَ شيئَيْنِ متساويَيْنِ، بلْ، باعتبارهِ عودةَ العنصر الأنثويّ الى العنصرِ الذكَريّ الأكثرِ أساسيّةً.

▪ لِكَيْ يُنقَذَ بيترُ ومريمُ، عليهما استرجاع حالةً لا تنفصل فيها الأنثى عنْ الذكَر. ولنْ يكون وجودُها وحدُها كافياً والشخصُ المنقَذ يجب أنْ يكونَ (وحيداً) منعزلاً - متضامّاً على نحوٍ تامّ وبعيداً عنْ أيّ نوعٍ منْ الانقسام. وتلكَ هي تجربةُ مملكةِ السماء.

الأخلاقُ الغُنوصيّة:

• هذهِ رؤيةٌ مقنعةٌ للخلاص البشريّ، لكنْ ماذا تعني بالمعنى العمليّ؟ كيفَ يجب أنْ يعيش شخصٌ يتّبع إنجيلَ توماس في هذا العالم؟

▪ لأنَّ الكتاباتَ الغنوصيّة هي في الغالب أسطورةٌ ورؤيةٌ لنهاية العالَم، يصعبُ تحديد القانونِ الأخلاقيّ أو أسلوبِ الحياة لدى الغنوصيّين. نرى أنَّ لديهم وِجْهةَ نظرٍ سلبيّةً تجاهَ الرغبةِ الجنسيّة، لكنَّهم ليس لديهم وجهةُ نظرٍ سلبيّةٌ تجاهَ الزواجِ والأسرة. كما إنَّنا نشاهد جوانب لحياتهم العباديّة، مِنْ قبيلِ التأمُّلِ وإنشادِ الترانيم، والتعميدِ، لكنْ منْ جانبٍ آخرَ، الكتاباتُ الغنوصيّة لا تقدِّم الكثيرَ منْ التوجيه العمليّ حولَ الحياة الدينيّة.

▪ وبالمقارنةِ، يخبرُ إنجيل توماس قرّاءَه على نحوٍ خاصّ: «كونوا عابرِي سبيلٍ في هذا العالَمِ». يحضُّ إنجيلُ توماس النّاسَ على العيش في هذا العالم كما لو كانوا يمرُّون بهِ لا أكثرَ.

▪ الأقوالُ الواردة في إنجيل توماس ترفضُ ملامحَ الدين التقليديّ في العالَم القديم. على سبيل المثال، يقول يسوعُ «إنْ صِمتُمْ فسترتكبون ذنْباً، وإنْ صلّيتم فستُلعَنون، وإنْ تصَدَّقتُمْ فستُؤذونَ أرواحَكم» (١٤). الصومُ، وإيتاءُ الصدَقاتِ، والصلاةُ كانتْ

نشاطاتٌ أساسيّة للحياة التعبُديَّة عند اليهود القدامى وأغلب المسيحيّين، لكنْ في إنجيل توماس، يرفض يسوعُ هذه الأفعالَ التعبُديّةَ باعتبارها أفعالاً ضارّةً. ما هو مُهمٌّ هو تربيةُ الرُّوح. النُّورُ الالهيُّ الذي في داخلنا، وليسَ النشاطات الخارجية.

• في بعض أناجيل العهد الجديد، يُقدَّم الالتزامُ بيسوع على أُسرةِ الشَّخص في الأهميّة - مثلاً، في إنجيل لوقا (١٤)، يقول يسوع بأنَّ على النَّاس أنْ يكرهوا والديهم وأبناءَهم وأزواجَهم وأطفالَهم إنْ أرادوا أنْ يكونوا تلامذته. نجدُ تعاليم مماثلةً في إنجيل توماس. على سبيل المثال، يقول يسوعُ «الذي لا يكرهُ أباهُ وأمَّه لا يمكنه أنْ يكون تلميذاً لي. والذي لا يكرهُ إخوتَهُ ويحملُ الصليبَ كما أحملُهُ لا يَستحقُّني» (٥٥).

• كذلك يوضح العديدُ من الأقوال أنَّ أتْباع يسوع الحقيقيّين سيعانون منْ الفقرِ والتشرُّد والتسوُّل مثلاً، في القول الرابع عشر بعدَ أنْ يأمر يسوعُ تلامذته بعدم الصيام والتصدُّق، يوجّههم نحو الاعتماد على آخرين منْ أجل طعامهم ومنْ أجل دعمهم. وليسَ مستغرَباً أنَّ إنجيل توماس أيضاً يدين بشدَّة جمعَ المال والعمل في التجارة.

• هل فعلاً عاش بعضُ المسيحيين بأسلوب حياة التطواف والاستجداء التي ينصح بها إنجيل توماس؟ تبيّن الأدلةُ أنَّ مثل هؤلاء المسيحيّينَ الجوّالينَ كانوا موجودين عبْرَ القرون الأولى من المسيحية، على وجه الخصوص، في سوريا ووادي الرافدين. لكنَّ أفكارَ إنجيل توماس هي الأفكار التي كان لها النفوذ الأكبر في تاريخ الأديان القديمة. وترى هذه الأفكار أنَّ معرفةَ الأنسانِ نفسَهُ هي معرفةٌ بالله، وأنَّ الخلاصَ هو توحيدُ نفسٍ منقسمةٍ.

في طقْس التعميدِ، تُخلَع وتُرمى النفسُ القديمةُ عندما يُخلَع لباسُ الشخصِ وتظهرُ نفسٌ جديدةٌ مِنْ مياهِ التعميد.

-١١-

فالنتينوس: داعيةُ الغُنوصيّة العظيم

فالنتينوس: داعيةُ الغُنوصيّة العظيم

عندما كتبَ أيريـانؤوس كتابَه (ضِـدَّ الهرطقاتِ)(١) في العام ١٨٠م، كانَ خوفُه الأعظم هو أنْ يصغي المسيحيّون الى معلِّمين دعاهم باسم (الفالنتينيّين)، أتباعِ فالنتينوس. قال أيريانؤوس بأنَّ المسيحيّين الفالنتينيّين «ذئابٌ في ثيابِ حِمْلان»، وهم متأهبون للانقضاض على المسيحيّين المطمئنين ليقودوهم الى خطأ شيطانيّ. فلِمَ كان فالنتينوس تهديداً على هذا النحو؟ ولِمَ هاجمَهُ القادةُ المسيحيّون الآخرون على نحوٍ متكرّرٍ وشرسٍ؟

باختصار، لأنَّ فالنتينوس كانَ لاهوتيّاً مسيحيّاً لامعاً وبليغاً حوَّلَ الأسطورةَ الغنوصيّة الى رسالةٍ مسيحيَّةٍ قويَّةٍ، وبدأ حركةً مسيحيّةً استمرتْ قروناً. دعا فالنتينوس الناسَ الى أنْ يعثروا في يسوع على معرفةِ الأبِ، ومعرفةِ نفوسِهم، وأن يجرِّبوا الربَّ على نحوٍ مباشر، وفوق كلِّ ذلك، أنْ تتمَّ هذه الأمور في بهْجةٍ وحبورٍ.

---

(١) الاسم الأصلي لهذا العمل هو: Detection and Overthrow of the Pretended but False Gnosis. أي «كشف الغنوصية المزعومة الكاذبة ودحضها». ويعرف بالاسم اللاتيني "Adversus Haereses" أي «ضد الهرطقات»، وهو يتكون من خمسة كتب. ينقسم العمل إلى قسمين: الأول: يتناول كشف ووصف البدعة الغنوصية، ورغم أن هذا القسم محصور في الكتاب الأول فقط، إلا أنه عظيم الأهمية لمعرفة تاريخ الغنوصية، ويبدأ ايريناؤس بوصف تفصيلي لعقيدة الفالنتينيين Valentinians، يتخلله ردود عليهم، وبعد ذلك يتحدث عن نشأة الغنوصية. أما القسم الثاني: يتكون القسم الثاني من هذا المؤلف وهو «الدحض» من أربعة كتب هي: الكتاب الثاني: يفند بدعة الفالنتينيين وأتباع مرقيون بالاحتكام إلى العقل. الكتاب الثالث: بالاحتكام إلى عقيدة الكنيسة في الله والمسيح. الكتاب الرابع: بالاحتكام إلى أقوال الرب. الكتاب الخامس: أفرده ايريناؤس لشرح قيامة الجسد التي أنكرها جميع الغنوصيين. (المراجع).

حياةُ فالنتينوس:

• يُحتَمل أنْ تكونَ ولادةُ فالنتينوس حوالي العام المائةِ، وربما كان قد قضى سنينَهُ الأولى في الإسكندرية في مصر. وعندَ حوالي العام ١٤٠م كان معلِّماً مشهوراً وذا نفوذ في روما. ولا نعلم متى توفي فالنتينوس، لكنّه بالتأكيد كانَ قدْ مات قبلَ أنْ يكتب أريانئوس عمله الضخمَ ضدَّ الغنوصيّين وأتباعِ فالنتينوسَ في العام ١٨٠م.

• في مدَّةِ حياتِهِ لم يُعلَن عن فالنتينوس باعتباره مُهَرْطِقاً. على الرغْم منْ كونِ العديد من المعلِّمين المسيحيين اعتبروا آراءَهُ مغلوطةً، كانَ لديه أتباعٌ على قدْرٍ منْ الأهمية. أضفْ الى ذلك، في ذلك الوقت، لمْ توجد أيّة كنيسة يمكنها الإعلان على نحوٍ رسميٍ عنْ شخصٍ باعتبارِهِ مُهرطِقاً. ولمْ توافقْ السلطاتُ الكَنسيَّة الاّ في وقت متأخر على إدانة فالنتينوس.

• وللأسفِ، كنتيجة لهذه الإدانة، تقريباً كانتْ كُلُّ كتابات فالنتينوس تقريباً قدْ فُقِدَتْ. لدينا حوالي نصف دزينةٍ منْ الشذرات منْ أعماله التي يقتبسها النقّادُ، وقصائدُ قصيرة اقتبسها المؤلِّف القديم. كذلك، يعتقد العديد من العلماء أنَّ الموعظةَ التي عُثر عليها في نجْع حمّادي المسماة (إنجيل الحقيقة) هي لفالنتينوس.

(حصادُ الصيفِ):

■ القصيدةُ القصيرة لفالنتينوس المسمَّاة (حصاد الصيف) توضح رغبتَهُ في التعبيرِ عنْ نفسهِ بطرائقَ مبتكرة:

في الرُّوحِ، أرى كلَّ الأشياءِ مَتدلِّيَةً
في الرُّوحِ، أعرفُ أنَّ كلَّ الأشياءِ محمولةً
اللحمُ متدلٍ مِنْ النفسِ
النفسُ تنفصلُ صاعدةً في الهواءِ
الهواءُ يتدلّى مِنْ الجوّ الأعلى

الغلالُ تخرجُ مِنْ العميقِ

طفلٌ يخرجُ مِنْ الَرحِم

• لاحظ؛ أنَّ المتحدِّث، هنا، ليس في تواصل معَ وجهات نظر شخصٍ آخر، ولا يزعمُ أنَّه يفسّرُ الكتابَ المقدَّس أو نصّاً دينياً آخر. بلْ يقولُ (أرى) و(أعرفُ)؛ مؤكِّداً تجربتَهُ الشخصيّةَ حولَ الحقيقةِ ونفاذِ البصيرة.

• تتكوّن قصيدةُ (حصاد الصيف) من جزأين. يتألَّف الجزءُ الأوّل منْ خمسة أبيات، ينقل الشاعر تعالقَ كلِّ الموجودات، كلُّ شيء موجودٍ مُتَدلٍّ مِنْ، أو محمولٌ بوساطةٍ، أو متعلِّقٌ بشيء أكثر رُوحانيّةً مِنهُ. توضح هذه الأبيات الخمسة كوناً هادئاً منْ الوحدةِ والاستقرار.

• لكنَّ البيتَيْنِ الأخيرين يشيانِ بالحركةِ والتوالدِ والولادةِ. يُقاطَع الاستقرارُ والتعالق بالخلْقِ والخصوبة. عندما تُعبّر القصيدةُ بنشاطٍ عنْ الحياةِ والحيويَّة التي تختفي خلْفَ الكون، وفي الحقيقة، خلْفَ كلِّ الوجود، تترك القصيدةُ القاريءَ مُعلَقاً. فالفكرة الأولى هي أنَّ كلَّ الواقع (reality) مستقرٌ وثابتٌ ومترابطٌ، مع ذلك، في أساس الواقع توجد قوّةٌ هائلة مانحة للحياة.

• كذلك، فإنَّ البيتَيْنِ الأخيرين هما نمطيآنِ بالنسبة الى فالنتينوس حيث إنَّهما يخلقان شعوراً دينياً باتّباعهما اصطلاحاتٍ وصوراً خاصَّة رُبما يدركها، أو، لا يدركها القاريء. على سبيلِ المثال، تشير القصيدةُ الى مصدر الحياة باعتبارِهِ (العميقَ) و(الرَحِمَ)، ونحن نعلم مِنْ مصادرَ أُخَرَ قديمةٍ أنَّ فالنتينوس أشارَ الى اللهِ العالي النهائيّ بتعبيرِ (العميق).

• في (حصادِ الصيفِ) نرى الخصائصَ التي صيَّرتْ فالنتينوس واعظاً جذَّاباً. فهو يعبّر عنْ رؤيةِ تبصُّرٍ شخصيٍ عميقٍ، وهو يفعلُ هذا بطريقة تجمع تراثاتٍ دينيّةً متعدِّدةً: الأسطورةَ الغنوصية، وإنجيلَ توماس، والعهدَ الجديد، والفلسفةَ اليونانيَّةَ. وهو يغادر القاريءَ في مشاعرِ الدَهْشة منْ الاستقرار الإلهيّ والخلاقيّةِ، ويعطي انطباعاً

بأنَّه يتوقع أنَّ الآخرين هم أيضاً بإمكانهم أنْ يكون لهم نوعُ التبصُّرِ الشخصيِّ نفسُهُ الذي حدثَ لهُ.

الأسطورةُ الفالنتينيَّةُ:

• كانتْ الأسطورةُ الغنوصيَّة واحدةً منْ مصادرِ فكرِ فالنتينوس، لكنَّه عدَّل هذه الأسطورةَ على نحوٍ مُهِمٍ لِيجعلها مسيحيةً على نحوٍ أكثرَ وضوحاً، ولِيزيلَ منها الملامح الأكثرَ تضاداً معَ اليهوديَّة.

• على غرارِ الغنوصيّين، اعتبرَ فالنتينوس اللهَ بنيةً معقَّدةً منْ الفيوضات، لكنَّهُ استعمل أسماءً منْ الكتابِ المقدَّس لتسميةِ أيوناتِهِ: الحقيقةِ، والحياةِ، والكلمةِ، والكنيسةِ. سمّى الغنوصيُّون العالمَ الإلهيَّ بإسم (الكُليّة – entirety)، لكن فالنتينوس سمّاه (الامتلاء أو الملء – fullness).

• ومِثْلَ الغنوصيّين، اعتقدَ فالنتينوس أنَّ أيوناً واحداً، هو الحِكمةُ، قَدْ ارتكب خطأً. لكنْ، في أسطورة فالنتينوس، لا تُنتجُ الحكمةُ إلهاً مَعيباً ثُمَّ تُلقيه خارجَ الكُليّة. بَدَلاً مِنْ ذلك، الحكمةُ ذاتُها تغادر الملءَ وتدخل عالمنا. عندها يدعو فالنتينوس هذا الأيون باسم (الأُمّ).

▪ تنتج الأمُّ كائناتٍ إلهيّة عديدة. أوّلها المسيحُ، الذي يأخذ منْ الأمّ حصَّتَها من الرُّوحِ الإلهيَّة، بعدَ ذلكَ يعود الى الملء. ثُمَّ، بدونِ رُوحٍ إلهيَّةٍ، ينبعثُ منْ الأمّ كائنٌ ثانٍ يسميّه فالنتينوس باسم (الصانع) و(القدير). وهذا هو خالقُ هذا العالمِ، إلهُ سِفْرِ التكوين.

▪ اتَّفق فالنتينوس معَ الغنوصيين على أنَّ إلهَ سِفْر التكوين هو كائن إلهيّ أدنى، لكنَّ إلهَهُ الخالقَ ليس خبيثاً ولا يضطهد البشَر. إنّه ببساطة أدنى وأقل رُوحانيّة من الله النهائي (الأعلى).

▪ على هذا النحو، أسطورةُ فالنتينوس هي أَقَلُّ عدائيّةً تجاهَ التراث اليهوديّ من

الأسطورة الغنوصيّة، وهي أكثرُ شبهاً بفكرة المسيحيّين الآخرينَ حولَ الله.

■ أخيراً، في الأسطورة الغنوصيَّةِ، تعمل الحِكمةُ، والفكرةُ الأولى معاً على تنويرِ البشر، واستعادةِ القوَّة الالهيّة منْ الحُكّام، وعلى استعادة ما فُقد من الكليّة (العالَم الالهيِ). معَ، ذلك لا يؤّكد فالنتينوسُ استعادةَ القوّة الإلهيّة المسروقة. بلْ، هو يوضح الجوهرَ الالهيَّ ضِمنَ البشريَّة باعتبارهِ رابطَنا مع الله. وهو ما يُمكّننا منْ معرفةِ نفوسنا، ومعرفةِ الله، وإدراكِ تفوُّقنا على الوجود الفاني.

■ الكائنُ الالهيُّ الذي يساعدنا هو، منْ الناحية الأساسيّة، كلمةُ الله أو اللوجوس، الذي هو أيضاً ابنُ الله واسمُ الله. إنَّ هذهِ الكلمةَ هي ما يكشف لنا اللهَ وما أصبحَ مُجسّداً في يسوع، يكشفهُ لنا و لنفوسِنا.

• وفقاً لرأي فالنتينوس، عندما خلق الإلهُ الخالقُ وملائكتُهُ البَشَرَ كانوا فزعين منْ حضور البشريَّة؛ وذلك لأنَّ كلمة الله زرعتْ بذرةَ ماهيّةٍ عليا في البشريَّة. اسمُ الله، وهو حاضرٌ في الوجود الانسانيِ وضِمْنَ الإنسان، يسدُّ ما ينقصنا لأنّنا قدْ خَلَقتنا كائناتٌ دنيا. الكلمةُ هي القدرةُ الكامنةُ داخلَ كلِّ واحدٍ منّا.

■ كلمةُ الله نفسُها هي كيفيّة كشْف اللهِ، الأبِ، عَنْ نفسهِ للكائناتِ البشريَّةِ. وعلى هذا النحو وعَبْرَ ابنِ الله، بإمكانِ أيِّ شخص أنْ يحصل على قلْبٍ نقيٍ ويرى الله، تماماً كما يَعِدُ يسوع في إنجيل متّي، ٥: ٨ : «طوبى لأنقياءِ القلوبِ لأنّهم سيرَوْن الله».

• لدى فالنتينوس، الخلاصُ الذي تأتي به كلمة الربِ يطلق القوَّةَ الإلهيَّةَ الكامنةَ فينا ويُمكّننا منْ الانتصارعلى فساد وتحلُّل العالم الماديّ. يحضُّ إنجيلُ توماس المسيحيّين «إزهدوا في هذا العالمِ» لأنّه ليس موطنَكم الحقيقيّ. «ألغوا العالَم». المسيحيّون الذين حصلوا على الغنوص (المعرفة) من خلال المسيح ينشّطون الخلودَ الذي يحملونه دائماً. ومِنْ خلالِهم يفنى الموتُ ويسودون كلَّ شيءٍ يُخلَقُ ويعاني الفسادَ.

إنجيلُ الحقيقةِ:

التصريحُ الأكثر اكتمالاً لِروحانيّةِ فالنتينوس هو الموعظةُ المسماةُ إنجيلَ الحقيقةِ. وعلى الرغْمِ منْ أنّنا لسْنا متأكدين منْ أنَّ فالنتينوس قدْ كتبَ هذا الإنجيل، ينسبهُ العديدُ منْ العلماء اليهِ.

تُعرِّف الموعظةُ الخطيئةَ - ما يفصلنا عن الله - باعتبارها جهلاً. الخلاصُ - عودتُنا الى الله - هو اكتشافُ الأبِ بوساطة قوّةِ المخلِّصِ، الكلمةِ. وهذا هو قلبُ الرسالة المسيحيَّةِ لدى فالنتينوس، وفي الموعظةِ، يبيّنُ فالنتينوسُ كيفَ جاءَ الجهلُ الى الوجود، وكيفَ يحصلُ المسيحيّون على المعرفة منْ خلالِ يسوع، وما هي تجربةُ البهْجةِ بالنسبةِ لهؤلاءِ المسيحيّين.

وِفْقاً لرأيِ فالنتينوس، العالمُ الماديُّ الذي نعيش فيه هو نتيجةُ الجهلِ (ignorance). في الآخِر، كلُّ ما هو موجودٌ هو في اللهِ الأبِ، وكلُّ الموجوداتِ الحقيقيَّةِ هي فيوضاتٌ منهُ. بالنسبةِ الى كلِّ الموجوداتِ، البهجةُ والنعمةُ هما أنْ نعرفَ الأبَ وأنْ يعرفنا هو. لكنْ لكي نمتلكَ هذهِ العلاقة، يجب أنْ ننفصل عمَّنْ نريدُ أنْ نعرفهُ، والانفصالُ يأتي بإمكانيَّةِ الجهل.

• في اعتقادِ فالنتينوس، أصبح الجهلُ بالأب نوعاً منْ الضباب الذي تكثَّف متحوِّلاً الى مادَّة، بعدَ ذلك شُكِّلَت هذه المادة في هيأةِ كونٍ منْ الأشياء على يَدِ صفةٍ أنثويَّةٍ متشخصنةٍ، هي الخطأ. إذاً، في آخر الأمر، العالمُ الماديُّ الذي نعيش فيه ليس حقيقيّاً: إنَّه جهلٌ ويصير شيئاً غير ذي علاقة ما إنْ تذهب المعرفة بجهلنا. ويسوعُ هو مَنْ يصنع إمكانيَّة المعرفة (الغنوص) التي تزيلُ الجهلَ وتأتي بالبهجة.

• يستدعي فالنتينوسُ الصَلْبَ منْ العهْد الجديد، لكنْ بدلاً من الصليب، يُسمَّرُ المسيحُ الى (شجرة)، وفي هذه الشجرة، يصبح (ثمرة معرفة الأب). وهذا تلميحٌ الى القصَّة التقليديَّةِ لسقوطِ البشريَّةِ في سِفْر التكوين. لكنْ، لدى فالنتينوس، الأكلُ منْ فاكهةِ المعرفة - وهي يسوع - ليست خراباً، بلْ بهجةً، هي اكتشافُ الأبِ الذي كان

النّاس يجهلونه.

▪ يمكن للنّاس أكلُ الفاكهة، التي هي يسوع المصلوب، في الطقْسِ المسيحيّ، القربانِ المقدَّس، ويمكنهم اكتشافُ الأبِ داخلَ نفوسهم. الأبُ هو فينا تماماً كما إنّنا فيه لأنّ كلَّ الموجوداتِ التي هي حقيقيّةٌ على وجهِ التمام، هي فيوضاتُ الأبِ.

• في مقطعٍ آخر، يستعمل فالنتينوس كتاباً في هيأة المجاز. المعرفة كلُّها «الكتابُ الحيُّ للأحياء»، «الذي يُكتَبُ في قلبِ وعقلِ الأبِ». لا أحدَ يمكنهُ قراءةُ هذا الكتاب، ولا أحد يجرؤ أنْ يحمله إلّا يسوعُ.

▪ وهنا، مَرّةً أُخرى، يقلِبُ فالنتينوس صورةً من الكتاب المقدَّس، هذه المرّة، منْ الفصل الثاني منْ رسالة بولص الى أهل كولوسي. وهناك، يُوصِّفُ صلبَ يسوع بِسَمْرِهِ في الصليب باعتباره مرسوماً إلهيّاً لإدانتِنا بسبب خطايانا.

▪ لكنْ لدى فالنتينوس، عَبْرَ الصلب، يوفّرُ يسوعُ كتابَ معرفةِ الأبِ، الذي كان قد أُغلِق والكُليّة التي تأتي منْ الأبِ هي في ذلك الكتاب، والآن يمكن أن تُعرَّف. يعرِفُ قُرّاءُ الكتاب نفوسَهم، وهكذا يعودون الى الأبِ.

رسالةُ فالنتينوس الخلاصيّةُ تتمركزُ حولَ المسيحِ - الكلمةِ، الابنِ، واسمِ الأبِ الذي هو حاضرٌ فينا وجُسِّدِ في يسوعَ.

-١٢-

اللهُ والخليقةُ في أسطورةِ فالنتينوس

اللهُ والخليقةُ في أسطورةِ فالنتينوس

في أعوام العِقْدِ الخامسِ منْ منتصف القرن الثاني. عندما كانَ فالنتينوسُ يعِظُ بصيغتهِ للأنجيل في روما، كان ثمَّةَ جماعاتٌ صغيرةٌ من المسيحيِّين تتعبَّد معاً في كنائسَ تدرسُ الكتُبَ المقدَّسة تحتَ إشراف معلِّمينَ مختلفين. سبَّبتْ تصريحاتُ فالنتينوس حول الغنوص (المعرفة) اضطراباً وسْط الجماعات المسيحيَّة. ندَّدَ واحدٌ منْ المعلِّمينَ المسيحيِّينَ البارزينَ، وهو جاستن[1]، بتعاليم فالنتينوس باعتبار أنَّ الشياطين ألهمتْه إيّاها، لكنَّ جماعةً مسيحيةً أخرى اختارتْهُ أُسقُفاً لها. ولا نعرف على وجْه الدقَّة كيفَ علَّم فالنتينوس تلامذتَهُ، لكنْ، يمكننا تخمينُ أنَّهم قرأوا الكتابَ المقدَّس ونصوصاً أُخَرَ، وأنَّ فالنتينوس قدْ أوضحَ ما تكشف عنه هذه النصوص فيما يتعلق باللهِ والأبِ، وابنهِ، والخلاصِ. في هذه المحاضرة سنتفحَّص ما يمكن أنْ يكون ما تعلَّمه المسيحيون منْ فالنتينوس.

مدرسةُ فالنتينوس:

• نعرفُ أسماءَ عددٍ منْ تلامذة فالنتينوس الأكثرَ شهرةً الذين أصبحوا لاهوتيِّين مسيحيِّين على درجة منْ الأهمية، ومنْ ضِمْنهم بطليموس وهيركليون، وثيودوتس. وأخيراً انتشرتْ شبكةٌ منْ المعلِّمين المسيحيين المُلهَمين بلاهوتِ فالنتينوس عَبْرَ

(١) جاستن مارتر، المعروف أيضاً بالقديس جاستن، أو «يوستينوس الشهيد»، (١٠٠-١٦٥م)، كان مدافعاً مسيحياً مبكراً، ويعتبر المترجم الأول لنظرية اللوغوس في القرن الثاني. وقد قتل، جنباً إلى جنب مع بعض من تلاميذه، وتم اعتباره قديساً من قبل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، والأنجليكانية، والأرثوذكسية الشرقية. فُقدت معظم أعماله، ولكن اثنين من الدفاعيات وحواراً بقوا على قيد الحياة. (المراجع).

الإمبراطوريَّة الرّومانيّة. هذهِ الشبكةُ اللاهوتيَّة تُعرَف بمدرسة فالنتينوس.

• ارتبط المذهبُ الفالنتينيُّ معَ أشكالٍ أُخَر للمسيحيَّة بطرائقَ متنوّعة. لقدْ كان نوعاً من اللاهوت المسيحيِّ، طريقةً لفهم الرسالة المسيحيّة يمكن أنْ ينشغلَ بها أيُّ متعلِّم مسيحيٍّ دونَ أنْ يلتحق بالضرورة بجماعة فالنتينيَّة.

▪ مع ذلك كوَّن الفالنتينيون أيضاً جماعاتٍ دراسية اشتغلتْ الى جانب جماعات مسيحيّة أُخَر. وتبدو هذه الجماعات المسيحيّة أنّها الشكلُ الأكثر شيوعاً للنزْعَة الفالنتينيَّة في القَرْن الثاني الميلادي، وُربما في القرن الثالث كذلك.

▪ في العام ٣٠٠م، أصبح للفالنتينيّين كنائسُ منفصلة على نحو تامٍ. وفي جانب معيَّن، يُحتَمل أنَّه قد صار منْ الصعبِ على الفالنتينيّين أنْ يشاركوا في الكنائس المسيحيَّة الأُخَر التي رفضتْ لاهوتَهم.

▪ ومهما كانتْ الصيغةُ الاجتماعية التي اتَّخذها الفالنتينيُّون، فإنَّهم قدْ دعَوْا المسيحيّين مِنْ غيرِهم الى التعرُّف على تعاليميهم. والحقُّ، لقد شجَّعَ فالنتينوسُ أتباعَهُ على إيصال رسالته عنْ معرفة الله الى الآخرين: «أريحوا المُتعَبين، وأيقظوا أولئكَ الراغبينَ في النهوض. ذلكَ لأنَّكم أنتُمْ العَقْلُ وقدْ أُخرجَ منْ غِمْدِه». (إنجيل الحقيقة).

الصيغُ المتأخرةُ لأسطورةِ فالنتينوس:

• كما رأينا في المحاضرة الأخيرة، نقَّح فالنتينوس الأسطورةَ الغنوصيّة ليجعلَها مسيحيَّةً على نحوٍ أكثرَ وضوحاً وأقل عداءً لليهوديَّة. واستمرَّ تلامذةُ فالنتينوس في تنقيحِ وتوسيعِ الأسطورة.

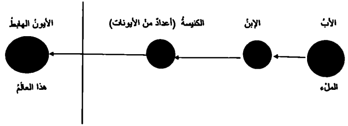
• لدينا روايتانِ كاملتانِ رئيستانِ لأسطورة فالنتينوس. الأولى هي تلخيصُ أيريانوّوس للأسطورة التي علمَّها ودعا اليها بطليموس. الروايةُ الثانيةُ هي نصٌّ طويل مِنْ مخطوطات نجْع حمّادي التي يدعوها العلماءُ الرسالةَ الثُلاثيَّة. هذا العمل الغُفْل

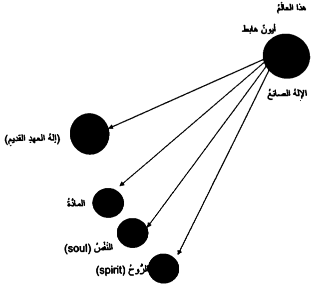
مِنْ اسم المؤلّف يُحتَمَل أنّه يرجع في تاريخه الى أواسط القرن الثالث الميلادي، حوالَيْ ٧٠ عاماً بعْدَ ايريانئوس. وبوجود هذا الفرقِ الزمنيّ، لا يدهشنا أنّهُ مختلفٌ عن أسطورة بطليموس بقدْرٍ مهمّ.

• وعلى غرار الغنوصيين وفالنتينوس، اعتقد الفالنتينيون أنَّ كلَّ شيء قد جاء من موجود إلهيّ نهائيّ فرْدٍ، وقد أسموا هذا الموجود باسم العميقِ والأبِ (أنظر الشكل ٢). هذا الإلهُ لا يُعرَفُ كنهُهُ، ولا يُوصَفُ في هيأةٍ، وهو خارجٌ عنْ مفاهيمنا للإلوهيّة والتفكير. مع ذلك يرغب الأبُ في أن يُعرَف، وهو يفكِّر وتفكيرُه يوَلِّد سلسلةً مِنْ الأيوناتِ.

▪ في الرسالةِ الثلاثية، أيوناتُ الملء (البليروما) هي بدونِ أرقامٍ، ولا تُسمَّى على نحوٍ فرديّ. في مرْكز (الملء) الأبُ والإبنُ؛ بعدَ ذلك، أعدادٌ منْ الأيوناتِ تكوِّنُ ما يدعوه المؤلِّف الكنيسةَ.

الشكل (٢) منظر اللّه في الرسالة الثلاثية:





الرُّوحُ (spirit)

▪ في أسطورة بطليموس، ثمَّةَ، على وَجْهِ الدقَّةِ، ثلاثونَ أيوناً مرتَّبةً في مجموعاتٍ مِنْ ثمانٍ وعَشْرٍ واثني عشر أيوناً، وكلُّها لها أسماءٌ مِنْ قبيلِ، الحقيقةِ، والكلمةِ، والسكونِ، والأملِ، والأيون الأخير هو الحِكْمة.

▪ توجد هذه الأيونات في أزواج من الذَكَر والأنثى، تماماً كما رأينا في الأسطورة الغنوصيَّة. اللاهوتُ الفالنتينيُّ يقدِّر الانسجامَ والاستقرارَ تقديراً كثيراً، وأزواجُ الأيونات الذَكَريَّة والأنثويَّة تحقِّقُ هذين الأمرَيْن. وقَرْنُ الزوجين الذكَريِّ والأنثويِّ، كذلك، يوضحُ كيفَ يتحرَّكُ اللهُ منْ الوحدة الى التعدُّديَّة. الذكَرُ والأنثى مختلفان، مع ذلك، هما أيضاً إنسانيَّةٌ واحدةٌ يكمِّل أحدُهما الآخَرَ.

▪ وفقاً لإيريانؤوس صرَّح بعضُ أتباع فالنتينوس بأنَّ الأبَ النهائيَّ أيضاً له قرينةٌ اسمُها الصمتُ (silence). والاسمُ المؤنَّث للصمت منْ شأنهِ أنْ يُعبِّر عنْ عدم إمكانية وصف المبدأ النهائيّ، في حينِ إنَّ الاسمَيْن المذكَّرَيْن، الأبَ والعميقَ، يعبّرانِ عنْ قوّته التوليديَّة. مع ذلك، يخبرنا أيريانؤوسُ أنَّ أتباعاً آخرين لفالنتينوس يروْن أنَّ الأبَ يوجد خارجَ مقولاتِ الذكَر والأنثى.

• وكما في الأسطورة الغنوصيَّة تماماً، يحدثُ خلْقُ العالم عندما يسبّبُ أحدُ الأيونات اضطراباً في انسجام واستقرار العالم عبْرَ محاولته معرفةَ الأبِ بذاته. يتحركُ هذا الأيونُ بوقاحة نحوَ الأب مُحدِثاً اضطراباً في سكون ونظام الأيونات. في صيغة بطليموس للأسطورة، هذا الأيون، هو طبعاً الحِكْمة. في الرسالة الثلاثيَّة، لا يُسمَّى الأيون: إنَّهُ يُدعى ببساطة (الأيون الأصغر سنّاً) أو (لوجوس-logos).

• في الأسطورةِ الفالنتينيَّة، يصبح هذا الأيونُ المصدرَ الأساسي للكون الذي نعيش فيه. وطبْعاً، رغبةُ الأيون في معرفة الأب على نحوٍ مباشر هي رغبة ضالّةٌ لأنَّها

تخلُّ باستقرار الملء. وهكذا يُزال الأيون مؤقتاً من الملء. بعد ذلك ينبعث منه ثلاثُ جواهر هي لَبِناتُ بناء الكونِ الذي نعيش فيه. هذه الجواهرُ الثلاثُ هي المادَّة، أو القذارة (من اليونانية- هيولى hule، أو chous) النَفْس (psuche) والروح (pneuma).

▪ المادَّةُ هي المكوِّن الطبيعيُّ الذي نجده في كلِّ شيء من الصخور الى الكواكب والحيوانات؛ وهي تكوّن لحمَنا نحنُ البشر. وأصولُ المادَّة تكونُ في أيون الجهلِ الهابط، والحزنِ، والخوفِ.

▪ يتوب الأيونُ الهابطُ منْ رغبته في معرفة الأبِ ويطلب الغفران. تُنتج هذه التوبةُ النَفْس. والنفسُ (soul)، هي ماديَّةٌ طبيعيَّة بدرجة ما، وبدرجةٍ ما هي روحيَّةٌ فتجعل الأشياء تعيش وتتنفس. إنَّ النَفْسَ عنصرٌ يتوسط بَيْنَ المادَّةِ والرُّوحِ.

▪ عندما قبل الأبُ والأيونات الأُخَر توبةَ الأيون الهابط، أُعيد الى منزلته السماويّة. ولأنَّهُ سماويٌّ، ينتج تفكيرُه رُوحاً. وهذهِ هي العنصر اللاماديّ تقريباً الذي يمكِّن البشرَ وكائناتٍ روحيَّةً أُخَرَ منْ فهم الحقائق العليا، ومنْ الممكن أنْ يحصل على المعرفة بالله (الغنوص). يمكن للرُّوح أنْ تكون موجودة في البَشَر وليس في النبات أو الحيوان.

العناصرُ الثلاثةُ:

• في عالَمِنا، المادَّةُ، والنَفْسُ، والرُّوحُ توجَدُ في كائناتٍ وأشياء متنوعة وبِنِسَبٍ مختلفة. وهي تكوّنُ الكائناتِ الفرديَّة وبضمنهم الملائكةُ والبشَرُ، على نحوٍ أكثرَ أو أقَلَّ رُوحانيّةً (وأقرب الى الملء). أو على نحوٍ أكثرَ، أو أقلَّ ماديّةً (وأقرب الى الحيوانات والكائنات الدنيا الأُخَر).

• في نهاية الزمان، ستُفصَل العناصرُ الثلاثُ وتوضع في عوالمِها أو ظروفها الملائمة. سيعود الغنصرُ الرُّوحيُّ الى الملء وسيفنى العنصر الماديّ لأنَّه ليسَ له أساسٌ حقيقيٌّ في الوجود الحقّ؛ إنَّه يأتي منْ الجهل والخوف والعواطف الأُخَر التي ستندثر. سيتخذ عنصر النفْس له مكاناً أدنى منْ مكان الملء - يُدعى هذا المكان

أحياناً (المنطقة الوسطى) لكنَّ هذا العنصرَ لنْ يندثرَ.

• لدى الفانتينيّين، كما إنَّ العناصر الثلاثة منْ المادَّة، والنفْس، والرُّوح، هي لَبِناتُ بناءِ الكوْن فهي كذلك موجودةٌ بمقاديرَ ونِسَبٍ مختلفة في الكائنات البشريَّة. والحقيقةُ هي أنَّه يمكن للبشر أن يُقَسموا الى أصناف ثلاثة على أساس العنصر السائدِ فيهم.

▪ العنصرُ الأعلى، الرُّوحُ، يسودُ في النَّاس الرُّوحانيّين. وهؤلاء همْ الفالنتينيّون أنفسُهم، الذين يمتلكون المعرفة بالله (الغنوص) وبنفوسِهم. والواضح أنَّ هؤلاءِ النَّاس سيحظَوْن بالخلاص ويدخلون الملء. العنصرُ الأدنى، المادَّةُ، تسودُ في النَّاس الماديّينَ وهؤلاء ليسوا مسيحيّين ويشتملون على الوثنيّينَ واليهودَ وكلِّ مَنْ لا يؤمن بيسوع. وعلى غرارِ العنصر الماديّ الذي اليه يتَّجهون، سيفنى هؤلاءِ النَّاسُ في نهاية العالَم.

▪ العنصرُ الأوسط، النفْسُ، تسودُ في النَّاس الأحياءِ. وهؤلاءِ همْ المسيحيُّون منْ غير الفالنتينيّين الذي لحدِّ الآن لمْ يحوزوا المعرفةَ الكاملة التي جاء بها يسوع. هؤلاء المسيحيُّون لمْ يصلوا الكمالَ لكنَّهم اتخذوا قرارَهم المتعلِّق بعبادة المسيحِ وتجنُّبِ الوثنيةِ والخلود. ولا تتفقُ المصادرُ حولَ المصير الذي ينتظر الناسَ الاحياء.

▪ الناسُ الأحياء وعنصرُ النفس مخيَّرانِ بين أمرَيْن إمّا العودةُ الى الله والعيش في حياة صالحة مستقيمة والحصول على الخلاص، أو، الابتعادُ عن الله والعيش في حياة آثمة مليئة بالخطايا والهلاك مع الناس الماديّين وِفْقاً لإيريانؤوس. الفالنتينيّون قالوا بأنَّ الناسَ الأحياءَ الأنقياء سيقضون الأبديَّةَ معَ الإلهِ الأدنى الصانعِ في (المنطقة الوسطى). وترى مصادرُ أُخَر أنَّ بعضَ الفالنتينيّين اعتقدَ أنَّ الناسَ الأحياءَ سيشاركون على نحوٍ تامٍّ في الخلاص ضِمْن الملء.

• ما يحدِّد كونَ النَّاسِ رُوحانيّين أو أحياءً، أو ماديّينَ؟ هنا أيضاً تختلف مصادرُنا.

▪ وفْقاً لإيريانؤوس، قال الفالنتينيُّون بأنَّ الأصنافَ الثلاثة هم ثلاثة أنواعٍ مختلفة منْ البَشَر، نزلوا أو جاءوا منْ الأبناء الثلاثة لآدمَ وحواء. قابيلُ هو أبو النَّاس الماديّين، وهابيلُ هو أبو النَّاس الأحياءِ، وشِيثٌ هو أبو النَّاس الرُّوحانيِّين، وأنَّ النَّاسَ بكلِّ بساطة يولَدون على هذهِ الأصنافِ الثلاثة.

▪ وكما يعرضها ايريانؤوسُ، سيحصل النَّاسُ الرُّوحانيُّون على الخلاص على نحوٍ مطلَقٍ، وسيُدمَّر النَّاسُ الماديُّون مطلقاً. الناسُ الوحيدون الذي لهم حُريَّة الإرادة همْ النَّاسُ الأحياءُ. ولهؤلاءِ إمّا أنْ يعيشوا في صلاحٍ واستقامة كمسيحيّين ويحصلون على خلاصٍ محدودٍ، أو، أنْ يعيشوا حياةً آثمةً فيُلعَنونَ ويُدانون. مَرَّةً أخرى، وفقاً لإيريانؤوس، الفالنتينيّون أنفسُهم ما كان لديهم أيّ سببٍ لأَنْ يهتموا بالسلوك الأخلاقيِّ، ما كانوا ليحتاجوا الى حياة مستقيمة لأنَّهم سيحظَوْن بالخلاص وفقاً لطبيعتهم.

▪ مع ذلك، وفقاً لأغلب العلماء المحدَثين منْ المحتمل أنَّ الفالنتينيّين اعتقدوا بأنَّ كلَّ شخص يتكوَّن منْ جميعِ هذهِ العناصرِ الثلاثةِ. وكلُّ شخصٍ يختارُ إنْ كانَ سيعيشُ حياةَ صلاحٍ أو حياةً آثمة، كلُّ شخص هو مَنْ يختار إنْ كانَ سيتَّبعُ المسيح، أو يقبل تعاليمَ فالنتينوس، والى آخرِ ذلك. ومعَ الوقتِ تُحدِّدُ هذه الاختياراتُ العنصرَ الذي يسود، وهكذا يتحدَّدُ كونَ الشخصِ رُوحانياً، أمْ حيّاً، أمْ مادياً.

● وَجَد بعض العلماءُ مشكلةً فكريّة أعمقَ في هذا الخطِّ منْ الفكر الفالنتينيِّ. اعتقد الفالنتينيُّون أنَّه عندما يصل هذا الكون نهايتَهَ، فإنَّ هذهِ العناصرَ الثلاثة ستنفصل ولكلٍّ منها نهايتُه المناسبة - فنهايةُ العنصر الرُّوحانيِّ الى الملء، ونهاية العنصر الماديّ الى الفناء، ونهايةُ النَّفْسِ الى مكان ما بينَ الإثنين. إذاً، بهذا المعنى تكون مصائرُ هذهِ العناصر الثلاثة محدَّدةً مُسبَقاً.

▪ أيضاً، البشرُ مُكوَّنونَ منْ هذهِ العناصر الثلاثة، وعلى هذا، يجبُ أنْ يكونَ لهم بطريقةٍ ما نفْسُ المصائر المحدَّدة الثابتة. وعندما يضع الفالنتينيّون البشرَ في أصنافٍ ثلاثة تتطابقُ معَ العناصرِ الثلاثة، فيبدو أنَّهم يقولون بأنَّ لِلبَشر نَفْسُ المصائرِ

المحدَّدة مسبقاً.

▪ مع ذلك، حاولَ الفالنتينيّون بوضوح أنْ يقنعوا المسيحيّين الآخرين - الناسَ الأحياء - أنْ يصيروا فالنتينيّين. يبدو، على نحوٍ ما، أنَّ البشَرَ يمكنُهم توجيهُ نفوسِهم نحوَ واحدٍ منْ هذهِ العناصر، أو أنَّ بإمكانِهم أنْ يجعلوا واحداً منْ هذهِ العناصر سائداً في داخلهم فيمكِّنُهم منْ المشاركة في القَدَرِ الخاصِّ.

-١٣-

صيرورةُ الفردِ ذَكَراً عَبْرَ الطَقْسِ الفالنتينيّ

صيرورةُ الفردِ ذَكَراً عَبْرَ الطقسِ الفالنتينيّ

يبدو أنَّ الفالنتينّيينَ كانَ لديهم حياةٌ عِباديّةٌ غنيّةٌ حافلةٌ بطقوس منْ قبيلِ التعميد والاحتفال بالقربان المقدَّس. ربما يكون هذا الأمر مثيراً للدهشة الى جانبِ اعتبارهم للمادَّةَ أدنى العناصر الثلاثة التي تصنع الكونَ. على خلاف الرُّوحِ والنَّفْسِ، أصلُ المادَّة في الجهلِ والخوفِ، وهي فانيةٌ هالكةٌ في نهاية الزمان. إذاً، كيفَ يمكن لأشياءٍ ماديّةٍ كالماء والخبز أنْ ينقلا الخلاص؟ في اعتقاد الفانتينيّين، في هذا الكونِ، منَ المستحيل أنْ تأتينا الحقيقةُ بدونِ هذه الرموزِ الماديّة. في هذه المحاضرة سنستطلع مصدرَيْن: مقتطفاتٍ من ثيودوتس، والإنجيلَ المنسوبَ الى فيليب.

القُربانُ المقدَّس:

• في موعظة إنجيل الحقيقة، قال فالنتينوس بأنَّ القربانَ المقدَّس وسيلةٌ للحصول على الغنوص (المعرفة بالله). يقول فالنتينوس بأنَّ المسيح على الصليب أصبح فاكهةَ الأب وبأكلِهم تلكَ الفاكهةَ، يصلُ المسيحيّون الى معرفة الأبِ داخلَهم.

• العديدُ منَ المقتطفات في الإنجيل المنسوب الى فيليب[1] تتأمَّل رمزيَّةَ الخبزِ والنبيذ في القربان المقدَّس. على سبيل المثال، يمثِّلُ الخبزُ التغذيةَ الرُّوحيَّة التي

(1) إنجيل فيليب: إنجيل غنوصي من الأبوكريفا، يعود للقرن الثالث، وبعد ضياعه اكتشف في مخطوطات نجع حمادي عام ١٩٤٥. لا يرتبط النص بالأناجيل القانونية، ولا تقبله الكنيسة المسيحية. على الرغم من أنه قد يبدو مشابهًا لإنجيل توما، إلا أن العلماء منقسمون حول ما إذا كان خطابًا واحدًا أو مجموعة من أقوال فالنتين، ولاسيما سر الزواج، وهي موضوع رئيسي. كما هو الحال في النصوص الغنوصية الأخرى، فإن إنجيل توما وإنجيل مريم، وإنجيل فيليب تدافع عن التقليد الذي يمنح مريم المجدلية نظرة ثاقبة خاصة لتعاليم يسوع، ولكنه لا يدعم ابتداعات «القرن الحادي والعشرين بخصوص مريم المجدلية مثل زوجة يسوع وأم ذريته». (المراجع).

تحصل عليها البشريَّة حتّى جاء المسيحُ وجلب لهم (خبزَةً منَ السماءِ). الخبزُ، أيضاً يُذكِّر المسيحيين بصلْبِ المسيح عندما مدَّ جسدَه على الصليب، تماماً كما يُكسَر الخبز ويوزَّع على الآخرين. وتماماً، كما إنَّ الخبزَ يُصَيَّرُ مقدَّساً في القربان المقدَّس، كذلك، يصبح جسَدَ المسيحيِّ مُقدَّساً.

• والحقُّ، كما نلحظُ في إنجيل فيليب، يمثِّل خبزُ القربان بَعْثَ المسيحيِّينَ، بلْ يكون سبباً لهذا البعث.

▪ ينتقدُ مؤلِّفُ الإنجيل رأيَيْنِ مخالفَيْنِ حولَ مسألة ما إذا كانَ الناسُ في البعث سيكون لهم (لحم). منْ جانبٍ، يعتقدُ بعض المسيحيّين أنَّهُ عندما يحلُّ البعثُ، سيكون للناس أجسادٌ مصنوعة منَ اللحم نفسِهِ الذي يكوّن أجسادَنا الآنَ. يرفضُ المؤلِّف الفالنتينيُّ تلكَ الفكرةَ لأنَّنا يجبُ أنْ ننزعَ نفوسَنا منْ هذا العالَمِ الذي هو ليسَ موطننا الحقيقي. منْ جانبٍ آخر، يقول مسيحيّون آخرون بأنَّه لا معنى لنهوض اللحم منْ الموت. أيضاً، يرفض المؤلِّف هذا الرأي.

▪ بدلاً مِنْ ذلك، يرى المؤلِّف أنَّ ما ينهض هو لحمُ يسوع. لحمُ يسوع هو خبزُ القُربان المقدَّس وبه تأتي الينا كلمة ُالله. وبمشاركة المسيحيّين في الخبز، همْ يشاركون في الكَلِمَة؛ همْ يرتبطونَ بالكلمة، وبهذا، يعيشون البعْثَ حاضراً، وليس في بعْثٍ للموتى في المستقبل.

التعميدُ الفالنتيني:

• إنَّ التعميدَ يكرّس شخصاً للدخول في المسيحيَّة ويبدأ العلاقةَ معَ المسيح وهي علاقةٌ تؤدي الى المعرفة بالله والى البعْث. في الجزء الأغلب، يبدو التعميدُ المسيحيُّ الفالنتينيُّ شبيهاً بتعميداتِ الجماعات المسيحيَّة الأُخَر في القرْنَيْن الثاني والثالث.

▪ أوّلاً، ثمّةَ مدَّة للتعليم والتدريب (الكلمة اليونانية: catechesis) للمرشَّح المُهتَّم.

إنْ أثبتَ المرشَّحُ أهليتَهُ، كان يَلِي ذلك مدَّةُ إعداد مكثف تتألف منْ (الصيام والأدعية، والصلوات والتضرُّع والركوع). ركّزتْ هذه الأفعالُ التدريبيَّةُ الجسديَّة عقلَ المرشح في بؤرة، ورمَّزَتْ انسحابَهُ منْ الممارساتِ الآثمةِ في هذا العالم. كذلك، كانتْ هذهِ الأفعالُ مصمَّمةً لطرد الأرواح الشرّيرة.

▪ عندما يحين وقتُ التعميد، تُخلَع ثياب المُرشَّح (للتعميد). وقَدْ رَمَزَ هذا الى التحرُّر منْ الجَسَد والى هجْر الحياة السابقة للفرْد. كذلك، يكونُ الشخصُ قدْ تخلَّى عنْ الحُكّام الأشرار لهذا العالم. بعد ذلك كانَ المرشَّحون يُغمَسون في الماء ويُنطَق باسم الأب، والابن، والرُّوح القُدُس عليهم. وقدْ عُدَّ هذا الاسمُ الاسمَ الوحيدَ للربِّ، وكان يُدعى (المختوم- sealed).

▪ بعدَ الرَمْس في الماء، ثمَّةَ مسْحٌ بالزيت بوساطتهِ يصبح المرشَّحُ (المعمَّد) مسيحياً. بعد ذلك يرتدي المرشَّحون ملابسَهم، ومرَّةً أخرى تُمَدُّ الأيدي عليهم في صلواتٍ. بعدَها، كانَ المسيحيّون الجُدُدُ يتناولون القربانَ المقدَّس للمرَّةِ الأولى.

• بالنسبة للفانتينيّين، كان التعميدُ ينجِزُ في الأقلّ ثلاثةَ أهدافٍ: إزالةَ الأرواح غيْرِ النظيفة، والتحرُّرَ منْ الحُكّام الأشرار لهذا العالم، وختْمَ المرشَّح باسم الله.

▪ في الآخِر، اسمُ الله الحقيقيُّ هو المسيح. قال فالنتينوس في إنجيل الحقيقة «الإبنُ هو اسمُ الأبِ». ويعني هذا أنَّ الانسان يعرف الأبَ منْ خلالِ الابن، وأنَّ الابنَ يكشف عنْ هُويَّةِ الأبِ كما يُعرِّف الاسمُ المُسَمى.

▪ على خلاف الأسماءِ البشريَّة الاعتيادية، التي هي عشوائيَّةٌ منْ الناحية الأساسيَّة، اسمُ الله يعود على نحوٍ متفرِّد اليهِ، ويكشفُ على نحوٍ حقيقيّ عنْ ماهيَّتهِ. في التعميد يُعلَّم (بعلامة) أو يُختَم بهذا الاسم.

الذكرُ والأنثى في التعميدِ:

• كذلك، تحدَّثَ فالنتينوس حولَ التعميد بِلُغَةِ الذكَر والأنثى. على سبيل المثال،

تأمَّلْ هذا المقطع منْ مقتطفاتٍ من ثيودوتس:

• «يقولون، ما دامتْ البذرةُ لا تزالُ بلا شَكْلٍ فإنَّها طفلُ الأنثى، لكنْ، حينَ يكونُ لها شَكْلٌ فإنَّها تتحوَّلُ الى ذكَرٍ، وتصبحُ ابنَ العريس. ولا تعُودُ ضعيفةً وعرضةً لتأثيرِ القوى الكونيَّةِ سواءٌ أكانتْ مرئيَّةً أمْ غيرَ مرئيَّةٍ؛ بلْ، بعدَ أنْ خُلِقتْ ذكَراً تصبح ثمرةً ذكريَّةً».

• وهذا يجبُ أنْ يذكِّرنا بالإنجيل المنسوبِ الى توماس الذي ناقش الخلاصَ منْ جهة كونهِ تكاملاً. الفصلُ بينَ الذكَر والأنثى كانَ واحداً منْ الانقسامات التي أزالها الخلاصُ والتعميدُ. لكنْ، مَرَّةً أخرى، لا يعني هذا توحيداً لذكَر وأنثى متساويَيْن. بل قُصِدَ به إرجاعُ الأنثى الى الذكر الذي هو أكثر أساسيّةً منْ الأنثى.

• الى جانب ذلك، لِنتذكرْ أنَّ اقترانَ الأيوناتِ الذكَريَّة والأنثويَّة في الأسطورة الفالنتينيَّة يقدِّم انسجاماً واستقراراً في الملء. إذاً، يكون منطقياً أنَّ الفصْلَ بينَ الذَكَر والأنثى سيكون سَلبيّاً في الفكْر الفالنتينيّ، وهذه هي الحال على وَجْهِ الدقَّة. عرَّفَ المفكرونَ الفالنتينيُّون فصلَ حواءَ عنْ آدمَ بأنَّهُ بدايةُ الموت. وقالوا بأنَّ المسيح قدْ جاء لِيعالجَ هذا الانقسامَ.

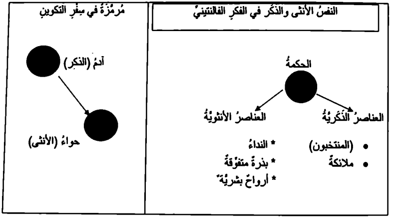
▪ لَوْ لمْ تنفصلْ الأنثى عنْ الذكَر ما كانتْ لتموتَ هي والذكَرُ. ذلك الفصلُ للكائن صارَ مصدرَ الموت. وقد جاء المسيحُ لِيقوِّمَ الفصْلَ الذي كان قائماً مُنذُ البداية، ويجمعَ الاثنَيْن الذَكَرَ والأنثى، وليمنحَ الحياة لأولئك الذين كانوا قدْ ماتوا بعملية الفصْل ويربطهم معاً. (الإنجيل المنسوب الى فيليب).

• هل يعني هذا أنَّ كلَّ واحدٍ منّا لهُ نصفٌ مفقودٌ منْ الجنسِ الآخر الذي يحتاج الى الاتحاد معه؟ الجواب: نعم، لكنْ، هناك المزيد. ليستْ القضيَّةُ أنَّ كلَّ واحدٍ منا يجب أنْ يُعيد التوحد معَ شريكه منْ الجنس (gender) الآخر، وذلك لكونِ هويَّتِنا كرجالٍ ونساء ترجعُ الى أجسادنا التي هي ليستْ نفوسنا الحقيقيّة. نفوسُنا الحقيقيّة هي نفوسُنا الرُّوحانيَّة، أجزاؤُنا التي جاءتْ منْ الأعلى - وكلُّ نفوسنا الرُّوحانيّة هيَ إناثٌ.

• يخبرنا سِفْرُ التكوين (١: ٢٧) «خلقَهم على صورةِ اللهِ؛ وجعلَهم ذكوراً وإناثاً». بالنسبة للفالنتيين، لا يشير هذا الى خلق كائنَيْن بشريَيْن، ذكرٍ وأنثى، بلْ، الى نفسَيْنِ مخلوقتَيْنِ، نَفْسَيْنِ ملائكيتَيْنِ، ونَفْسَيْنِ بشريتَيْنِ الذين هما ذكَرٌ وأنثى على التناظر (الشكل ٣). نحنُ البشرُ جميعاً عناصرُ أنثوية ونحنُ نوجَدُ في نوعٍ من التغريب (alienation) عنْ نفوسِنا الذكَريَّةِ العليا، الملائكةِ. نحنُ مِثْلُ أزواجِ الأيونُ الذكَر-الأنثى السماويَّة، لكنَّنا جميعاً أيوناتٌ أنثويَّةٌ فُصِلنا عنْ أزواجنا الذُكُور.

• انفصالُ حواءَ عنْ آدمَ يمثِّل ذلكَ التغريبَ في مستوى الاختلافِ البَشَريِّ.

الشكل (٣): النفسُ الأنثويَّةُ والذكَريَّةُ في الفكرِ الفالنتينيِّ



▪ أشار آدمُ الأصليُّ، وهو مخلوقٌ في سِفْر التكوين (١)، الى الاتحادِ الأصليّ للملائكة الذُكُورِ معَ البذرةِ الأنثويَّة المتفوِّقة، وفصلُ حواءَ عنْ آدمَ، في سِفْر التكوين (٢)، أظهرَ فصلَ العنصر الأنثويِّ عنْ الذكَريِّ.

▪ يوضحُ كلامُ سِفْر التكوين أنَّ العنصرَ الأنثويَّ مشتقٌّ منْ العنصرِ الذكَريِّ. نفوسُنا الأنثويَّةُ التي نحوزها الآنَ هي الجوانبُ الأدنى والمشتقَّةُ منْ نفوسنا الذكَريَّةِ

الملائكيّة الحقيقيّة.

▪ إذاً، ليس الخلاصُ، ببساطة، إعادةَ توحيد الذكَر معَ الأنثى أو قَرْن نفوسِنا الملائكيّة معَ الرُّوحانيّة. بلْ، هو عودةُ العنصرِ الأنثويّ المُشتَقِّ الى العنصر الذَكَري الأعلى.

▪ فهمَ الفالنتينيُّون هذهِ العمليةَ المتَضمِّنة لِكونِ الإنسانِ قدْ خُلِقَ ذَكَراً، ولِمسألةِ عودة توحيدِهِ معَ نفسِهِ الملائكيَّةِ الحقيقيَّةِ، فهموها، باعتبارها تبدأ في التعميد، ثُمَّ تتمُّ على نحوِ التَدَرُّجِ عَبْرَ طقوسِ الكنيسة وممارساتِها.

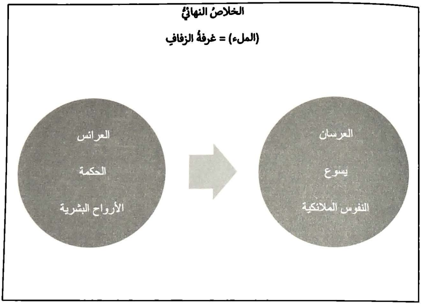
غرفةُ الزفافِ والزواجِ:

• تَذكرُ العديدُ منَ المصادر طقْساً أو رَمْزاً لإعادةِ توحيدِ الشخص معَ نفسهِ الملائكيّةِ الحقيقيّة، ويُدعى هذا الطقسُ بغرفة الزفاف. يعتقدُ أكثرُ المُؤرخينَ المُحدَثينَ أنَّ هذا المصطلحَ يُحتَمل أنّه قدْ كانَ أسلوباً رَمْزيّاً للحديث عنْ الوحدة بينَ نفوسِنا الذكَريَّةِ والأنثويَّةِ التي تحدثُ منْ خلالِ التعميدِ، والقربانِ المقدَّس، وطقوسِ أُخَرتكتملُ بعدَ الموت.

• لنْ يكتمل الخلاصُ حتَّى نهايةِ هذا العالَم، عندما تتَّحدُ عناصرُنا الرُّوحيَّة، نفوسُنا الأنثويّة، على نحوٍ مطلقٍ معَ أزواجِنا الملائكيَّةِ وتلتحق بأيوناتِ الملء في هيأةِ أزواجٍ منْ الذكورِ والإناثِ الأبديَّةِ. سيكون الخلاصُ النهائيُّ اتِّحاداً للنفوسِ الذَكَريّة الملائكيّةِ معَ النفوسِ الأنثويَّةِ البشَريَّةِ (الشكل ٤).

• إنْ كانَ انقسامُ آدمَ وحواءَ يمثِّلُ في المستوى الدُنيويّ الانقسامَ بينَ العناصرِ الذكَريَّةِ الملائكيَّةِ وبينَ العناصرِ الأنثويَّةِ الرُّوحيَّةِ، إذاً، يقدِّم الزواجُ الاعتياديُّ صورةً أو تمثيلاً لهذا الإنجازِ النِهائيّ. الزواجِ سرٌّ، بمعنى أنَّه شيءٌ رَمْزيٌّ - يقدِّم صورةً ليستْ، ببساطة، لخلاصنا الأخير، بلْ، للمَبْدأ المنظِّم (بكسر الظاء المشدَّدة) الكامنِ لهذا الكونِ على أساس الذكَرِ والأنثى.

الشكل (٤) غرفةُ الزفافِ النهائيِّ (الخلاصُ النهائيُّ)



• كانَ الطقسُ الذي انفرد به الفالنتينيون هو ما يُسمى بـ(الافتداء، أو الفِدْية)، وفي اليونانية أسمه (apolutrosis)، وهو طقس لمَنْ يُحتَضَر.

• وِفْقاً لأيريـانؤوس، في هذا الطقْسِ، كانَ الشخصُ المُحتضَر يُمسَح بمزيج منْ الزيت والماء. وهـذان العنصرانِ، الزيتُ والماءُ، كانَ منْ شأنهما تذكيرُ الشخص بتعميدهِ عندما كانَ المسيحي يُغَطَّس في الماء ويُمسَح بالزيت. وهكذا، كان واحدٌ منْ معاني هذا الطقس إكمالَ عملية الخلاص التي كانتْ قدْ بدأتْ في التعميد.

• لكنَّ الطقْسَ على نحوٍ رئيسٍ كان يُهيِيء الشخصَ لِما كانَ سيحدث بعدَ الموت. لِنتذكرْ أنّه وِفْقاً للفكر الفالنتينيِّ، البشرُ مخلوقون منْ الرُّوحِ، والنَّفْسِ، والمادَّةِ، وكلُّ عنصرٍ منْ هذه العناصر يجب أنْ يكون في مكانهِ المناسبِ. طقسُ الافتداء يجعلُ الشخصَ مُهيَّأً لِهجْر الجسدِ الماديِّ وتركِهِ هنا على الأرض. وبعد أنْ

تكون النَفْسُ والرُّوحُ قدْ تحررتا منْ الجَسد الماديّ فإنَّهما سيعرجان الى أعلى.

• بعدَ ذلكَ، يمنحُ الطقْسُ الشخصَ المحتضَر كلماتٍ سريَّة ليقولها للحُكاّمِ الكونيّين ولِلهِ الخالق. بعدَ قولِهِ هذهِ الكلماتِ، يترك الشخصُ النفْسَ معَ الإلهِ الخالقِ ولا يعرج الى الملءإلا الرُّوحُ. وهناك،العنصرُ الرُّوحيُّ، النفْسُ الأنثويَّةُ الدنيا، تتّحدُ معَ نفسِها الذَكَريَّةِ الملائكيّةِ. وبعدها يكتمل الخلاصُ في غرفةِ الزفافِ السماويّةِ.

-١٤-

الآراءُ الفالنتينيةُ حولَ اللاهوتِ المسيحيِّ

الآراءُ الفالنتينيةُ حولَ اللاهوتِ المسيحيِ

سبَّبَ الفالنتينيُّونَ احباطاً لدى زعاماتٍ دينيَّة مسيحيَّة منْ قبيلِ أيريانؤوس. وسببُ ذلك أنَّهُ كانَ من الصعب القولُ بأنَّهم كانوا في الحقيقة مسيحيِّين كاذبين. اعتنق الفالنتينيُّونُ المبادىءَ ذاتَها التي اعتنقها المسيحيّون، لكنْ، كانَ لديهم تفسيراتٌ مختلفةٌ لهذهِ المبادىء. يعرضُ إيريانؤوس هذهِ المشكلة كتفسيرٍ مغلوطٍ جاءَ بهِ الفالنتينيّون، في حين اتَّفقَ كلُّ المسيحيين الأصليِّين حولَ الحقيقة. لكنَّ حقيقةَ الأمر هي أنَّه خلالَ العصورِ الأولى منْ المسيحيَّة، كانَ المسيحيُّون ما زالوا يحاولون تطويرَ العديد من تعاليمهم. في العصورِ القديمةِ، اشتركَ الفالنتينيّون في نقاشاتٍ حيويّةٍ حولَ جوانبَ متنوعة منْ اللاهوت المسيحيِ. ومنْ أجل فَهْم وتقييم تعاليم الفالنتينيّين يجبُ وضعهم في سياقِ المعتقداتِ المسيحيَّةِ لعصرِهم.

الآراءُ المسيحيةُ المتعلقةُ بالبعثِ:

• بدأتْ المسيحيةُ حينَ اعتقد أتباعُ يسوع بأنَّه قَدْ نهضَ منْ بينِ الموتى بعدَ الصلْب. وقدْ خلصوا الى القول بأنَّ بعث يسوع كان (الثمرة الأولى) لبعثٍ أكثرَ عموميةً. لكنْ كيفَ ينهض النَّاسُ منْ بينِ الموتى؟ هل يكون لهم أجسادٌ، وإنْ كانَ الأمرُ على هذا النحو فأيَّ نوع من الأجساد ستكون؟ اتَّفق عموم المسيحيين على أنَّ بعثهم سيكون كبعثِ يسوع، لكنَّ هذا لم يحلّ المشكلةَ لأنَّ نهوض يسوع منْ بينِ الأموات لمْ يكن واضحَ الكيفيَّةِ.

• يُقدِّم لنا الرسولُ بولصُ وجهةَ نظرٍ حولَ البعث في رسالتهِ الى أهلِ كورنيث اليونانية (١). دحضَ بولصُ آراءَ المسيحيين الذين اعتقدوا بأنْ لا بعثَ للموتى، على الأقلِّ، بعثَ الأجساد. يُذكِّر بولصُ أهاليَ كورنيث بأنَّه هو وآخرين منْ المؤمنين قدْ رأوا

يسوعَ بعدَ موته: وهكذا، فهم يعلمون أنَّ يسوع قد بُعِث منْ الموتى. كما يقول بولص بأنَّ البعثَ هو أملٌ جوهريٌّ للمسيحيّين؛ بدونِ هذا الأملِ، الإيمانُ المسيحيُّ عقيمٌ.

• بعدَ ذلك، يلتفت بولصُ الى مشكلة نوعِ الأجسادِ التي ستكون للنّاسِ عندما ينهضون منْ الموت.

▪ يشيرُ، أوّلاً، الى وجود أنواعٍ مختلفة منْ الأجساد، مصنوعةٍ من أنواع مختلفة من المواد. فلحمُ الأسماكِ غيْرُ لحمِ البشر، وأجسامُ الموجوداتِ السماويَّةِ، كالشمس ليستْ أجسامَ الموجوداتِ الأرضيَّة ذاتِها.

▪ كذلك، يقول بأنَّ أجسادَنا في البعث لنْ تكون أجسادَنا الحاليَّة نفسَها. ترتبط أجسادُنا الحاليّة بالجسد المبعوث كما ترتبط البذرة معَ النبات. والبذرة ليستْ النباتَ لكنَّكَ عندما تنثر البذور على الأرض تتحول البذرة الى نبات. وبعد أن يعود الجسَد الحالي للنَفْس (soul) الى داخل الأرض عندَ الموت سيتحوَّل الى جسدِ روحٍ (spirit) عنْدَ البعث. ثَمَّةَ استمراريةٌ لكنْ ثَمَّة، أيضاً، تحوّلٌ رئيسيٌ.

▪ بولص متأكدٌ منْ أنَّ الجسدَ المبعوثَ لنْ يكونَ بلحمٍ شبيهٍ بلحمِ أجسادِنا الحاليَّة: «اللحمُ والدمُ لنْ يرثا مملكةَ الربِّ». (الكورنثيين. ١٥: ٥٠).

▪ مِنْ المُهِمّ ملاحظةُ أنّ بولص لا يذكر مطلقاً أنَّ قبرَ يسوع كانَ فارغاً، وهو أمرٌ يشير، الى حدٍّ ما، الى أنَّ لحمَ جسد يسوع قدْ بُعِث. استنتج أغلبُ المؤرخين أنَّ بولصَ لمْ يطّلع على أيِّ زعْم بخلوِّ قبرِ يسوع. بَلْ، أسسَّ بولص رأيَهُ حولَ ماهيّة جسَدِ يسوع المبعوثِ على ظهورِ يسوعَ لهُ ولغيرِهِ. في رأي بولصَ، لِيسوعَ جسدٌ رُوحانيٌّ. وليس منْ لحم؛ ونحنُ، أيضاً، سيكون لنا أجسادٌ روحانيّة عندَ البعث منْ الموت.

• إنْ كانتْ نظرةُ بولص للبعث رُوحانيّةً وتحويليّةً، فإنَّ الأناجيلَ تميل الى نظرة هي أكثر في جانب الجَسَد اللحميّ وفي جانب الاستقرار. في الأناجيل، القبرُ فارغٌ؛ والواضحُ أنَّ الجسَدَ اللحميَّ ليسوع قدْ أُعيد الى الحياة، وأنَّ جسدَهُ أقلُّ تحوُّلاً مما صوَّرَه بولصُ. يسوعُ يمشي ويتكلم ويأكل بعدَ موته.

رأيُ الفالنتينيين في البعثِ:

• كانتْ مسألةُ الجسَدِ المبعوثِ منْ الموت معقَّدة لدى الفالنتينيّين لأنَّهم اعتقدوا بأنَّ البشَرَ قد خُلِقوا من ثلاثة عناصر: المادَّةِ، والنفْسِ، والرُّوحِ. ولأنهم قدْ علموا أنَّ المادَّة تفنى في النهاية، لم يستطعْ الفالنتينيونِ اتّباعَ فكرةِ بعْثِ اللحم. لقد اعتقدوا أنَّ العنصرَ الوحيد الذي سيدخل الملء هو الرُّوح. اذاً، ماذا يعني أنْ يُبعَث هذا العنصر الرُّوحي؟

• يحاول معلِّمٌ فالنتينيٌّ الجوابَ على هذا السؤال في رسالة موجَّهة الى تلميذٍ اسمُه ريجينوس، وهذه الرسالة معروفة بإسم (مقالة حولَ البعث).

▪ يوضحُ المعلم أوّلاً أنَّ يسوع قدْ كشفَ الحقيقةَ للبشَر، وبيَّنَ العنصرَ الأكثر تفوُّقاً فينا، أي، رُوحَنا أو عقلَنا. بيَّنَ يسوعُ وجوبَ انصرافنا عنْ عالم اللحم القابلِ للفساد، وأنْ نسعى الى عالم الرُّوح الأبديِّ. وبهذا السلوك (ابتلعَ) المخلِّص الموتَ، وأرانا ما لا يُرى ومنحَنا طريقاً الى الخلود.

▪ وفقاً لهذا الرأي، ليستْ القضيَّةُ أنَّ يسوع كان له نوعٌ ما منْ الجسد. بلْ القضيَّةُ هي الانتقال منْ العالَم الماديِّ، عالمِ الفساد الى العالم الرُّوحيِّ عالمِ الحقيقة الذي كوَّنَ بعْثَ يسوع. والأمرُ ذاتُهُ ينطبق على بعثنا نحنُ البشَر.

• وواضحٌ أنَّ عودةَ أشعَّةِ الشمس، أو عودةَ أرواحنا الى الملْء هي عمليةٌ مستمرةٌ تجري الآن تماماً. لا يحتاجُ المسيحيّون الى انتظار بعْث مستقبليٍّ للأموات في آخر الزمان.

الآراءُ المسيحيةُ حولَ العهدِ القديم:

• المسألةُ الأخرى الرئيسة التي واجهها المسيحيّون الأوائل هي كيفيَّة التعامل معَ العهد القديم.

▪ عندما اتَّفق بولصُ وأوائـلُ المؤمنين على أنَّ المسيحيّين منْ غيْرِ الأسبقيَّةِ

اليهوديَّة لا يحتاجون الى الإيمان باليهوديَّة واتِّباعِ الشريعة الموسويَّة، فإنَّهم قدْ اعتقدوا أنَّهم كانوا يؤسِّسون على ما تحدَّث بهِ الكتابُ المقدَّس حولَ غيرِ المسيحيِّين، والمخلِّص، ويومِ الدين.

▪ لكنْ، في غضون القرن الثاني الميلادي كانَ أكثر المسيحيِّين هم مسيحيُّون منْ أسبقيةٍ دينيّةٍ يهوديَّةٍ في حين كان الأقلُّ منْ المسيحيين همْ الذين كان دينُهم السابق هو اليهوديَّة. لمْ يكنْ للمسيحيّين منْ غيرِ الأسبقيَّةِ اليهوديَّةِ أيُّ اطِّلاع على الكتابِ المقدَّس اليهوديِّ وبدأ البعضُ منهم يتساءل عنْ علاقة الكتاب اليهوديِّ وإلهِهِ بالعقيدةِ المسيحيَّة.

▪ كما رأينا في محاضرة سابقة، رأى المعلِّمُ المسيحيُّ (مارسيون) أنْ لا علاقةَ للكتاب المقدَّس اليهوديِّ بالمسيحيين ممَّن لمْ يسبقْ لهم التديُّن باليهوديَّة. وكان إلهُ العهد القديم إلهاً متطلباً بلا تسامح فيما يتعلق بالاستقامة والصلاح، إلهاً عاقب بشدَّةٍ البشَر بسببِ فشلهم في تلبية مطالبِ شريعته. وجاءَ يسوعُ كإبنٍ لإلهٍ أكثرَ غفراناً للذنوب وأكثر حُبّاً للبشَر. فقدْ دفع ثمنَ خطايانا تجاه إلهِ العهْد القديم وجاءَ برسالة الغفرانِ والنعمة. لذلك، قال مارسيون لمْ يَعُدْ المسيحيّون في حاجة الى الكتاب اليهوديّ ككتاب مقدَّس.

• لم ينبذْ الغنوصيّونَ الكتابَ المقدَّس اليهوديَّ، واعتقدوا أن الكتابَ اليهوديَّ، وعلى نحو خاص، سِفْرَ التكوين، مصدرَ معلومات حوْلَ أصول الكون والبشريّة وحوْلَ تاريخ الخلاص. لكنَّهم، أيضاً، اعتقدوا أنَّ الكتابَ اليهوديَّ يحتاج الى تصحيحاتٍ وتنقية منْ أخطاءٍ وَقَعَ فيها موسى.

• المسيحيُّونَ الآخرونَ، منْ قبيلِ إيريانوس، استمروا في الاعتقاد بأنَّ إلهَ العهد القديمِ كان أبا يسوعَ المسيحِ، وأنَّ الكتاب المقدَّس اليهوديَّ كان كلمةً موحاةً من الله. اللهُ نفسُه الذي أرسل يسوع هو مَنْ أعطى اليهودَ هذا الكتاب - والآن فهو أيضاً عائدٌ الى المسيحيِّين. قرأ هؤلاء المسيحيُّون الكتاب اليهوديَّ كقصَّةٍ تقود الى مجيء يسوع

وفسّروا مقاطع حول الشريعة على نحوٍ رَمزيٍ وليس على نحوٍ حرفيٍ.

الرأيُ الفالنتينيُ حولَ العهدِ القديم:

• وصلَ الينا الرأيُ الفالنتينيُ حولَ العهد القديم في رسالة منْ اللاهوتيِ (بطليموس) الى إمرأةٍ مسيحيَّة لا تَدينُ بالفالنتينيَّة كانتْ تُدعى فلورا. يفتتح بطليموسُ الرسالةَ بإيضاحه عدَمَ موافقة المسيحيِّين على منزلة العهد القديم. وهو يُحدِّد موقفَيْنِ يعتبرُهما غيرَ صحيحَيْنِ.

▪ الموقف الأوّل القائلُ بأن العهد القديم مصدرُهُ الله والأبُ الكامل - وهذا هو موقف إيريانئوس ومسيحيّين آخرين استعملوا التفسير الرَمزيَ في قراءتهم للكتاب اليهوديِ. وفقاً لبطليموس، هذا الموقفُ مغلوطٌ لأنَّ العهدَ القديم ذاتَه غيْر كامل ويتطلَّب الاكتمال في يسوع. لذلك، لا يمكنُ أنْ يكونَ اللهُ السرمديّ الكامل مصدرَ هذا الكتاب.

• الموقفُ المغلوطُ الآخر هو أنَّ مصدرَ العهد القديم هو الشيطانُ. وهذا، تقريباً، إشارة الى الغُنوصيّين. يقول بطليموس بأنَّ هذا الموقف خطأ لأنَّ النصوصَ المسيحيَّة تدعو الى فكرةٍ أنَّ الالهَ الذي خلقَ هذا العالم إلهٌ عادلٌ يمقتُ الشَرَّ.

▪ يتّخذُ بطليموس موقفاً وَسَطاً بينَ الموقفَيْنِ السابقَيْنِ. مصدرُالشريعةِ اليهوديَّة ليسَ اللهُ الكاملُ السرمديُّ، كما ليس اللهُ إلهاً شريّراً.

▪ باستعمال ما يقوله يسوع في الأناجيل، يُحاجِج بطليموسُ في جانبِ فكرةٍ أنَّ العهد القديم ليس له مؤلّف واحد، بلْ، بعضُ مادَّتِهِ فحسبُ صدرتْ عنْ الله. القوانينُ والوصايا الأُخَر مصدرُها موسى، وأجزاءٌ منها مصدرُها تراثُ كبار اليهود. ولا يتطابق معَ المسيحيَّة إلا المادَّةُ التي صدرتْ عنْ الله، وهذه المادَّةُ ذاتُها يمكن تقسيمها الى ثلاثة أصناف:

▪ الأوّل، ثَمَّةَ تشريعٌ هو نقيٌ لكنَّهُ غيرُ كامل. وهو جيّدٌ وصادرٌ عن الله، لكنَّ ثَمَّةَ

حاجةً الى يسوع ليكمله. ومثالٌ جيّدٌ على هذا هو الوصايا العشر. لقدْ جاءتْ منَ الله وهي كُلُّها جيّدةٌ لكنَّ يسوع جاءَ ليوصلَها الى الكمال.

- الثاني، ثَمَّةَ تشريعٌ يتضمَّن ظُلماً الغاهُ يسوعُ - وأفضل الأمثلة على هذا هي الوصايا التي تقتضي القصاص - وهو فعلٌ عنيفٌ وظالمٌ.

- أخيراً، ثَمَّةَ تشريعٌ هو رَمزيٌّ يتألف على نحوٍ رئيسٍ منْ قوانينَ طقسيَّةٍ. يرى بطليموس وجوبَ فهْمِ هذه القوانينِ على أنَّها رَمزيّة، باعتبارها إشاراتٍ رمزيَّةً الى مباديء أخلاقيّة لم يُقصَدْ منها أنْ تُتّبع على نحوٍ حرفيٍّ.

- بعدَ ذلك يسأل بطليموس: ما طبيعةُ الإله الذي سيضع مثلَ هذهِ القوانين؟ لا يمكن لهذا الإله أنْ يكون شريّراً لأنَّ القوانينَ التي شرَّعها تتضمَّن مباديءَ خيّرة. لكنَّ هذا الإلهَ أيضاً لا يمكنهُ أنْ يكون الله السرمديَّ الكامل لأنَّ القوانين التي شرَّعها تحتاج الى إكمال على يدِ المسيح ولأنَّ المسيحَ ألغى بعضَها. وهكذا، يخلُص بطليموسُ الى نتيجةٍ هي أنَّه لابدَّ أنْ يكون هذا الإلهُ في مكان ما بَيْنَ الخيْرِ والشَّرِّ. هذا الإلهُ، ببساطةٍ، عادلٌ.

> **فكرةُ القبرِ الخالي كانتْ ستُصبحُ واحداً من أكثر المزاعمِ المسيحيةِ أهميةً؛ وكانتْ هذه الفكرةُ بُرهاناً على أنَّ يسوعَ قدْ نهضَ من بينِ الأمواتِ.**

-١٥-

مريمُ المجدليّةُ كرسولٍ للغنوصِ

مريمُ المجدليّةُ كرسولٍ للغنوصِ

تظهَرُ مريمُ المجدليَّة، وهي واحدةٌ من التلامذة الأصليّينَ القليلينَ ليسوع، وقدْ كانتْ إمرأةً، تظهرُ، في العديدِ من النصوص الفالنتينيَّةِ وفي نصوصٍ (هرطقيَّة) أُخَر. على سبيل المثال، يخبرنا الإنجيلُ المنسوبُ الى فيليب: «كان ثَمَّةَ ثلاثةُ أشخاصٍ كانو دائماً يمشون مع السيِّدِ: أُمَّهُ مريمُ، وأختُه، والمجدليّةُ، وهي الشخصُ الذي كانَ يُسمّى مرافقَه». في مقطع آخر، يتساءل الرُسُل لِمَ يحبُّ يسوعُ مريمَ المجدليَّة أكثر منهم. كذلك، هناك، أيضاً، نصٌّ مسيحيٌّ قديم يسمَّى الإنجيلَ المنسوب الى مريم، وفيه يعطي يسوعُ مريمَ المجدليَّة وَحْياً خاصّاً. في هذه المحاضرة، سنرى لِمَ كانت مريمُ المجدليّة مُبرَّزةً في هذه الأناجيلِ البديلة، ولِمَ تُصوَّر هي والرسول (بطرس)، غالباً، كخَصْمَيْنِ.

شاهدٌ على البعثِ:

• لدى أوائلِ المسيحيين، أشارتْ الكلمةُ اليونانية (Apostolos)، الرسولُ، الى مبعوث أو ممثِّل. الرُسُل المسيحيُّون كانوا أولئك الذين أرسلهم يسوعُ لإعلان رسالته. المؤلِّف المسيحي الأبكر، بولصُ، يستعمل المصطلح للإشارة الى المسيحيّين الذينَ رأَوْا يسوع بعدَ بعْثهِ من الموتى والذين فوَّضَ اليهم يسوعُ نشرَ الإنجيل. وفقاً لبولص (أهالي كورنيث ١. ١٥: ٣-٩)، ثَمَّة ما يزيد على إثني عشر رسولاً.

▪ تجبُ ملاحظةُ ما يبدو عليه موقفُ بولص منْ اعتبارهِ الترتيبَ الذي ظهرَ به يسوع للنَّاس بعدَ موته، أمراً مُهِمّاً.

▪ وكونُ يسوع قدْ ظهر لبولص متأخراً - ربما حوالي ثلاث سنوات بعدَ الصلْب - قدْ أشارَ الى أنّه (كان أقلَّ الرُسُل شأناً). وافتراضاً، كانَ بطرسُ، وهو أوّل مَنْ رأى يسوع، هوَ

الأعظمُ شأناً.

• عندما نلتفتُ الى أناجيلِ العهد الجديد، تصبح الصورة أكثرَ تعقيداً. تخبرنا كلُّ الأناجيل بأنَّ مريمَ المجدلانيّةَ (أحيانا تكون مصحوبةً بإمرأة أخرى) قدْ عثرتْ على القبْر الخالي وجاءتْ بالخبر الى التلامذة الذُكور. في إنجيل متّي ويوحنّا، مريمُ - وليس بطرسُ - هو أوّلُ تلميذ رأى يسوع الذي نهض منْ الموت. وكما لُحِظَ، يبيِّن بولصُ أنّه، على الأقلِّ، بعضُ أوائل المسيحيين كانوا قدْ اعتبروا الترتيب الذي ظهر به يسوع للرُسُل أمراً مُهمّاً[1]، وهكذا، يمكننا أنْ نشاهد هنا كيفَ نشأ التنافس بين مريم وبطرس.

رأيُ الفالنتينيِّين في مريمَ:

• ثَمَّةَ مقطعٌ في الإنجيل المنسوب الى فيليب يقول الآتي:

«بالنسبةِ الى الحكمةِ التي تُدعى (الممحلةَ) هي أمُّ الملائكة. رفيقة [....] مريم المجدليَّة]... أحبّها [أكثرَ منْ كلِّ التلامذةِ [واعتاد] أنْ يُقبّلَها [غالباً] على [...]ها . بقيَّةُ [التلامذة ...]. وسألوهُ (لِمَ تحبها أكثر منا؟)، أجاب المخلِّصُ قائلاً (لِمَ لا أُحِبُّكم كما أُحِبُّها؟ عندما يكون شخصٌ مبصرٌ معَ آخرَ أعمى في ظلامٍ، لا فرقَ بينَهما. وعندما يُضاءُ المكانُ يرى المبصرُ الضوءَ ويظلُّ الأعمى في الظلامِ».

• كما مَرَّ، اعتقد الفالنتينيّون أنّنا جميعاً لدينا نفوسٌ عُليا أكثر سماويّةً. وهذه هي نفوسُنا الملائكيَّة، التي تطلقها الحكمةُ الى جانب نفوسِنا البشريَّة. نفوسُنا الملائكيَّةُ العليا تُخصَّص كذُكورٍ ونفوسُنا البشريَّةُ الدنيا تُخصَّص كأناث. وهكذا، تحدَّث الفالنتينيّون حولَ الخلاص باعتبارِهِ إعادة توحيدِ النفوسِ الذَكَريَّة معَ النفوسِ الأنثويَّةِ.

[1] الترتيب بمعنى ظهوره أولاً لبطرس ثُمَّ لعشرة من الرُسُل الخ. (المترجم).

• يقبل الانجيلُ المنسوبُ الى فيليب بفكرة أنَّ يسوع ومريم الإنسانَيْن الواقعيّيْن كانَ لهما علاقةٌ أشدُّ وأقرب من علاقة يسوع مع بطرسَ والذُكورِ منْ التلامذة. وعلى غرارِ إنجيل توماس، يصوِّرِ إنجيل فيليب التلامذةَ الذُكورَ وهم يتساءلون عنْ هذهِ العلاقةِ. ويجعل إنجيل فيليب الآصرةَ التي تربط يسوعَ بمريم المجدليّةِ، يجعلها، رَمْزاً للخلاص الحقيقيّ.

▪ تأمَّلْ هذا المقطعَ من إنجيل فيليب: «اعتادتْ ثلاثُ نساءٍ على المشي مع السيّد - أمُّه مريم، وأختُه، والمجدليّةُ التي تسمى رفيقته. لأنَّ مريمَ هو اسمُ أختِهِ وأمِّهِ وشريكتِهِ».

▪ يصبحُ الاسمُ مريمُ رمْزاً للأنثى في علاقة معَ الله. لكنَّ هذهِ ليستْ كائناً سماويّاً أنثوياً، بلْ، نحنُ جميعاً أناثٌ في علاقتنا مع السيّد ومعَ نفوسِنا الملائكيّة العليا.

▪ عندما ناقش بطرسُ والتلامذةُ الذكور العلاقةَ بينَ يسوع ومريم المجدليّة، كشفوا أنّهم ما زالوا لا يفهمون المعنى الأعلى لهذه العلاقة. إنَّهم كانوا لا يزالون في الظلام يحتاجون النُورَ الذي يمكن أنْ تقدِّمه الأسطورةُ الفالنتينيَّة.

الإنجيلُ المنسوبُ الى مريمَ المجدليَّةِ:

• يصبح الصراعُ بينَ مريمَ المجدليَّةِ، منْ جهة، وبطرسَ والتلامذةِ الذكورِ الآخرين، مِنْ جهةٍ أخرى، ثيمةً رئيسةً في الإنجيل المنسوب الى مريم - الإنجيلِ المسيحيّ الوحيدِ المنسوبِ الى إمرأة. ولدينا قِصّتانِ قصيرتانِ باليونانيّةِ من هذا النصِّ، وقطعةٌ أطولُ مترجَمة الى القِبْطيّة.

• على الرغْمِ منْ أنَّ إنجيل مريم يحملُ بعض الأفكار المشابهة للأسطورة الغنوصيّة، هو لا يتضمَّنُ أيَّ تعاليمٍ مُميّزةٍ للغنوصيّة. يُظهر هذا الإنجيلُ علاماتٍ أكثرَ على الإتصال معَ الإنجيل المنسوبِ الى توماس ومعَ الأفكار الفالنتينيّة.

• في بداية النّص الذي نجا من الضياع، يسوعُ وهو يُعَلِّم التلامذةَ بعدَ موته وبعثه.

وعندما ينتهي يسوعُ من كلامهِ، يأمر التلامذةَ بالانطلاق والوعْظ للإنجيل: بعد ذلك، يذهب بعيداً.

▪ وبدلاً من الانطلاق للوعظ، يحزن التلامذة وينتحبون. هم يخشون أنَّ النَّاس سيقتلونهم كما فعلوا معَ يسوع. تقف مريمُ المجدليَّة وتخبرهم بأنَّ اللهَ سيحميهم، ولذلكَ يجبُ أنْ تقوى عزيمتُهم.

▪ بعد ذلك، يطلب بطرسُ منْ مريمَ أنْ تكشف عنْ أيِّ تعاليم ليسوع علِمتْها منه ولم يطَّلعْ عليها الرُّسُل الآخرون. تخبره مريمُ كيفَ ظهر لها المخلِّصُ في رؤيا وأخبرها بأنَّ النفْسَ البشريَّةَ لا بدَّ لها منْ العروج عابرةً قوىً معاديةً للوصول الى موطنها السماويِّ.

▪ وحيث تنتهي مريمُ منْ الكلام عن وَحْيها، يتَّهمها أندرو وبطرُس بالكذب. يقول أندرو بأنَّ مزاعمها حولَ تعليم يسوع لها غريبةٌ، ويجادل بطرُس قائلاً بأنَّ يسوع لا يوحي بأمورٍ مثلِ هذهِ الى إمرأة في حالة منْ الخصوصيَّة.

▪ لكنَّ الرسولَ ليفي ينتصرُ لموقفِ مريم. يتَّهم ليفي بطرسَ بخضوعهِ لغضبهِ ويقول أنَّ يسوع لَيُحِبُّ مريمَ المجدليَّة أكثرَ من حُبِّه للرجال لأنَّه يعرفها خيرَ معرفةٍ. ويخبر ليفي رفاقَه بأنَّ عليهم أنْ يذهبوا للوعظ بالبشارة (الأنباء الجيدة). في الترجمة القِبْطيّة، ينتهي الإنجيلُ بانطلاق الرُسُلِ منْ أجلِ الوعظ، وفي الشذرات اليونانيَّة يذهب ليفي فحَسْبُ في هذه المهمَّة.

▪ الواضح أنَّ ثَمّةَ قضيَّتَيْن تسبّبان صراعاً بينَ مريمَ المجدليَّةِ وبينَ التلامذةِ الذكور: محتوى الدعوة التي كشفتْ عنها والتي وصفها أندرو بأنَّها (غريبة) هي القضيّة الأولى، أمّا القضيّة الثانية فهي أنَّ مريم، وهي إمرأةٌ، هي مَنْ يعلِّمها الآخرينَ.

• كما ذُكِرَ، في الإنجيل المنسوب الى مريم، يوجِّه يسوعُ المبعوثُ منْ الموت تعليماتٍ الى التلامذة لا تردُ في أناجيلِ العهدِ الجديد، وما يدعو له يبدو شبيهاً بما رأيناه لدى الفالنتينيّين.

▪ أولاً، يقول يسوع بأنَّ المادَّة والعالمَ الماديّ هما في نهايةِ الأمر ليسا حقيقيّيْن. في مرحلةٍ ما، ستنحلُّ المادَّةُ وتتوقفُ عنْ الوجود.

▪ ثانياً، يوضحُ يسوعُ أنَّ ما يدعوه (خطيئة) هو حقاً ما نقترفه حينَ نتردَّى في الجهْلِ والضلالةِ ونتوَّلى عمَّا هو خيرٌ.

▪ ثالثاً، يدينُ يسوعُ الهوى- بمعنى العواطف غيرِ الصحيّةِ من قبيل الغضب، والامتعاض- كونَها تنشأ منْ المادَّةِ والجهل. هذهِ العواطفُ تؤدي الى أفعال لا تتَّفقُ معَ الأخلاق الحميدة. وبدَلاً منْ ذلكَ، يحثُّ يسوع تلامذتَه على أنْ يكونوا راضين وفي حالة سلام داخليّ.

▪ أخيراً، يأمر المخلِّصُ الرُسلَ بالذهاب والوعظ بالبشارة، ويحذِّرهم من إضافة قواعدَ أو قوانينَ منْ غيرِ ما أمرَ بهِ مَهما كانتْ.

▪ التعاليمُ السِّريَّة التي أوحى بها يسوع الى مريمَ المجدليّةِ هي أكثر شبَهاً بما رأيناه لدى الفالنتينيّين. يخبر المخلِّصُ مريمَ بأنَّه لا بدَّ للنفس البشريَّة منْ العروج مارةً بقوىً معاديةٍ معيَّنةٍ منْ قبيلِ الظلامِ والرغبةِ والجهلِ. تحاول هذه القوى أنْ تمنع النفْسَ منْ الصعود الى مسكنها الحقيقيّ، لكنْ، حينَ تخبر النفْسُ هذهِ القوى بطبيعتها الحقيقيَّةِ يمكنها أنْ تعبر هذهِ القوى. وهذا يبدو شبيهاً بطقْس المُحتَضر الفالنتينيّ الذي درسناه فيما سبق.

▪ يبدو الإنجيل المنسوب الى مريمَ المجدليّةِ يُعلِّم لاهوتاً مشابهاً جداً للاهوت الفالنتينيّين، لكنَّه نوعٌ منْ اللاهوت الذي لا يمكن أنْ يكون مصدرَهُ الفالنتينيّون. بَلْ، نرى أنَّ بعض الأفكار الفالنتينيَّة، منْ قبيل أنَّ أصل الخطيئة في الجهل، يتشاركها معهم مسيحيّون آخرون. وبعضُ هذه الأفكار، وخصوصاً، عروجَ النفْس عابرةً قوىً معاديةً، كانتْ أفكاراً فيها جدَلٌ وسط المسيحيّين. والحقُّ أنَّ أندرو يصفُ فكرةَ عروج النَفْس بأنَّها (غريبة). ولا بُدَّ أنَّه يمثل نُقَّاد هذهِ الفكرة وسَطَ المسيحيّين الأوائل.

• يكشفُ الإنجيل المنسوب الى مريمَ المجدليَّةِ، أيضاً، عنْ انقسام وسَطَ أوائل المسيحيّين حولَ دورِ المرأة في الكنيسة، وطبيعةِ السلطة الدينيَّة على نحو العموم.

▪ يعترض بطرسُ على وحْي مريمَ المجدليَّةِ لِسببَيْن: لأنَّها إمرأةٌ، ولأنها تلقَّتْ التعاليمَ مُختَّصةً بها دونَ التلامذةِ الآخرين. ولا شكَّ، أنَّ بطرسَ يُمَثِّلُ المسيحيّين الذين يعتقدون بأنَّ المرأة يجبُ أنْ لا تُعلِّم في الكنيسة، والذين حقَّقوا في أشكال الوحْي المنقولِ عنْ المسيح التي لمْ تكنْ معروفةً على النحو العامّ.

▪ دفاعاً عنْ مريمَ المجدليَّةِ، وضعَ التلميذُ الذكَرُ (ليفي) ثلاثَ نقاط: (١) أنَّ بطرس عِرْضةٌ للغضب - أحد أشكال الهوى التي أمر المخلِّص بضرورة تركه؛ (٢) كانتْ مريمُ المجدليَّةُ التلميذةَ الأكثر محبوبيَّةً لدى يسوع، وهكذا، فهي المصدر الأكثر ثقةً للوحي؛ (٣) يجب أنْ يتَّبعَ الرُسُلُ تعاليمَ يسوع الأصليَّة ولا يفرضون قواعدَ تختلفُ عمَّا قالهُ المخلِّص.

• وفقاً لما ورد في إنجيل مريمَ المجدليَّةِ، طوَّر مسيحيّون آخرون قواعدَ وأنظمةً لا تتَّبعُ الرسالةَ الأصليَّة ليسوع. لقدْ أعرضوا عنْ الرسالةِ وما جاءتْ به منْ فهمٍ جديدٍ لله. والأكثرُ رجوحاً هو أنَّ الأحكام التي يُدينها هذا الإنجيلُ هي تلكَ التي حرَّمتْ الزعامةَ الأنثويَّةَ، تلكَ التي قيَّدتْ الحقيقةَ المسيحيَّة بالكتبِ الرَّسميَّة، وتلكَ التي أهملتْ الوحْيَ الذي تلقّاهُ النَّاسُ المؤهلونَ منْ يسوع.

• وعلى غرارِ إنجيل يهوذا الغنوصيِّ الى حدٍّ ما، يُدينُ الإنجيلُ المنسوبُ الى مريم أبنيةَ القوَّةِ البارزة في الكنيسة التي حَصَرَتْ السلطةَ بالكهنة الذُكُور. مريمُ المجدليَّةُ، الشخص الأوَّلُ الذي شاهد القبرَ الخالي، أصبحتْ نقطةَ تحشيد لهذا الاحتجاج، تماماً كما هو الحال معَ بطرسَ، الشخصِ الأوَّلِ الذي رأى يسوع القائم منْ الموت (وفقاً لبولص)، أصبح رمزاً لبنيةِ الكنيسةِ الصاعدة من الأساقفة والكهنة. في المدى البعيد، طبْعاً، ربحَ بطرسُ هذه المنافسةَ معَ مريمَ المجدليَّةِ.

في التراثِ المسيحي، تتكَّررُ تسميةُ مريمَ المجدليّة بإسم (الرسولِ الى الـرُسُـلِ) لأنَّـهـا جـاءت ببشـارةِ بعـثِ يـسـوعَ مـن الـمـوتِ الى الرُسُل الذُكورِ.

-١٦-

أشكالٌ متضاربةٌ للوحي عنْ المسيحِ

أشكالٌ متضاربةٌ للوحي عنْ المسيحِ

العديدُ منْ الكتاباتِ التي عُثِرَ عليها في نجْع حمّادي تدَّعي لنفسِها عنوانَ نبوءاتِ نهايةِ الزمانِ والوَحْيِ؛ فهي تحوي حقيقةً دينيَّةً جديدة أوحى بها اللهُ. وإلى حدٍّ ما، ليس هذا مستغرباً لأنَّ المسيحيَّةَ قدْ بدأتْ بتجاربَ غيرِ اعتياديَّة منْ الوَحْي. على سبيلِ المثال، يسجِّل سِفْرُ الرؤيا التجربة الرؤيويَّةَ لمسيحيٍّ يُدعى يوحنّا. لكنَّ النَّاسَ الذين كتبوا مثلَ هذهِ الكتب أصبحوا فيما بَعْدُ موضعَ خلافٍ وسَطَ المسيحيين الذين اعتقدوا أنَّ زمن الرؤيا قدْ انتهى. في هذه المحاضرة، سننظر في الرؤى والكتابات التي أطلقتْ شرارةَ الخلافِ والجدَل بما في ذلك الرؤى الواردة في مخطوطاتِ نجْع حمّادي المنسوبةِ الى الرُسُلِ: بطرسَ، وبولصَ، وجيمسَ.

التجاربُ الرؤيويةُ في المسيحيةِ الأولى:

• كانتْ التجاربُ والكتاباتُ الرُؤْيَويَّةُ قضيَّةً مركزيَّةً فيما يتعلق بأصول المسيحيَّة. وظلتْ رؤيا يوحنّا قائمةً في تراثٍ طويلٍ منْ الكتاباتِ الرُؤْيَويَّة اليهوديَّة. النبوءاتُ اليهوديَّةُ، مِنْ قبيل سِفْرِ دانيال في العهد القديم، أو كُتب أينوخ تتصف بُرؤىً رَمْزيَّةٍ توصلُ معلوماتٍ جديدةٍ منْ اللهِ.

• في أواسط القرن الثاني الميلادي، بدأ بعضُ المسيحيّين التفكير بأنَّ عصرَ الرؤى والوحْي قدْ إنتهى. اعتقد هؤلاء أنَّ الأناجيل الأولى حَوَتْ كلَّ شيء دعا اليه يسوع. وكانتْ مَهمَّة الكنيسة أنْ توصل تعاليم هذهِ الأناجيل، لا أنْ تأتي بأفكار جديدة.

• لكنْ، لمْ يوافق كلُّ المسيحيين على هذا. في سبعينيات القرن الثاني الميلادي، زعم ثلاثةُ مسيحيّين في آسيا الصغرى همْ مونتانوس، وبريسيلا، وماكسيميلا، أنَّهم قدْ التقوا الرُّوحَ القُدُس. بدأ الأنبياءُ الجُدد الحديثَ عنْ رؤىً جديدة تتعلق بعودةِ يسوع

وحلولِ ملكة الله.

• قبلتْ بعضُ تجمعات المسيحيين رسالةَ هؤلاءِ الأنبياء وبدأتْ اتِّباعَ تعاليمهم. سمّى هؤلاء الداعمون حركتَهم باسم (النبوَّة الجديدة)، وانتشرت من آسيا الصغرى الى روما وشمال أفريقيا. ورفضتْ تجمعات أُخَر النبوَّةَ الجديدة باعتبارها كاذبةً، وانقسمتْ بعضُ الجماعاتِ المسيحيَّة حولَ هذهِ المسألة.

• مسيحيّو النبوَّة الجديدة وافقوا على أنَّ تعاليم مسيحيَّةً معيَّنة قدْ استقرت وحُسم أمرها منْ قبيل ألوهيَّة المسيح، لكنَّهم اعتقدوا أنَّ الُروحَ القُدُس يمكنها أنْ توحي بأشياء جدَيدة، وخصوصاً، مباديءَ أخلاقيَّةً صارمةً جديدة.

▪ لمْ يُحدِّد أتباعُ النبوَّة الجديدة هذا الوحيَ الجديد بالأنبياءِ الثلاثةِ الأُصلاءِ، واعتقدوا أنَّ النساء يمكن أن يَكُنَّ نبياتٍ أو يَخدمْنَ في مقام قيادة الكنيسة بالسهولةِ نفسِها التي يؤدِّي بها الرجالُ هذا الدورَ.

▪ كانتْ هذهِ الاعتقاداتُ تحدّياً للأبنيةِ الناميةِ لسُلطة الكنيسة: إنْ كانَ لا يزال ممكناً أنْ يتحدث اللهُ منْ خلال الأنبياء، فلِمَ يجبُ أنْ يطيع المسيحيُّون زعماءَ منْ البشَر؟

• لَمْ يؤلِّف عددٌ منْ المنتمين الى حركة النبوَّة الجديدة كتباً جديدةً عنْ الوحْي، لكنَّ عدداً آخرَ من المسيحيّينَ ألَّفوا في هذا العديد منْ الكتب التي عُثر عليها في نجع حمّادي تمثِّلُ وحْياً سِريّاً أو خاصّاً، ويشمل هذا وحيَاً الى بولص، وبطرس، وجيمس. وكلُّ هذهِ كانتْ في الأصل قد كُتبتْ باللغة اليونانيَّة، والمُرجَّح أنَّ كتابتها هذهِ كانتْ في القرْن الثاني أو الثالث، ثُمَّ منْ بعدُ، تُرجمَتْ الى القِبطيّة.

وَحْيُ بولص

• (وحْيُ بولص)[1] منْ مخطوطاتِ نجْعِ حمّادي، وهو نصٌّ قصيرٌ فيه يقومُ الرسولُ بولص برِحلةٍ الى العوالمِ السماويَّةِ التي غالباً ما كانتْ تُعَدُّ في العصور القديمة منْ السماءِ الأولى حتّى السماءِ الثالثة، وتمتدُّ الى العاشرة. وعلى طول الرحلة، يلتقي أنواعاً منْ الأرواح والملائكة يحاول بعضُها منْعَهُ منْ الصعود الى أعلى.

• لِبولص لقاءاتٌ معَ مُوحين (مصادرِ وحي) سماويِّين. في بداية النصّ يظهر له طفلٌ صغير - الأكثرُ هو المسيح. يشجّعُ الطفلُ الصغير بولصَ على أنْ يوقظ عقلَهُ وينتبهَ الى الحكّام الكونيّين الذين يحيطون به، وعلى نحو الخصوص، ذلك الذي يصنع أجساداً للنفوس. يدعو الطفلَ بولصَ الى العروج ليلتقي الرُسُلَ الأثنى عشر، وهو ما يفتتح رحلةَ بولص في العروج عَبْرَ السماوات.

• في السماءِ السابعة، يلتقي بولص شيخاً قدْ جلس على عرشٍ - هو إلهُ إسرائيلَ. يسأل الشيخُ بولصَ عنْ هويّته، ومِنْ أين أتى وعنْ وجْهتِهِ. يستطيع بولص أنْ يجيب الرجلَ جواباً صحيحاً، ويبيّن له علامة تشير الى منزلته المباركة. بعد ذلك يسمح الشيخُ لبولص في الاستمرار في العروج الى السماء الثامنة حيث يلتقي الرُسُلَ الأثني عشر. لكنَّ بولص يستمرُّ في العروج حتّى السماء التاسعة والعاشرة حيث يُحييّ الأرواحَ، رفاقَه.

• يبدو الوحيُ هنا شبيهاً بما شاهدناه في الكتابات الغنوصيّة. إلهُ إسرائيل ليس هو الإله النهائيُّ، بلْ هو مجردُ إلهٍ لهذا الكون الأدنى الذي يمتدُّ حتّى السماء السابعة.

(١) ويعرف برؤية بولس: يعود، على ما يبدو، إلى منتصف القرن الثالث. دُوّن في اليونانيّة وانتشر في العالم المسيحيّ الوسيطيّ، ووُجدت عنه المخطوطات العديدة في أكثر من لغة محكيّة في ذلك الزمان. (المراجع).

والمسيحيُّ الحقيقيُّ ينتمي الى عالَمٍ فوقَ هذا العالم. مع ذلك، لا يتضمَّن الكتابُ كلَّ عناصرِ الأسطورةِ الغنوصيَّة.

وَحْيُ بطرس:

• يصفُ وحيُ بطرس مِنْ مخطوطاتِ نجْعِ حمّادي المخلِّص، وهو يوحي بحقائق دينيَّة الى بطرس حيثُ جلس الاثنان في المعبد في أورشليم في الليلة التي سبقتْ صلْبَ يسوع. في هذهِ المناقشة يوحي المخلِّص ثلاثَ حقائق مُهمَّة. الأولى هي طبيعةُ الكائنات البشريَّةِ المُخلَّصة (بفتح اللام المشددة) وغيرِ المخلَّصة، والثانيةُ تتعلق بالهُويّة الحقيقيَّة ليسوع الذي سيُصلَب، والثالثةُ تتعلق بمستقبلِ الكنيسةِ المسيحيَّةِ.

• بعد ذلك، حدثتْ لبولص رؤيا (vision) فيها يُصلَبُ يسوعُ في حينِ يقفُ شخصٌ بجانب الصليب مبتسماً وضاحكاً. يفسِّر المخلِّصُ الأمرَ بأنَّ ثَمَّةَ يسوعَيْن في حقيقة الأمر. يسوعُ الذي رآه بطرس مبتسماً ضاحكاً هو (يسوع الحيُّ) والرجل الذي في الصليب هو بديل مِنْ جسَدٍ لحميٍ. ويوضح المخلِّصُ أنَّه عندما يُلقى القبض على يسوع، سيُطلَق سراحُ يسوع الحيّ ولنْ يبقى للتعذيب والقتل الّا البديلُ اللحميُّ. وسيقف يسوع الحيُّ جانباً ضاحكاً منْ عمى أولئكَ الذين يصلبون البديلَ.

▪ بعد ذلك، يرى بطرس شخصاً سماويّاً، شخصاً يشبه يسوعَ لكنَّه مُغطى بالرُّوحِ القُدُس، وهو محاطٌ بنورٍ ساطع، ويثني عليه جمعٌ كبيرٌ منْ الملائكة. هذا هو المخلِّص الحقيقيُّ الذي لا يكشف عنْ نفسه الّا في هيأةِ يسوع الحقيقيِ. حتّى يسوعُ الحيّ ليس هو المخلِّصَ الحقيقيَّ، بلْ، هو (الجسَدُ اللاجسديُّ) الذي ظهر به المخلِّص.

▪ وهذهِ طريقةٌ لافتةٌ في فهمِ طبيعة يسوع وصلْبِهِ. عندما وصل المسيحيّون الأوائلُ مرحلةَ الاعتقاد بأنَّ يسوع كان إلهيّاً، وجدوا منْ الصعْبِ أحياناً فهمَ إمكانيةِ أنَّهُ قَدْ تألَّم

وتُوفي على الصليب أو، في الواقع، لِمَ احتاجَ الى الأكلِ والشرب مِثْلَ البشَر قبل موته؟

▪ حلَّ هذهِ المشكلةَ الدوسيتيُّون[1] المسيحيُّون (Docetic) بِقولهم أنَّ يسوع لمْ يكنْ واقعاً بشراً بالمطلقِ، بلْ، ظهرَ في هيأة بشرٍ فحسْبُ. يتبنى وخِيُ بطرسَ مقاربةً مختلفةً. تقول هذهِ المقاربةُ بأنَّ جسد يسوع كان حقيقيّاً لكنَّهُ كانَ مجردَ بديلٍ منْ لحم يسوع الحَيّ. لقد فرَّ يسوعُ الحيُّ منَ الجسَد اللحميّ قبل أنْ يكون منَ الممكن تعذيبُه أو قتله. أضفْ الى هذا، أنَّه حتَّى يسوعُ الرُّوحانيُّ الحيُّ لمْ يكنْ إلّا وعاءً للمخلِّص السماويّ الحقيقيّ.

• وأخيراً، يخبر المخلِّصُ بطرسَ كيفَ ستنمو الكنيسة بعدَ موته: في المرحلةِ الأولى، سيصغي النَّاس الى الحقيقة، لكنْ بعد ذلك سيُضِلُّ عددٌ منَ المسيحيّين الناسَ ويعلمونهم عبادةَ الرجل الميّتِ - المسيحِ المصلوب. هؤلاءِ القادةُ المزيَّفون سيقيمون كنيسةً مزيَّفةً وسيخبرون الناس أنَّ الخلاص لا يأتي الّا مِنْ خلالهم ومنْ خلال كنيستهم الكاذبةِ الموهومة. ولحدِّ الآنَ يضطهد هؤلاءِ الزعماءُ المؤمنينَ الحقيقيّينَ (المستضعَفينَ) لكنْ، في نهاية المطاف سينتصر الحقُّ وسَيُبَرَّأ هؤلاءِ المستضعفونَ.

كتابُ الأسرارِ المنسوبُ الى جيمس:

• يعرِضُ النصُّ المعروف بـ(كتاب الأسرار المنسوب الى جيمس)، يعرِضُ، نفسَه كرسالةٍ كتبَها الرسولُ جيمس. والمؤلِّف واضحٌ في أنَّ هذهِ الكتابة لمْ يُقصَد منها أنْ يقرأها كلُّ المسيحيّين، ناهيكَ عنْ كُلِّ النَّاس. وهو يطلب منْ قرّائهِ أنْ لا يشاركوا الكتابَ الّا معَ أولئكَ الذين لهم القابليّةُ على أنْ يُخَلَّصوا بوساطته.

---

(١) الدوسيتيون من الكلمة اليونانية Doketai، ومن الفعل Dokein أي بان وظهر. ويسمون بالخياليين وبالظاهريين أيضاً. أعادوا تمثيل النزعة الورائية في المسيحية. والمسيح في معتقدهم طوال حياته في الأرض لم يكن له جسد حقيقي، ولكن له جسد كالذي للشاب. أنكروا ناسوت المسيح وأقروا ألوهيته، ورأوا أنه خيال يتراءى لا على الحقيقة. ظهروا في القرن الثاني الميلادي. (المراجع).

• وفقاً لكتاب الأسرار، حدَث الوَحْيُ بعدَ خمسمائة وخمسين يوماً منْ بعث يسوع، في وقتٍ اجتمع فيه الرُسلُ الاثنا عشر معاً. كانوا يستذكرون كل شيءٍ كان المخلِّص قدْ علمَّهم، ويدوّنونهُ في كُتُبٍ. عندَها ظهرَ يسوع وطلب أنْ يتحدَّثَ معَ جيمس وبطرس حضْراً.

• وعلى نحو من المفارقة، عندما يختلي يسوعُ ببطرسَ وجيمسَ، يكشف لهم عن أنَّ عصر النبوَّة قد انتهى. لقد انتهى بقطعِ رأس يوحنّا المَعْمَدان. ويجبُ أنْ لا يسعى جيمسُ وبطرس الى التنبؤ وإنْ طُلِبَ منهم ذلك. ويجب على المسيحيّين الذين يطلبون الوحي أنْ يلجأوا الى الكُتُب التي حَوَتْ تعاليم يسوع التي كتبها تلامذتُهُ، خصوصاً، حكاياتِ يسوع الرمزيّة (parables).

▪ الحكاياتُ الرمزيّةُ التي يذكرها يسوع - (الرعاة) و(البذرة) وحكايات أخَر - موجودة في أناجيل العهد الجديد. والمعنى الحقيقيُّ لهذهِ الحكايات ليس واضحاً دائماً، وهذا يعني أنَّ المسيحيّين المتحمسين سيحاولون حلَّ شيفرة هذهِ الحكاياتِ ومعرفةَ معناها. يحثُّ يسوعُ جيمسَ وبطرسَ: «كونوا متلهّفينَ الى الكلمةِ» - بمعنى دراسة الأناجيل وحكاياته بقدْرٍ عالٍ من الدِقَّة - لكنّه حذَّرهم بأنَّ هذا سيكون عملاً شاقّاً.

▪ يقول يسوع «الكلمةُ مثلُ حبةِ القمح حينَ ألقاها أحدُهم الى الأرض فإنَّ له إيمانٌ بها وحينَ أنبتتْ ونمتْ أحبَّها لأنّه بَذرَ الكثيرَ منها لا حبَّةً واحدةً. وبعدَ أنْ عمل، أنقذ نفسَهُ لأنّهُ أعدَّها كطعامٍ واحتفظ بمقدارٍ ليبذرَهُ».

▪ يبدو معنى هذه الحكاية أنَّ كلمة الله تتطلب جهداً. في أوّل الأمر، للاستفادة منها يجب أنْ ننميها. بعد ذلك، أنْ نعدّها كطعام ونزرع منها. بعبارة أخرى، يجبُ علينا دراسة حكاياتِ وتعاليمِ يسوع الواردة في الكتب التي كتبها الرُسُل، ونحصل على خلاصنا. بعد ذلك يجب أنْ تُقَدَّمَ هذه التعاليم الى الآخرين - نعدُّ طعاماً ونزرعُ بذوراً أكثر.

■ يقولُ يسوعُ: «وهذه أيضاً هي الطريقُ الى حيازةِ مملكةِ السماءِ لأنفسكم، إنْ لم تحوزوها بوساطة المعرفة (الغنوص)، فلنْ تكونَ لكم القدرةُ على العثورِ عليها». نحوز المعرفةَ والخلاص عبْرَ دراسة وتعليم الكلمة. وهذه معرفةٌ منْ خلال الكتُب - وليس الأمرُ مقصوراً على أناجيل العهد الجديد، بلْ، كذلك يشمل الكتبَ الجديدة بضمنِها كتابُ الأسرار لجيمس.

يتألَّف وَخـيُ يوحنّا في العهدِ الجديدِ مِنْ رُؤى محيِّرةٍ تكشفُ المعنى الحقيقيَّ للحوادثِ القائمة، وتتنبأُ بما يفعلُه اللهُ في القادمِ مِن الزمانِ.

■ وهذه هي رُوحانيّةُ التعلُّمِ ودراسةُ النصوص المكتوبة. يُكتَسب الخلاصُ منْ خلال المعلِّمين والتلامذة في قراءةِ ومحاولةِ فهم تعاليم يسوع الموجودة في الكتابات المسيحيَّة. ويسوعُ هو المعلِّم الأنموذج. يعلِّم بطرسَ وجيمسَ ويجيبُ بصبرٍ على اسئلتهم. وعلى غرار كلِّ المعلمين الجيدين، يأملُ يسوعُ أنَّ تلامذتَهُ سيصيرون في آخر الأمر أكثرَ حكمةً وأكثرَ خبرةً منْهُ.

-١٧-

إبتداءُ الهرطقةِ

إبتداءُ الهرطقةِ

لحدِّ الآن، صادفْنا مدىً متنوعاً منْ المسيحيّين يشتمل على الغُنوصيّين، والفالنتينيّين وآخرينَ. في هذه المحاضرة وما بعدها سنناقش الكيفيّة التي حدثتْ عليها استجابةُ زعماء مسيحيين لهذه الجماعات، وعلى هذا، سنناقش كيف بدأ هؤلاء خلقَ المسيحيّة التي ظهرتْ في الآخر كأرثوذوكسيّة كاثوليكيّة. يمكننا تقسيمُ المعارضةَ للغنوصيّين والفالنتينيّين الى صنفَيْنِ أساسيَّيْنِ. في هذه المحاضرة، سنستطلعُ لاهوتيّينَ منْ قبيلِ جاستن الشهيدِ، وإيريانؤوس منْ ليون الذي، ببساطة، أدانَ طلبَ معرفةٍ عُليا وطوَّرَ فكرةَ الهَرْطقةِ منْ أجل شَيْطنة هذهِ المعرفةِ ووضْمِها. وفي المحاضرة التي تليها سنلتفتُ الى آخرينَ منْ قبيلِ كليمنتْ الإسكندرانيّ، وأوريجين اللذَيْنِ قدَّما طرائقَ قويمةً بديلةً للغنوصِ (المعرفة).

فكرةُ الهَرْطَقَةِ:

• تنحدر الكلمة الانكليزية (heresy-هرطقة) منْ الكلمة اليونانيّة (hairesis) التي كانتْ تعني (مدرسةً فكريَّةً)، و(مذهب) و(زُمْرَةً). ولمْ يكنْ لها في الأصل اليونانيّ معنىً ثانوياً سَلبيّاً.

• على كلّ حالٍ، كانَ لدى المسيحيّين الأوائل إحساسٌ شديدٌ بوجوب أنْ يكونوا جماعةً واحدةً منسجمةً. اعتبرَ هؤلاءِ أنفسَهم الجسدَ الواحدَ للمسيح، وعلى هذا، قلقوا منْ الانقسامات المستمرة وشطَطهم. وحتّى في العهد الجديد، نجدُ مؤلّفين يدينون وجودَ زُمُراً (أو hairesis)، ويلقون اللّومَ على الشيطان في مسألة التعاليم المسيحيّة التي يعتبرونها غيرَ صحيحة.

• ينسبُ عمومُ المؤرخين الى جاستن الشهيد تطويرَ مفهومٍ كاملٍ للهرطقةِ. وكانَ

جاستنُ فيلسوفاً مسيحيَّاً درَّس في روما في منتصف القرْن الثاني.

▪ اعتقد جاستنُ بأنَّه هو والمسيحيّين الذين على شاكلتِهِ كانوا جُزءاً منْ كنيسة حقيقيَّة واحدة، لكنَّ الغنوصيّينَ، ومارسيون، والفالنتينيّين كانوا مجردَ (مدارس فكريَّة) لا يمكنُ أنْ تكون مصدراً للحقيقة. لا تأتي الحقيقةُ إلّا منْ كلمةِ الله، وهي قائمةٌ في يسوع، والآنَ هي قائمةٌ في الكنيسة. كتبَ جاستن كتاباً، هو مفقودٌ الآنَ، بعنوان (تهافُتِ كلِّ المدارسِ الفكريَّةِ التي ظهرتْ).

▪ يرى جاستن أنَّ أتْباعَ مارسيونَ وفالنتينوسَ رُبما سَمّوا أنفسَهم مسيحيّين، لكنَّهم ليسوا أعضاءً في الكنيسة، بلْ، هُمْ (أعضاءُ مدرسةٍ فكريَّةٍ بلا إلهٍ ولا دِيْنٍ)- أي، هُمْ مُهَرْطِقون.

▪ مرَّةً أخرى، يرى جاستن أنَّ الهرطقاتِ قامتْ بتحريضٍ مِنَ الشياطين الذين عارضوا ابنَ الربِّ، الكلمةَ، لقرونٍ منَ الزمان. في زمانِ جاستن، كانتْ هذه الشياطينُ تُلهمُ الرومانَ اضطهادَ المسيحيّين، وكانتْ تُلهم أشخاصاً مثل مارسيون، وفالنتينوس إقامةَ هَرْطَقاتٍ.

نظريةُ أريانؤوسَ في الهرطقةِ:

• كانَ لعملِ جاستن تأثيرٌ عظيمٌ على أيريانؤوس. وكانَ في لُبِّ رأْيِ أيريانؤوس حولَ الهرطقةِ والخطِّ القويمِ فكرةُ خلافة المعلِّمين والتلامذة. استعارَ أيريانؤوس فكرةَ الخلافة منْ المعلِّمين الفالنتينيّين - الذين يرجِعون في نسَبهم الأكاديميِّ الى الرُّسُلِ ويسوعَ - وطبَّقَ هذهِ الفكرةَ على كِلا الطائفتَيْن؛ الطائفةِ التي عارَضَها، والمسيحيّين الذين ساندَهم.

• يرى أيريانؤوس أنَّ كلَّ الجماعاتِ الهرطقيَّةِ توجدُ في نوعٍ منْ شجرة نسَبٍ منْ المعلِّمين والتلامذة. على سبيلِ المثال، فالنتينُ قدْ تعلَّمَ منْ الغنوصيّين، وهو بدورهِ علَّمَ بطليموس، وهكذا دواليك. معَ ذلك، لا ترجعُ شجرةُ النسَبِ الفالنتينيَّة الى

يسوع؛ بلْ، يمكن أنْ ترجعَ الى سيمون ماجوس، وهوَ شخصيَّةٌ في العهد الجديد، في أعمال الرُسُل.

• في الفصلِ الثامن منْ أعمالِ الرُسُل، يظهر سيمونُ كساحرٍ يعرضُ على الرُسُل المالَ مقابلَ القوَّة العُليا للرُّوح القُدُس، وقد قرَّرَ المسيحيُّون فيما بعدُ أنَّ سيمونَ لا بُدَّ أنْ يكونَ المُهَرْطِقَ الأوَّلَ.

▪ وكما قدَّم أيريانؤوسُ سيمونَ، كانَ الشيطانُ مُلهِمَ سيمونَ ليصبحَ المعلِّمَ الأوَّلَ للغُنوص الكاذب، وكلُّ المعلِّمين الهراطقةِ كانوا خَلَفاً فكرياً لهُ.

• كذلك هاجمَ أيريانؤوسُ فكرةَ كوْن المسيح قدْ علَّمَ، أو، كشفَ تعاليمَ سريّةً لمْ تكن متوفرةً للجميع.

▪ يبدو أنَّ الفالنتينيين قدْ عرضوا، على الأقل، جُزءاً منْ تعاليمهم الرسوليَّةِ على الوجهِ الذي حُفِظَتْ به للمتقدمين دينياً من المسيحيّين - الرُّوحانيّين مِنْهم - كذلكَ لحظْنا أنَّ نصوصاً منْ قبيلِ الإنجيلِ المنسوبِ الى مريم، ووحْي بطرسَ، وكتابِ الأسرار لجيمس، زَعمتْ أنَّ يسوعَ قدْ أوحى حصْراً تعاليمَ خاصَّةً معيَّنةً عندما ظهر لواحدٍ أو اثنين منْ الرُسُل.

▪ معَ ذلك، أنكرَ أيريانؤوسُ أنْ يكون للرُسُلِ تعاليم سريَّة. ولوكانَ لهم هذا فانَّهم كانوا سيشاركونها معَ خُلفائِهم، الأساقفةِ. زعمَ أيريانؤوس أيضاً أنَّ يسوع والرُسُل ما كانوا لِيُعدِّلوا تعاليمَهم لمتلقِّين مختلفينَ. فإنْ كانَ الرُسُل قدْ أخفوا تعاليمَ معيَّنة عنْ مسيحييِ البدايةِ فانَّهم كانوا يكذبون على نحوٍ مؤثِّر على أولئك المسيحيّين، وهو أمرٌ، بالطبع، ما كانَ لِيفعلَه الرُسُلُ.

▪ بَلْ، أكدَّ أيريانوسُ أنَّ كلَّ التعاليمِ الرسوليَّةِ الحقيقيَّةِ بيّنةٌ ظاهرةٌ على نحوٍ منْ الوضوح منْ خلال الكلمة وهي متوفرة للجميع منْ خلال كلِّ تجمُّعٍ مسيحيٍّ حقيقيٍّ.

• كذلك ركَّز أيريانؤوس على الكتاب المقدَّس في جهدهِ في مناضلة ما سمّاهُ الهرطقاتِ المسيحيَّة. رأينا أنَّ الغنوصيين قدْ خلقوا كتباً مقدَّسة تعيد سرْدَ قَصَص

سِفْر التكوين، كما إنَّ مارسيون قدْ رفض العهدَ القديم جُملةً. ورداً على هذا، رفع أيريانؤوسُ منْ شأن واحدة منْ أولى صيغِ ما كان سيُصبحُ الكتابَ المسيحيَّ القانونيَّ، العهدَ القديمَ والجديدَ.

▪ رأى أيريانؤوس أنَّ على المسيحيّين أنْ لا يستعملوا إلّا الأناجيلَ الأربعة؛ وهي إنجيلُ متّي، ومرقص، ولوقا، ويوحنّا، منْ أجل فهم يسوع وتعاليمهِ. وإتَّهمَ ايريانؤوسُ جماعاتٍ هرطقيّة تعتمد كثيراً جداً على إنجيلٍ واحد، ممّا مالَ بهم نحوَ تشويهِ نظرتهم ليسوع. كذلك اعتبرَ أيريانؤوسُ رسائلَ بولصَ كتاباً مقدَّساً وجُزءاً منَ العهدِ الجديد.

• لكنْ، حتّى صيغة أيريانؤوس للكتابِ المقدَّس لم تكنْ كافيةً لمعارضيهِ الهراطقةِ المزعومين مثل الفالنتينيّين. لأنّ الفالنتينيّين استخدموا على نحوٍ أساسيٍ الكتبَ المقدَّسة نفسَها، على الرغْم مِنْ أنَّها قد فُسِّرَت على نحوٍ مغاير. ومنْ أجل الحُكم بحقيقةِ وكذبِ التفسيراتِ المتنافسة للكتاب المقدَّس، اعتمد أيريانؤوس على (قانون الإيمان)، وهو ملخَّصٌ للاعتقادات المسيحية التي زعم أنَّ الكنيسة قدْ تلقتْها من الرُسُل. يوضح قانونُ الإيمان مباديءَ المسيحيّةِ الأساسيّة، وأيُّ تعاليم تنتهك هذا القانون كانتْ تُعتَبر كاذبةً كذباً صريحاً.

رؤيةُ أيريانوسَ للمسيحيّةِ:

• كما رأينا، تنصُّ تعاليمُ الغنوصيّين والفالنتينيّين على أنَّ الله الأعلى النهائيَّ بعيدٌ عنّا لا يُدرَك بالأفهام، وأنَّه يفيض أبنيةً معقَّدة منْ الأيوناتِ المتعدِّدةِ. كذلك رأى هؤلاءِ في ما علّموه للنَّاس أنَّ الإلهَ الذي خلق هذا العالمَ هو إلهٌ أدنى درجةً وناقص. قَبِلَ أيريانؤوسُ بعضَ جوانب هذا الرأي، لكنَّهَ رفضَ أغلبَهُ.

• وافقَ إيريانؤوسُ على أنَّ الربَّ الأعلى النهائيَّ الذي دعاهُ باسمِ الأبِ، لا تحيطُ بِهِ العقولُ ولا تدركُهُ الأفهامُ (أنظر الشكل ٥). لكنْ، بدلاً منْ الأيوناتِ المتعدِّدة، يملكُ

الأبُ جانبَيْن أدنى نوعمّا هما: الإبنُ، أو كلمةُ الله، والرُّوحُ القُدُس الذي هوَ حِكمةُ الله أيضاً.

■ مَنْ يُعَرِّف البشريَّةَ بالأبِ هو ابنُ الله، ومِنْ خلالِهِ تجدُ البشريَّةُ قُرْباً منْ الأبِ. يقوم الابنُ أيضاً بتنظيم وتوجيه الكون الطبيعيِّ الذي نعيشُ فيه: وكانَ الصانعَ لهذا العالم.

■ في الوقت ذاتِهِ، الرُّوحُ القُدُس مسؤولٌ عنْ القوى الروحيَّةِ التي تخدم الله. والرُّوحُ القُدُس حاضرٌ في المسيحيّين.

● الى جانب الأبِ، والابنِ، والرُّوحِ القُدُس، اعتقد أيريانوُوس بوجود العديد منْ الكائناتِ السماويّة الأُخَر تقع بَيْنَ الله والبشَرِ. يحيطُ بالأرض سبعةُ أجواءٍ، أو سبعُ سماواتٍ، تسكنها قوىً متعدّدةٌ، وملائكةٌ ورؤساءُ ملائكة. كلُّ سماءٍ لها قوّةٌ مرشدة محدَّدة. وأعلى هذهِ السماوات هي الحِكْمةُ وما تبقَّى هي الفهْمُ، والنصيحةُ، والاستقرارُ، والمعرفةُ، والتقوى وخوفُ الرُّوح القُدُس.

● كذلك طوَّر أيريانوُوس رأياً في الخلاص استجابةً للمسيحيّين الآخرينَ.

■ الغنوصيُّون، والفالنتينيُّون، والإنجيلُ المنسوب الى توماس، كلُّ هؤلاءِ اعتقدَ أنَّ يسوع ينقذ النَّاس على نحو أساسٍ بكشفهِ لنا عنْ الغُنوص (المعرفة): يُحدثُ المسيحُ لدينا انتباهاً لله الأعلى، ويرشدنا الى فهم طبيعتنا الحقَّةِ ككائناتٍ رُوحانيّةٍ في هذا العالمِ الماديّ.

■ أيريانوُوس، بالمقارنة، أكدّ أنَّ ابنَ الله أصبحَ بشراً منْ أجل جعْلِ البشَرِ مقدَّسينَ ومكرَّسينَ لعبادة الله. أصبحتْ كلمةُ الله كائناً بشريّاً حقيقيّاً، وهذا البشرُ - يسوع - قد أُختبِرَ بالألم وبالموت. لكنَّ الكلمةَ انتصرتْ على هذين الأمرَيْن بالبعْث منْ الموت. وكما اعتقد أيريانوُوس، أصبحَ البشرُ فاسدين في المستوى الأخلاقيِّ والطبيعيِّ، وكان الهدفُ منْ تجسُّد الله هو أنْ يجعلنا مقدَّسين.

■ لقدْ اعتقد أيريانوُوس أنَّ يسوع قد مرَّ بكلِّ مراحل الحياة البشريَّة - الطفولةِ، والشبابِ، والكهولةِ، والشيخوخةِ لكي يتمكنَ منْ تقديس كلِّ البشرِ صغاراً وكباراً.

■ دعا أيريانئوس ما قدْ أنجزه يسوع (تلخيصاً): عاش يسوع مثلَ آدم لكنَّه رفع الضرر الذي أحدثه آدم. على سبيل المثال، كانَ آدم قدْ خُلقَ منْ تُربةٍ عذراء ووُلِد يسوع لإمرأة عذراء. كان أبو آدم هو الله الذي صنعه، وأبو يسوع الحقيقيُّ هو الله. وعلى هذا النحو، كانَ يسوع آدمَ جديداً. على الرَّغْم منْ أنَّ آدم القديم قد ارتكب خطيئة وجلب للبشر الفساد والموت، آدمُ الجديد - يسوع - كان بلا خطيئةٍ، وهكذا، أوصل البشرَ الى القداسةِ والحياة.

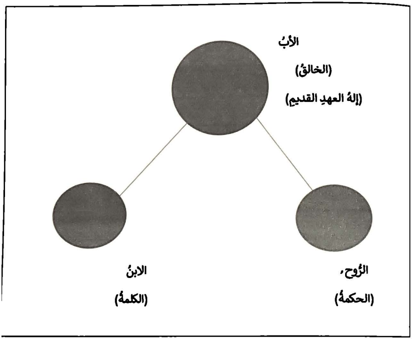
• الغنوصيّون والفالنتينيّون، والمسيحيّون الآخرون الذين درسنا، لحدِّ الآن، يعتبرون نفوسَنا الحقيقيّة هي نفوسُنا الرُّوحانيّة لا غيرها. أجسادنا ليست جزءاً منْ نفوسنا الحقيقية، وستفنى وتتلاشى في العدم. وبالمقارنة، اعتقد أيريـانئوس أنَّ أجسادنا هي جوهريّة لماهيَّتِنا. لقد كان على ابن الربِّ أنْ يأتي بجسَدٍ حقيقيٍّ منْ اللحم ليجعلنا مقدَّسين ويمنحنا حُزمةً. وإنَّ البعثَ منْ الأموات سيكون بعثاً بجسدٍ منْ لحمٍ ودم، بالجسدِ الذي نعيش فيه الآن.

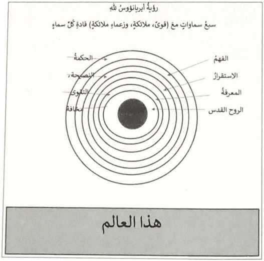
• بَعْثُ اللحم (الجسد) ضروري لأنَّ مملكة الله نفسَها ليستْ رُوحيّةً أو غيرَ ماديّة. ستكون عالماً طبيعياً (ماديّاً). والحقيقةُ هي أنَّها ستكون هذا العالمَ وقدْ حوَّله الله على نحوِ المعجزة.

• والبشرُ الذين حازوا الخلاص، بأجساد حقيقيَّة، سيعيشون في هذهِ المملكة الأرضية ويتمتعون بخِصبِها. وسينشأون في حُبِّ لله ومعرفتهِ. سيَروْن اللهَ في أجسادهم.

■ بعضُ المسيحيين، على الخصوص الناس المقدَّسون، سيعرجون الى السموات ليعيشوا هناك. لكنْ للأبديَّة، سيسكن النَّاسُ مدينةَ الله الجديدة على الأرض.

الشكل (٥) رؤية أيريانؤوس لله





-١٨-

جعلُ الغُنوصيّةِ خطأً عامًّاً قويماً

جعلُ الغُنوصيّةِ خطأً عامًّا قويماً

رأينا في المحاضرة السابقة أنّ المعلِّمين والزعماءَ المسيحيّينَ منْ قبيل جاستن الشهيدِ وأيريانؤوس قدْ ناوأوا صيَغاً من المسيحية منافسةً لهم بوساطة ابتداعِ مفاهيم الهرطَقة والأُرثوذوكسيّة (الاتجاه القويم). رفضَ أيريانؤوس بشدّة فكرة أنّ يسوع أو الرُسُل قد احتفظوا بأيِّ نوع من التعاليم الخاصة من أجل المسيحيّين المتقدّمين في فهمهم دينَهم. كلُّ ما دعاه أيريانؤوس (غنوصاً حقيقيّة) - معرفةً حقيقيّةً - كان متوفراً للعامّة في مواعظ الأساقفةِ في خلافة رسوليّة. تابعَ مسيحيّون آخرونَ أيريانؤوسَ في إطلاق اسم الهراطقة على الغنوصيّين والفالنتينيّين، لكنَّهم أدركوا جاذبيةَ فهمٍ أكثرَ تقدُّماً للعقيدة المسيحيّة. في هذه المحاضرة، سنناقش رأيَيْ مُفكرَيْن مسيحيَيْن قديمَيْن من المناهضين للغنوصيّة، معَ ذلك، فقدْ عرضا مسالكَ مسيحيّةً بديلةً للغنوص، وهذانِ المفكرانِ هما كليمنتُ الاسكندرانيّ وأوريجين.

كليمنتْ الإسكندراني:

- كان كليمنتْ (١٥٠-٢١١) المعاصرَ الأصغر عُمْراً لأيريانؤوس الذي كان يعلِّم في الاسكندرية، في مصر في العقود الأخيرة من القرن الثاني الميلادي.
- وافق كليمنتْ على القول بأنَّ ليسَ كلُّ المسيحيّين يمكنهم الوصول الى المستوى ذاتهِ منْ الكمال الأخلاقيِّ والفهم العقليِّ للعقيدة والإيمان. لكنْ على خلاف الفالنتينيّين - الذين قسّموا المسيحيّين الى أحياء ورُوحانيِّين (spiri، اعتقد كليمنتْ أنَّ المسيحيّينَ في موضعَيْنِ مختلفَيْنِ منْ مسارٍ واحدٍ يُخرج منْ الجهل والخطيئة الى (الغنوص) والخلاص. كلُّ شخصٍ لديهِ الإمكانية على هذه الرِحْلة، على الرغم مِنْ أنَّ القلَّةَ همْ مَنْ يصل الى المرحلة النهائيّة للمعرفة (الغنوص) الكاملة،

ويصيرون غنوصيّينَ (عُرَفاء) حقيقيّين.

• في عصرِ كليمنتْ، منْ الناحية العمليَّة، ليس ثَمَّةَ مَنْ وُلِد وتربّى مسيحيّاً؛ وهكذا، كلُّ شخص قدْ بدأ حياته في حالة منْ الخطيئة والجهل. لكنْ، رأيُ كليمنتْ أنَّ كلمةَ الله أرشدتْ النَّاس الى المسيحيَّة بطريقتين: الأولى من خلالِ الكتابِ المقدَّس والتراثِ اليهوديّ، والثانيةِ من خلالِ الاثنَيْن معاً، لكنَّ الكلمةَ لا تكون حاضرةً على النحوِ التامّ الّا في يسوعَ المسيح.

• عندما يصير النَّاس مسيحيّين فهم يبدأون عملية نُمُوّ. في المراحل الأولى، تعلِّم كلمةُ الله المسيحيّين كيفيةَ إنجاز تحسُّن أخلاقي. في هذه العملية، يكتسب الناس ما يسميه كليمنتْ (الإيمان - faith)، بمعنى الاعتقاد بالتعاليم الأساسيَّة المسيحيَّة التي تعلنها الكنيسة عَبْرَ العالَم. وعلى غرارِ أيريانؤوس، اعتقد كليمنتْ بأنَّ يسوع والرُسُلَ قد أسّسوا قاعدةً لما يجب أنْ يؤمن بِهِ المسيحيُّون، وهي ما يسمّيه (القاعدة الكنسية).

▪ كذلك شجّع كليمنتْ المسيحيّينَ على التحرُّكِ الى ما وراءَ الإيمان الى الغُنوص (المعرفة) الحقيقيّة، وهيَ الفهمُ الأعمقُ لأسرارِ الكنيسة. في اعتقاد كليمنتْ، هذه المعرفةُ الحقَّة مؤلَّفةٌ على نحو رئيسٍ من فَهمٍ أكثرَ رُوحانيّةً للكُتب المقدَّسة.

▪ النَّاسُ الذين ليسَ لديهم الاّ الإيمان يفهمون الكتابَ المقدَّس حَرفيّاً، لكنْ مَنْ لديهم المعرفة (gnosis) يتعلمون أنْ يقرأوا الكتابَ المُقدَّس على نحوٍ رَمْزيّ، وأنْ يعثروا على العديد منْ المعاني فيه.

• قَدَّم كليمنتْ نفسَهُ باعتباره قادراً على نحوٍ مِنْ التفرُّد على نقلِ المسيحيّين الراغبينَ من الإيمان البسيط الى معرفةٍ متقدمةٍ، لأنَّهُ زَعَم تلقيَّهُ تعاليمَ سريّةً ليستْ مدوَّنة في الكُتب المقدَّسة مِنْ خلال خلافة الرُسُل، لكنْ، على خلافِ التعاليمِ السِّريَّة التي عرضها الغنوصيُّون والفالنتينيّين، زعمَ كليمنتْ أنَّ الغنوصَ التي عرضها تُكمّل الإيمانَ ولا تنتهك القاعدةَ الكنسيّة. لقدْ كانتْ غُنوصاً أورثوذكسية (قويمة).

حياةُ أوريجين:

• أصبح أوريجين (١٨٥-٢٥٤م)، وهو مِنَ الإسكندرية أيضاً، واحداً من اللاهوتيّين الأكثر بروزاً في الكنيسة القديمة. وقد طوّرَ رؤيتَهُ اللاهوتيّة، وهذا جزءٌ منْ سبب شهرتِهِ، منْ أجلِ خلق بديلٍ للأسطورة الغنوصيَّة والفالنتينيَّة.

• كان أوريجين الشابُّ معلِّماً ذا كاريزما، واشتهر بمعارضته للفالنتينيّين على نحوٍ خاصّ. وعلى الرغْم منْ أنّه دافع عما يُدعى المسيحيَّة الأرثوذكسية (القويمة) ضدَّ الغنوصيّين ووالفالنتينيّين و(هراطقة) آخرين، وصلَ في آخِرِ الأمرِ الى صراعٍ مع أسقف الاسكندرية وطُرد من الكنيسة الإسكندرانية.

• غادرَ أوريجين الاسكندرية واستقرَّ في قصاريا ماريتما على الساحل المتوسطيّ لفلسطين. وهناك، فتح مدرسة جديدة، وككاهن، كان يعِظ يومياً في الكنيسة. في أعوامِ العقدِ الخامس منْ العام ٢٥٠م أُلقي القبض عليه في حقبة اضطهاد للمسيحيين. وفي الآخِر، أُطلق سراحهُ منْ السجن لكنَّ المعاملةَ القاسية التي تلقّاها أوهَنتهُ وماتَ بعدَ بضْعة أعوامٍ.

• يكشف هذا السردُ حولَ حياة أوريجين عنْ علاقة معقدَّة معَ الكنيسة المنظَّمة. منْ جانبٍ، كان أوريجين يشبه قليلاً ايريـانؤوس: فهو مخلِصٌ للكنيسة، وخصْمٌ للهراطقة وأحدُ رجال الدين. من جانبٍ آخرَ، كان أيضاً شبيهاً بـ(كليمنتْ)، وكذلك، بفالنتينوس، فقدْ كان مكرِّساً نفسَه للتعليم المتقدِّم، ومتحمّساً للمساعدة على تعريف الناسِ بالغنوص العليا، وغيرَ راغبٍ في إنهاء الحوار حولَ الأفكارِ الصعْبةِ.

أُسطورةُ أوريجينَ المسيحيّةُ:

• اجتذب أوريجين المسيحيينَ الذين رغبوا في مقاربةٍ أكثرَ عقلانيّةً، وأقلَّ في ضِيق أُفقِها للحقيقة المسيحيَّة، لكنَّه أيضاً كانَ قدْ أدرك أنَّ بعض النَّاس قدْ اجتذبتْهم أساطيرُ الغنوصيّين وأتباعِ فالنتينوس. وكردٍّ منهُ، حاول أنْ يأتي بأسطورةٍ

أفضلَ لما سُمِّيَ المسيحيةَ الارثوذوكسية - قصةٍ أفضلَ عنْ الخلقِ، والهبوطِ، والخلاصِ. وفي كتابٍ مدهشٍ باسم (حولَ المباديءِ الأولى)، وضعَ رؤيتَهُ الشاملةَ للحقيقة المسيحيَّة.

• تشبه قصةُ أوريجين عنْ الخلاص قصةَ الغنوصيّين منْ جهةِ إنَّها قصَّة عنْ سقوطٍ منْ حياة مباركة في مكانٍ ما الى حياةٍ في هذا العالم، وبعدَ ذلك عودةٌ للإتحاد مع الله. لكنَّ قصةَ أوريجين تؤكِّد وفرةَ الحُبِّ الإلهيِّ وحُريَّةَ الكائنات البشريَّة - يريد اللهُ أنْ يخلِّص الجميعَ ويبدو أنَّ الجميع سيُخَلَّصون. وقصةُ أوريجين لا تجعلُ منْ هذا الكون غلطةً ولا يحكمه فيها إلهٌ أدنى معادٍ. بلْ، هذا الكونُ هو خلْقٌ جيِّد قدْ صنعهُ اللهُ ليساعدَنا على العودة اليه.

• على غرارِ آخرين كُنّا التقينا بهم، اعتقد أوريجين أنَّ الله واحدٌ ومتعدِّدٌ أيضاً. ثمَّةَ إلهٌ واحدٌ، لكنَّ الأبَ الذي لا تدركهُ الحواسُّ ولا تُحيط بِهِ الأفهامُ يجعل منْ نفسهِ معروفاً منْ خلالِ كلمتِهِ، أو ولَدِهِ، الذي يوجد معهُ في سرمديَّتِهِ. وعلى شَبَه بذلك، ثمَّةَ رُوحُ قُدُسِ اللهِ وهو الحضورُ المباشرُ للهِ وسْطَ المسيحيّين. أصرَّ أوريجين على أنَّ الإبنَ والرُّوحَ القُدُس ليسا فيضاً مثلَ الأيوناتِ التي تحدَّثَ عنها الغنوصيُّون، بلْ، هما جانبانِ متمِّمانِ للهِ موجودانِ معهُ على نحوٍ سرمديٍّ.

• وقبلَ أنْ يظهر هذا الكون الى الوجود بزمنٍ طويل، خلقَ اللهُ، وحَكمَ، الكثيرَ منْ الكائنات العاقلة. وقدْ كانتْ هذهِ عقولاً خالصةً تتأمل اللهَ منْ خلال كلمتهِ. وكانَ سببُ وجودها أنْ تتعلَّم كلمةَ الله. معَ هذا، فقدْ تمتعتْ هذهِ الكائناتُ العاقلة بإرادةٍ حُرَّةٍ وكانتْ تستطيع أنْ تختار الابتعادَ عنْ الله، وهذا مافعلته؛ بدأتْ التخليَ عنْ تأمُّل الله. وكانَ هذا هو أصلُ الخطيئة: انصرافُ الكائناتِ العاقلة عنْ معرفة الله. ولأنَّ اللهَ يحبُّ العقول أراد إعادتَها الى تأمّلِهِ. ومنْ أجلِ هذا خلقَ هذا الكونَ الماديَّ بوساطة كلمتهِ. وبوضعِ اللهِ العقولَ في أجسادٍ ماديَّة، كانَ منْ شأنِ هذا أنْ يعلِّمَها كيفية التغلُّب على رغباتها الجسَديَّة منْ قبيلِ الجشع والشهوة. وكانَ منْ شأنِ الكائنات

العقلانيّة أنْ تتحسنَ في المستوى الأخلاقيِ، وتتقدَّمَ في معرفةِ الحقيقةِ الفلسفيّة والدينيّة، وتعود على نحوٍ تدريجيٍ الى تأملِ الله.

• هوتْ الكائناتُ العقلانيّة عنْ وجودها الأصلي معَ الله بدرجاتٍ متفاوتةٍ، وهكذا، فقد احتاجتْ الى أنْ تُشفى وتُعلَّم بطُرُقٍ مختلفة. خصَّصَ اللهُ كلَّ واحدٍ منْ العقولِ الساقطة لجسَدٍ ووضعهُ في الكون الذي سيكون الأفضلَ لهُ منْ جهةِ التعليم.

▪ أصبحتْ العقولُ الأقلُّ في ابتعادها عنْ اللهِ زعماءَ للملائكةِ وملائكةً، وأرواحاً صالحةً أُخَر. أمّا العقولُ التي كان سقوطها متوسطاً، معتدلاً في درجتهِ فقدْ صيَّرها أجساماً سماويّةً منْ قبيلِ الشمسِ والقمرِ والكواكب والنجوم. أمّا العقولُ التي أبعدتْ في سقوطها فهي الآن الشيطانُ وذريّتُه.

▪ كان انصرافُ البشر عنْ الله أقلَّ منْ الشياطين مدىً لكنّه بقدْرٍ أكبرَ من الملائكة والكائنات السماويّة. فحدَّد اللهُ لكلِّ واحد منّا نحنُ البشَرُ أنْ يولد تماماً في الجسَدِ المحدَّدِ والزمانِ والمكانِ المحدَّدَيْنِ لكي نستطيع أنْ نبدأ عملية تحسين نفوسنا في المستوى الأخلاقيِ وعمليةَ التعلّم في المستوى العقليِ فيما يتعلق بالله.

• مع ذلكَ، عقلٌ واحدٌ لم يبتعد عنْ تأُمل الله منْ خلال كلمتهِ. والحقُّ، أنَّ هذا العقلَ أحبَّ اللهَ ودرَسَ الكلمة بدرجةٍ من القوّة بحيث أصبحَ هو والكلمةُ ممتزجَيْن. أُصبحَ هذا العقلُ نَفْسَ يسوع. وبعد أنْ اتَّحدتْ كلمةُ اللهِ معَ هذا العقلِ، استطاعتْ دخولَ الجَسد البشري والعيشَ والموتَ كيسوع. ماتَ ابنُ الله من أجل خطايا كلِّ الكائنات الهابطة: وقد تبيَّنَ لها كيف تعيش حياةً ذاتَ أخلاق؛ وعلَّمها أموراً تتعلق بالأب. وعلى هذا النحو، جعلَ ممكناً للكائنات الهابطة أنْ تُصلحَ حياتَها وتعودُ الى معرفة الله.

• كانَ أوريجين واعياً لمسألة كونِ القليلِ منْ الناس قدْ صاروا مسيحيّين فعْلاً وبدأوا عودتَهم الى الله، وأنَّ القليلَ منْ المسيحيّين، إن وُجِد أحد، قدْ وصل الى مستوى تأملِ اللهِ الذي مارسوه منْ زمن بعيد عندما كانوا عقولاً خالصة، وسببُ ذلك هو أنَّ النَّاس

يمتلكون إرادةً حُرَّةً ويمكنهم اختيارُ حياةٍ صالحة ومتابعةُ معرفة الله. لكنَّ اللهَ يُحبُّ كلَّ الكائناتِ العاقلةِ ولا يتخلى عنها. وكمُعلمٍ جيد، يمكن أنْ يرشد الناس الى حُبّهِ ومعرفتهِ، لكنَّه لا يُجبرُهم.

• وهكذا، رأى أوريجين أنَّه بعدَ نهاية العالم ستكون ثَمَّة عوالمُ مستقبليَّةٌ، وفيها ستستمرُ العقولُ الهابطة في رحلتها عائدةً الى الله. في هذهِ العوالم المستقبليَّة، ستعكسُ التجاربُ التي تعيشها تلك العقولُ الكيفيَّةَ التي قامتْ بأدائها لحدِّ الآن في إعادة التربية.

▪ ولأنّ الله لا يُجبر الكائناتِ العاقلةَ على حُبّهِ، فسيستغرق الأمْرُ زمناً طويلاً جداً ليعيدهم اليه. ولكنَّه سيعيدهم اليه في آخِرِ الأمر. والنتيجةُ الخاتمةُ ستكون ما سمّاه أوريجين (apokatastasis) – عودةَ كلِّ الكائنات العاقلة الى التأمُّل الأبديِّ في الله.

• كانتْ رؤيةُ أوريجين قصةً جميلةً عن الابتعادِ عنْ الله والعودةِ اليهِ. تفسّر هذه الرؤيةُ سببَ معاناتنا وسببَ وجود العالم – لفائدتنا البعيدة الأمد. وهذهِ الرؤيةُ تطمئِن النَّاسَ بأنَّ الله يحبُّهم ويريد منهم أنْ يحبُّوه. وهي تحافظ على الإرادة الحُرَّة للإنسان، وأيضاً على حُبِّ الله لجميع مخلوقاتهِ.

▪ لكنَّ خطةَ أوريجين الكبيرة أُظهرتْ بعضَ الأسئلة المقلقة لدى مسيحيّين آخرين. فعلى سبيل المثال. هل تعني العودة (apokatastasis) عودةَ كلِّ العقول الهابطة الى الله – بما في ذلك إبليس والشياطين الآخرين؟ وأين يكون المحلُّ المناسب لبعْث الجسَد في رؤية أوريجين الكونيّة ذاتِ العوالم المتعددة؟ وبعدَ العودة، هل يمكن أنْ نبتعد عنْ الله مَرَّةً أُخرى؟

▪ يبدو أنَّ أوريجين لديه اعتقادٌ بأنَّ الوضعَ في العودة سيكون شبيهاً بالحال القائمة عندما تأمّلتْ العقولُ الله لكنَّها ليستْ بالشَّبَهِ الدقيق. سيكون للعقول الأجسادُ والترتيبُ الهَرميّ الذي سيأتي بالثباتِ والاستقرار. وهكذا، فهي ستُحِبُّ الله على نحوٍ أبديٍّ – بِحُريَّةٍ، ولكنْ بلا خوفٍ منْ الابتعادِ عنهُ.

-١٩-

الغُنوصيّةُ واليهوديّةُ

الغُنوصيّةُ واليهوديّةُ

لَمْ يكنْ الأساقفةُ والمعلِّمونَ المسيحيّونَ الزعماءَ الدينيّينَ الوحيدينَ الذين قلقوا ممّن سُمّوا هراطقةً في آخر العصر القديم. في القرن الثاني، تماماً حين كان أيريانئوس وكليمنتُ ينتقدان الغنوصيّين والفالنتينيّين، اشتكى أيضاً حاخاماتٌ يهودٌ منْ (طائفيّين) بلْ، ومنْ (هراطقة) قدْ زعموا أنَّ ثَمَّةَ (قوّتَيْنِ في السماءِ) - ليس إله واحد في السماء، بلْ، إلهان. وعلى أساسِ هذه الشكوك، ودلائلَ أُخَر، رأى عددٌ منْ المؤرّخين أنَّ الغنوصيّين الأوائلَ كانوا منْ اليهود. أيْ، يزعمُ هؤلاءِ المؤرّخون أنَّ المدرسةَ الفكريَّةَ الغنوصيَّة قدْ انطلقتْ كحركةٍ دينيَّةٍ يهوديَّةٍ، وأنَّها لمْ تُدخِلْ يسوعَ في تعاليمها، وتبدأُ في اتّخاذِ شكلٍ مسيحيٍّ إلّا فيما بعدُ. في هذهِ المحاضرةِ نستكشفُ علَّةَ كونِ العديد منْ العلماء يعتقدون بالأصْلِ اليهوديِّ للغنوصيّةِ.

القُوى الإلهيَّةُ المتعدِّدةُ:

• صادفْنا فيما سبقَ يهوداً منْ القدامى مَمَّنْ تخيَّلوا اللهَ كواحدٍ وكمُتَعدِّدٍ في الوقت ذاتِه، كما فعَلَ الغنوصيُّونَ.

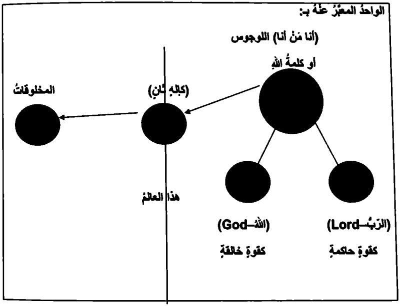
▪ على سبيل المثال، سبقَ الفيلسوفُ اليهوديُّ فيلونُ الإسكندرانيّ الغنوصيّين بتصويرِهِ اللهَ مكوَّناً منْ قوىً متعددةٍ، وجوانبَ متعدِّدةٍ، وبقولهِ بأنَّ إلهاً ثانياً أدنى قدْ خلقَ هذا الكون (الشكل ٦). وكان فيلونُ قدْ مات في زمانٍ سبقَ انطلاق المدرسة الفكريَّة الغنوصيَّة، لكنَّ الأمرَ الذي يوشك أنْ يكونَ أكيداً هو أنَّ الغنوصيّين قدْ قرأوا بعض أعمال فيلون. والمؤكَّدُ، أيضاً، أنَّ فالنتينوس وأتباعَهُ قدْ قرأوا بعضَ هذه الأعمال.

▪ وشاهدْنا، أيضاً، أنَّ الترجمةَ الآراميَّةَ للتوراة (المنسوبة على نحوِ الخطأ الى جوناثان بن عوزيل، وهي عملٌ متأخرٌ عنْ زمان الغنوصيّين) عرضتْ اللهَ باعتبار أنَّ له

تجلياً أو جانباً أدنى يُدعى (Memra) أو (كلمة). وتقول هذه الترجمة بأنَّ الكلمةَ هي مَنْ كانَ يتمشّى في جنَّة عدْن وهي مَنْ سبَّبَ الطوفان.

• منْ ألهمَ اليهودَ منْ قبيلِ فيلون ومؤلِّفِ الترجمةِ الآراميَّة للتوراة أنْ يقسِّموا الله الى قوىً متعدِّدةٍ بدَلاً منْ أنْ يفهموه في هيأة إلهٍ واحدٍ؟. في حالة فيلون لعبتْ الفلسفةُ اليونانيّة دوراً مُهمّاً.

الشكل (٦): رؤية فيلون الاسكندراني لله



▪ تعلَّمَ فيلونُ من قراءتِهِ إفلاطونَ بأنَّ اللهَ الأكثرَ كمالاً، ومصدرَ كلِّ الوجود يجبُ أنْ يكون رُوحانيّاً بدرجةٍ عالية، وأنْ يكونَ بعيداً عنّا، ولذلك، خلقَ الإلهُ الصانعُ هذا العالمَ. وافترضَ فيلونُ أنَّ موسى قدْ تحدَّثَ بهذا المفهوم في سِفْر التكوين.

▪ ومُحتَملٌ أنّ مؤلّف ترجمةِ التوراةِ الآراميّة المذكورة لمْ يكنْ قدْ قرأ الكثيرَ منْ الفلسفة اليونانيّة، لكنْ، منْ الواضح أنّهُ كانتْ تُقلقهُ مسألةُ أنّ الإلهَ الذي يمشي في جنّة عدْن ويدمّر البشريةَ بالطوفان لا يمكن أنْ يكون اللهَ الكاملَ النهائيّ؛ وإنّ هذا لا بُدّ أنْ يكون جانباً إلهيّاً أدنى لله.

▪ كذلك يزوّدنا الكتابُ المقدّس اليهوديُّ بمادّةٍ للتفكيرِ بالله باعتباره قوىً متعدِّدةً. على سبيل المثالِ، تأمّلْ قصةً وُجدتْ في سفر التكوين (١٨). وهنا يخبرنا المؤلّف الكتابيُّ بأنّ الربّ ظهر لإبراهيمَ، لكنّ إبراهيمَ، واقعاً، رأى ثلاثةَ رجالٍ. استنتج فيلونُ أنّ هؤلاءِ الرجالَ الثلاثَ لا بُدّ أنهّم يمثّلون اللهَ النهائيّ وقوتَيْهِ، القوةَ الخلاّقة وقوةَ الحُكم. وثَمّةَ مقاطع أُخَر في الكتاب المقدّس يرى فيها النّاسُ اللهَ في شكلٍ أو أشكالٍ متعدِّدةٍ.

▪ جاءَ اليهودُ القدامى بتفسيراتٍ كثيرة لِمثلِ هذهِ الرؤيا. رُبما رأى البشرُ ملاكاً؛ رُبما تكون الأشكالُ المتعددةُ للهِ أشكالاً متعدِّدةً للهِ الواحدِ؛ أو رُبما ثمّةَ جوانبُ دنيا للهِ يمكن أنْ يراها الناس، في حين يظلُّ اللهُ ذاتُه غيرَ مرئيٍ. وهذه الفكرةُ الأخيرةُ ليستْ ببعيدة جداً عنْ الفكرة الغُنوصيّة حولَ الرُوحِ النهائيِ غيرِ المَرئيِ، والأيوناتِ المنبثقةِ منْ الله.

افتراضُ الأصولِ اليهوديّةِ للغُنوصيّةِ:

● كما نعرف، الدينانِ اللذانِ أصبحا فيما بعدُ المسيحيّةَ واليهوديّةَ كلُّ واحدٍ منهما ابتدأ وجودَهُ وَسَطَ اليهوديّة في القرْن الأوّل. اليهودُ الذين ندعوهم المسيّحيين الأوائلَ - بطرس، وبولص، وجيمس، ومريم المجدليّة، وآخرينَ - سمعوا رسالةَ يسوع ورأَوْه بعدَ موتِهِ. استنتج هؤلاءُ أنّه كان المسيحَ (Messiah)، في اليونانيّة (christ)، الذي كان اللهُ قدْ وَعدَ بإرسالهِ الى بني اسرائيل. وبهذا المعنى تكون كلُّ الجماعاتِ المسيحيّة قَدْ نشأتْ في اليهوديّةِ.

• يرى أنصارُ فكرةِ الأصولِ اليهوديّةِ للغنوصيّةِ أنَّ اليهوديّةَ قدْ طوّرتْ الأُسطورةَ الغنوصيّةَ دونَ أنْ يكون لها لقاءٌ أو معرفةٌ بيسوع. جاءَ اليهودُ بقِصّةِ الرُّوحِ غيرِ المرئيّة، وباربيلو، والحكمةِ، ويالدابوث، ولمْ يعرف الغنوصيُّون شيئاً عنْ يسوع فيضمّونه الى أسطورتِهم الاّ فيما بعدُ. إذاً، المدرسةُ الفكريّة الغنوصيّة بدأَتْ يهوديةً وأصبحتْ مسيحيةً لاحقاً.

• وسَطَ الحُجَجِ المستعملة في جانب هذا الموقفِ الحُجّةُ القائلةُ بأنَّ الكثيرَ منْ الكتابات الغنوصيَّة، منْ قبيل كتاب الأسرار المنسوب الى يوحنّا، ووحْي آدم، وغيرِ ذلك، مرتبطةٌ بقوّةٍ معَ الكتاب المقدَّس اليهوديّ، خصوصاً سِفْرَ التكوين. النصوصُ الغُنوصيَّةُ تعيدُ سرْدَ قصَّة سِفْر التكوين مرّاتٍ عديدة. والأكيد أنّها غالباً ما (تُصحِّح) الأغلاط التي وقع فيها موسى، لكنّها قدْ اعتقدتْ بوضوحٍ أنَّ هذا هو الموضعُ الذي يُعثَر فيهِ على الحقيقةِ الدينيّة. وعلى وجْهِ الاحتمال، اليهودُ همْ أفضلُ المرشَّحين للنّاس الذين يركّزون على سِفْر التكوين.

• وأكثر ممّا تقدَّم، العديدُ منْ هذه الأعمال الغنوصيّة نفسِها تفتقدُ الملامحَ المسيحيّة، أو، إنَّ ملامَحها المسيحية يُشَكُّ في كونِها هامشيّةً.

▪ على سبيلِ المثالِ، كتابُ الأسرار المنسوبُ الى يوحنّا يقدِّمُ نفسَهُ باعتبارِهِ وَحْياً منْ المخلِّص الى الرسول يوحنّا بعدَ موتِ وبعثِ المسيحِ. لكنْ في بدايةِ ونهايةِ الكتاب فحَسْبُ، يُعرِّفُ المخلِّصُ الذي يتحدَّث على نحوٍ صريح بأنّه يسوع كما يُعرِّفُ المُتلقِّي للوحْي بأنّه الرسولُ يوحنّا. والخطابُ الطويلُ بينَ البدايةِ والنهايةِ يحتوي القليلَ منْ العناصر المسيحيَّةِ على نحوٍ صريحٍ، إنْ وُجِدَتْ هذهِ العناصرُ.

▪ اعتقد العلماءُ بأنَّ الوَحْيَ ذاتَه كانَ قدْ أَلّفه واحدٌ، أو أكثرُ منْ الغنوصيّين اليهود، وبعدَ ذلكَ، صيَّرهُ أحدُهم مسيحيّاً بوساطة اختلاقِهِ قصَّةً إطاريّةً حولَ الأسطورة الغنوصيَّة.

• كما لحظ العلماءُ أيضاً أنَّ العديدَ منَ الأفكارِ والحوادثِ في النصوصِ الغنوصيّة لها ما يُشبهها في الكتاباتِ اليهوديّة، وعلى وجهٍ خاصٍ، في الكتاباتِ الحاخاميَّة. وقد لحظنا الشَّبَهَ بينَ حقيقة الحكّام والترجمةِ (المنسوبة خطأً الى جوناثان) الآراميَّة. لكنَّ ثَمَّةَ أمثلةً أُخَر فيها، مثلاً، تشبهُ إعادةُ الرواياتِ الغنوصيّة لخلْقِ البشريّة أو لقصَّةِ الطوفان، تُشبهُ، أفكاراً عُثِرَ عليها في النصوصِ اليهوديَّةِ.

• وبالطبعِ، المَلمحُ الأكثرُ بروزاً للكتابةِ الغنوصيَّة فيما يتعلق باليهوديَّة هو أنَّ الغنوصيّين عرّفوا إلهَ سِفْر التكوين - الإلهَ الذي عبدَهُ اليهودُ - بأنّه يالدابوث الجاهلُ والخبيثُ. لِمَ قرّر اليهودُ بأنَّ إلهَ أجدادهم لمْ يكنْ اللهَ الحقيقي، بلْ هو إلهٌ معيبٌ غيرُ كامل ومُعادٍ للبشريَّة؟

• كانَ منْ شأنِ الإفلاطونيَّةِ أنْ تُقنع بعضَ اليهود الذين يتكلمون باليونانيَّة منْ قبيلِ فيلون بأنَّ أيَّ إلهٍ حقيقيٍ لا بُدَّ أنْ يكون بعيداً، ورُوحانياً في أقصى درجاتِ الرُّوحانيَّة ولا تعتورهُ انفعالاتٌ منْ قبيلِ الغضب والندم. ليس إلهُ سِفْر التكوين بعيداً ولا روحانياً على نحو خاصّ، وهو يغضبُ على البشَر ويدمِّرُ العديد منهم بالطوفان. لذلك، رُبَّما استنتجَ بعضُ اليهود أنَّ إلهَ سِفْرِ التكوين كانَ إلهاً غيرَ كاملٍ، وُربما تأمّلوا في إلهٍ أعلى.

• يشير العلماءُ أيضاً الى التاريخ المُدمّر لليهود في القرنين الأوّل والثاني الميلاديين - معَ تمرُّداتٍ متكرّرةٍ ضدَّ الحكمِ الرومانيِّ والتدمير الثاني للمعبد - باعتبارها تفسيراً للمَيْل نحو الانصراف عن إله أجدادهم. وبفضلِ الإفلاطونيّة، كانَ اليهود قد مالوا الى مساءَلة إلهِ الكتاب اليهوديِّ فرأَوْا أنّ ذلك الإلهَ مغرورٌ ومتغطرسٌ.

• أخيراً، تعرَّفَ الغنوصيّون على الرسالةِ المسيحيَّةِ حولَ يسوعَ وأدخلوه الأسطورة الغنوصيَّة. كذلك أضافوا عناصرَ مسيحيَّةً الى بدايةِ ونهايةِ قِسْمٍ منْ كُتُب الوحْي التي تخصُّهم. وقدْ رأى الزعماءُ المسيحيُّون منْ قبيلِ أيريناوّوس في هذه التعاليم تهديداً للمسيحيّة الحقَّة فهاجموها. وبالمقارنةِ، رأى فالنتينوسُ الأسطورةَ مُبهرةً لكنَّهُ نقَّحها لِتكونَ أكثرَ مسيحيَّةً على النحوِ الصريح. وهكذا، كانتْ الأسطورةُ الغنوصيَّةُ، في

الأصل، يهوديَّةً وصُيِّرَتْ أسطورةً مسيحيَّةً فيما بعدُ.

كانَ اللهُ قد وعدَ الملكَ داود َبأن سيحكم دائماً واحدٌ من أبنائه أورشليمَ، لكنَّ التاريخَ الطويلَ للحُكم الاجنبيِ في يهودا قد دفعَ بعضَ اليهودِ الى التساؤلِ حولَ قدرةِ اللهِ على إنجازِ وعدِهِ.

مناقضةُ الفرضيَّة :

• هذه النظريةُ التي تتناول كيفيةَ نشوء الغنوصيَّة هي نظريّةٌ ذاتُ حُجَّةٍ قويَّةٍ. منْ ميزاتِها أنَّها تهملُ صورةَ أيريانوُوس عنْ الغنوصيين. إذْ صوَّرهم على أنَّهم هراطقةٌ مسيحيّون. بدلاً منْ ذلك، تقول هذهِ النظريَّةُ بأنَّ الغنوصيينَ هم منْ اليهود الذينَ كانَ ردُّهم المفهومُ على الحوادث المعاصرة لَهم هو أنْ يخلقوا حركةً دينيَّةً جديدةً. على الرَّغْمِ منْ هذه الميزة، يشكُّ عددٌ منْ العلماء في هذه الفَرضيّة.

• واحدٌ منْ أسباب هذا الشكِّ هو أنَّ العديدَ منْ المقاطع في الكتابات اليهوديَّة التي تشبه عناصرَ في النصوص الغنوصيَّة هي منْ نصوص يهوديّةٍ ترجعُ الى تاريخ يقعُ بعدَ الكتابات الغنوصيّة. أضِفْ الى هذا، لا يمكننا أنْ نكونَ متيقنينَ منْ أنَّ نصوصاً منْ قبيلِ كتابِ الأسرار المنسوبِ الى يوحنّا كانتْ في الأصل يهوديَّةً، ثُمَّ صُيِّرَتْ فيما بعدُ مسيحيَّةً. فضلاً عنْ هذا، إنجيل ُيهوذا هو واحدٌ منْ النصوص الغنوصيَّةِ المبكرة، وهو مسيحيٌّ في الغالب، وأغلبُ النصِ يتألَفُ منْ حواراتٍ بينَ يسوعَ والتلامذةِ، أو، بينَ يسوعَ َويهوذا.

• وكما ناقشنا فيما سلَفَ، أولئكَ الذينَ يزعمون أنَّ الغنوصيّين الأوائلَ كانوا منْ اليهود غيرِ المسيحيّين يرَوْن أنَّ اليهود أصبحوا مُثبَطين قدْ خابَ أملُهم في قدَرهم الى حدِّ أنَّهم فقدوا الثقة في إلهِهِمْ، واستنتجوا أنَّهُ كانَ أدنى في الكمال وخبيثاً. لكنَّ هذا الزعم لا يبدو معقولاً على نحو التمام.

■ مُنذُ العهودِ القديمة الى وقتِنا الحاضر، ظلَّ تاريخُ بني إسرائيل مكتظاً بالحوادث الكارثيَّةِ. وعلى امتدادِ أوجاعهم ومعاناتهم اشتكى اليهود الى الله، لكنَّهم لمْ يستنتجوا أنّهُ كانَ شريراً.

■ بَلْ، اعتبر اليهودُ معاناتَهم عقاباً على ذنوبهم، وتابوا وطلبوا المغفرةَ منْ الله، أو إنَّهم استنتجوا أنَّ اللهَ سينجزُ وعدَهُ شعبَهُ في المستقبلِ عندما يأتي المسيحُ المخلِّص ويقيمُ اللهُ مملكتَه.

● يبدو راجحاً أنَّ الغنوصيّين الأوائل كانوا منْ اليهودِ، أو خليطاً منْ اليهود وغيرِهِم. يشيرُ الاهتمامُ بسِفْر التكوين في النصوص الغنوصيَّةِ الى مؤلِّفين منْ اليهود. لكنَّ هؤلاءِ اليهودَ لا بُدَّ أنَّهم سمعوا عَنْ يسوع أو كانَ لهم بِهِ لقاءٌ.

■ كما قدْ رأينا، لمْ يتَّفقْ المسيحيّونَ الأوائلُ حولَ كلِّ شيء تقريباً، لكنَّهم اتفقوا جميعاً على أنَّ يسوع يمثِّل شيئاً جديداً - وَحياً جديداً، تدخُّلاً جديداً للهِ في التاريخ، وسيلةً جديدةً للخلاص. وهذا الشيءُ الجديدُ أخضعَ للمساءلة كلَّ شيءٍ مضى منْ قبلُ.

■ رُبما جاءَ يسوع منْ التراث الكتابيِّ، وربما كان لتعاليمهِ معنىً تامٌ ضمْنَ اليهوديَّةِ، لكنَّ أتباعَهُ اعتقدوا أنَّ ظهوره اقتضى إعادةَ التفكير بالكتاب المقدَّس اليهوديِّ وبتاريخ بني إسرائيل.

■ يعتقدُ مؤرخونَ أنَّ مفكريّ اليهوديَّةِ منْ أواخر القرْن الأوّل، أو، الثاني الميلادي كانَ لديهم أسبابٌ للشكِّ في إله سِفْر التكوين. جعلتْ التعاليمُ الافلاطونيَّةُ هذا الالهَ يبدو كإلهٍ أدنى. وكان أملُ اليهود في أرضٍ ومَلِكٍ يُسحَق مِراراً. مع ذلك، تبدو هذهِ العواملُ ضروريَّةً لكنَّها ليستْ أسباباً كافيةً لظهور الأسطورة الغنوصيَّةِ ولتحوُّلِ إلهِ سِفْرِ التكوينِ الى يالدابوث.

■ ما كانَ يحتاجهُ اليهودُ فعْلاً هو وحيٌ جديدٌ؛ منْ شأنهُ أنْ يفسِّرَ، ويؤكّد شكوكَهم، ويمنحَهم أملاً جديداً. وكانَ العاملُ المساعد الأكثرُ رجوحاً هو بلاغُ يسوع، وكانتْ

تعاليمُ بولص وإنجيل يوحنّا الخطوتَيْن اللتَيْنِ نقلتا الأمرَ مِنْ الشكوكِ حولَ إلهِ اسرائيلَ الى خلْقِ الأسطورةِ الغنوصيَّة.

-٢٠-

غُنوصٌ بلا مسيحٍ

غُنوصٌ بلا مسيحٍ

في غضونِ القرْن الثاني والثالث الـميلاديّ، أصبح البحثُ عنْ غُنوص لإلهٍ جديدٍ، كاملٍ، منتشراً وسْط النَّاسِ المتعلمين وذوي الميول الرُّوحية في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة. وانجذبَ الغنوصيّون والفالنتينيّون نحوَ هذه الرغبة في الغنوص، كما فعلَ الإنجيل المنسوب الى توما ومسيحيّون آخرون منْ قبيلِ كليمنتْ وأوريجين. لكنَّ غيرَ المسيحيين كانوا جُزءاً منْ هذا الاتجاه أيضاً. في هذه المحاضرة، سنبحثُ نوعَيْن منْ الغُنوص غيرِ اليهوديّ وغيرِ المسيحيّ: الإفلاطونيَّةِ الجديدةِ، والهَرمسيَّةِ. وفي كلِّ حالةٍ سنرى تداخلاً حقيقيّاً معَ الفكرِ والرُّوحانيَّةِ الغنوصيَّةِ والفالنتينيَّةِ، هذا الى جانب اختلافاتٍ مهمَّةٍ.

الهَرمسيَّةُ:

• تشيرُ الهَرْمسيَّةُ الى مَتْنٍ منْ الكتابة مرتبطٍ بصاحبِ وَحْيٍ سماويّ يُدعى هرمس تريسمسجستوس. كانَ هرمسُ الإلهَ الرسولَ الإغريقيَّ الذي يقوم بالاتصال بينَ الآلهةِ أنفسهِم، وبينَهم وبينَ الكياناتِ الأدنى مِثل البشَرِ. ماهى اليونانيّون الذين عاشوا في مصر هرمسَ معَ الإلهِ المصريّ توث، كاتبِ الآلهة. مدحَ المصريّون توث باعتباره (مثلَّثَ العظمةِ)، أو كما في اليونانية (trismagistus). وعلى هذا، فالإلهُ المركَّبُ منْ توث وهرمس صار يعرف بـ (هيرمس ترسمجيستوس).

• الكتاباتُ الهرمسيَّةُ هي مجموعةُ نصوصٍ يُنسَبُ ما فيها منْ تعاليم الى وَحْيٍ مِنْ هرمَس مثلَّثِ العظمةِ، أو مِنْ تلامذتِهِ المقدَّسين. يمكنُ تقسيم النصوص الهرمسيّة الى قسمين: أوّلُهما، الأعمالُ العلميّة التقنيّة الزائفة حولَ التنجيم والخيمياء وموضوعات شبيهة بهذه، وثانيُهما، تعاليمُ تتعلقُ باللهِ والكونِ والخلاصِ البشريّ.

• الملامحُ الأساسيّة لوِجْهَة النظر الهَرْمسيَّة تُشبهُ على نحوٍ ملحوظٍ وِجْهاتِ النظرِ الغنوصيَّة والفالنتينيَّة.

▪ وِفقاً لرأيِ الهَرْمسيّين، نفسُنا الفرديَّةُ (self) الحقيقيَّةُ هي نفسُنا (soul) أو عقلُنا، وهي جزءٌ من الإله. وجودُنا الحقيقيُّ غيرُ ماديٍّ وغيرُ متغيّرٍ. مع ذلك، نحنُ مسجونون في هذا العالَم الماديّ المُتَغَيِّر، ونحنُ نسكن أجساماً تعيق معرفتَنا بالله وبقضايا تتعلق بالحقيقة الأبديَّة.

▪ لأننا سماويّون في نفوسِنا الحقيقيَّة، يريدُ منّا الله أنْ نعرفه، تماماً كما نريد نحنُ أنْ نعرفَهُ. لكنَّ هذا الاجتماع بينَ الله والكائنات البشريَّة لا يمكن أنْ يحدث ما دمنا نعيش في الجهل - معتقدين أنَّ العالمَ الماديَّ هو موطنُنا الحقيقيُّ وأنَّ أجسادَنا هي نفوسُنا الحقيقيَّة.

• الخطوةُ الأولى نحو التغلُّب على الجهل هي الدراسةُ الفلسفيَّة. وفيما بعدُ، مَنْ ينضَمُّ الى الهَرْمسيّة لا بدَّ أنْ تكون له تجربةٌ في التنوير (الولادة الثانية)، رؤيا، أو، اتصالٌ بالله. ومنْ خلال الولادةِ الثانية يصبح الهَرْمسيُّ إلهيّاً ويحوز الخلود. والواضح، يظلُّ هذا الشخص مكوَّناً منْ جسَدٍ ونَفْسٍ (soul)، يظلُّ مرتبطاً بهذا العالمِ الماديِّ المتغيّرِ. لكنَّ المكرَّس أصبح إلهاً بحصولهِ على معرفةٍ (غُنوصٍ) باللهِ وبالنفْسِ الالهيَّةِ الحقيقيَّةِ.

• في بعض الجوانبِ، هذهِ الطريقُ ليستْ مختلفةً جداً عمّا رأيناه في العرفان الغنوصيِّ والفالنتينيِّ الذي، أيضاً، يُشجّع الناسَ على الانصراف عنْ الجسد والعالم الماديِّ، وعلى الانشغال بالدراسة الدينيَّة والفلسفيَّة. ويرى الغنوصيُّون والفالنتينيُّون، على غرار الهَرْمسيّين، أنَّ منْ الممكن الوصولَ الى تجربةِ اللقاءِ معَ اللهِ في الحياة الحاضرة.

• مع ذلكَ، ثمَّة اختلافاتٌ بينَ المعرفةِ الهرمسيَّة منْ جهةٍ و المعرفةِ الغنوصيَّة والفالنتينيّة منْ جهة أخرى. ما كانَ لدى الهرمسيّين أسطورةٌ مفصَّلةٌ، كما إنَّهم لمْ

يهتمّوا بالتراث اليهوديّ بقدْر اهتمام الغنوصيّين والفالنتينيين به. أيضاً، زعمَ الهرمسيّون بأنّ هرمسَ الثلاثي العظمة أوحى بالحقيقةِ منْ خلال آلهة مصريين منْ قبيلِ آمون[1] وإيزيس[2]. وما كانَ ليسوعَ المسيح منْ دورٍ في الهَرمسيَّة.

بويماندريس:

• تروي المقالةُ الهَرمسيّةُ (بويماندريس)[3] قِصّةَ الخلق. يخبرنا مؤلّفُ هذا النصِّ عنْ لقائهِ معَ الكائن الالهيّ، الذي أعلنَ «أنا بويماندريس، عَقْلُ عالِم القوّةِ المُطلَقةِ»، فيما بعدُ، يقولُ بويماندريس بأنّه عقلُ المؤلِّفِ أيضاً.

• في القصّة التي أخبرها بويماندريس عنْ الخلق، أنتج اللهُ النهائيُّ عقلاً ثانياً ليكون الديمارجَ أو صانعَ العالم الماديّ (شكل ٧). بعدَ ذلك، هذا الصانعُ خلّفَ سبعةَ حُكّام سماويّينَ لمساعدته، ثُمّ خَلَقَ هو وحُكّامُهُ كائناتٍ سماويّةً لمساعدتهِ، ثُمّ خلَقَ هو وحكّامهُ كائناتٍ سماويّةً أُخَر، والحيواناتِ غيرَ العاملة، أيْ، كلَّ المخلوقاتِ الحيّةَ ماعدا الإنسانَ.

---

(١) آمون، إله الشمس والريح والخصوبة؛ أحد الآلهة الرئيسيين في الميثولوجيا المصرية القديمة، بل يعد أبا الأرباب. ومعنى اسمه الخفي. (المراجع).

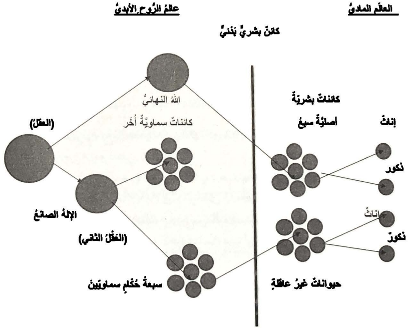
(٢) إلهة رئيسة في الديانة المصرية القديمة. انتشرت عبادتها في العالم اليوناني الروماني. ذُكرت لأول مرة في المملكة المصرية (٢٦٨٦-٢١٨١ ق.م) كإحدى الشخصيات الرئيسة في أسطورة أوزوريس، إذ قامت بإحياء زوجها الملك الإلهي المذبوح أوزوريس، كما أنجبت وريثه حورس وقامت بحمايته. كان يُعتقد أن إيزيس ترشد الموتى إلى الحياة الآخرة كما ساعدت أوزوريس، وكانت تُعتبر الأم الإلهية للفرعون إذ كان يُشبّه بابنها حورس. (المراجع).

(٣) فصل من كتاب «الكتابات الهرمسية». كتب باللغة اليونانية، ويقدم شرحاً حول رع إله الشمس. ويحتوي على إشارات تمجيد للإله كمصدر للتنور والحكماء. وفي الترجمة الأصلية، ترجمة كلمة «بويماندريس» باليونانية إلى «الرجل الراعي»، إلا أن الدراسات اللاحقة أشارت أن الكلمة فرعونية مؤلفة من «بيمنتي» وتعني «إدراك» وكلمة «ر» التي ترمز للإله «رع»، ويصبح معناها «معرفة رع» أو «فهم رع». (المراجع).

• بعدَ ذلكَ، يقصُّ بويماندريس كيفَ ظهرَ البشرُ الى الوجود. «عندَها أنتجَ العقلُ الذي هو أبٌ للكلِّ لكونهِ الحياةَ والنُّورَ، أنتجَ، الإنسانَ مساويّاً لهُ. البشريةُ مساويةٌ للهِ النهائيِّ! أحبَّ اللهُ الكائنَ البشريَّ وسلَّمَهُ كلَّ الخليقة».

• هذا النموذجُ البشريُّ الإلهيُّ البَدْئيُّ رأى العالمَ الماديَّ المخلوقَ وشعرَ بانجذابِ اليه. دخلَ هذا العالَمَ وتركَّبَ معه؛ وعلى هذا النحو، البشريةُ خالدةٌ - بسببِ الأصلِ الالهيّ - وفانيةٌ - بسبب اتحادِها معَ العالَمِ الماديِّ.

الشكل (٧) رؤيةُ بويماندريس الهرمسيَّةُ للهِ



• بعدَ ذلكَ، ظهرَ الى الوجود الكائناتُ البشريّةُ الأرضيّةُ السبعُ. في أوّلِ الأمر، هذهِ الكائناتُ البشريَّة الى جانب الحيوانات، كانتْ خنثى (أندروجينية)، لديها صفاتُ الذكَر والأنثى، لكنْ، بعدَ ذلكَ فصلَها اللهُ الى ذكورٍ وإناثٍ لكيْ تستطيعَ التكاثرَ وتملأَ العالَم.

▪ يوضح بويماندريس أنَّ البشَر انقسموا الى قسمَيْن، قسمٍ منَ النّاس يحبُّ الجسَدَ فيقعُ في حبائل رغباتِهِ الجسديَّةِ، لذا يظلّون في الظلام والجهل. لكنَّ قسماً آخَرَ منَ النّاس يُدركون حقيقةَ نفوسهم على أنّها عقولٌ إلهيّةٌ حقيقيّةٌ فيكرّسون نفوسهم للرُّقيّ وتأمُّلِ الله.

▪ النّاسُ الأخيارُ سيغادرون أجسادَهم وراءَهم عندَ موتهم، وستعرج نفوسُهم العقليّةُ الحقيقيّةُ عبْرَ أجواءِ الكونِ السبْعِ. وكما يقول بويماندريس «العروجُ الى الأبِ وتسليمُهم نفوسَهم له شخصيّاً ليصبحوا قوىً، وبصَيْرورتِهم قوىً، سيكونون ضِمْنَ اللهِ. وهكذا، فإنَّ النهايةَ الطيبةَ لمَنْ يمتلكُ المعرفةَ هي أنْ يكون إلهاً».

إفلوطين:

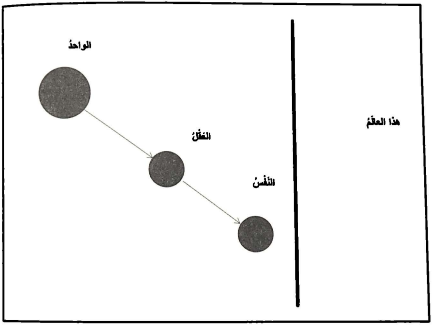
• ابتدأ فيلسوفُ القرْن الثالث إفلوطينُ فصلاً جديداً في التاريخ الفلسفيّ يُعرَفُ باسم الأفلاطونيَّةِ الجديدةِ. وعلى غرار الغنوصيّين والفالنتينيّين، سعى إفلوطينُ الى الحصول على معرفة (gnosis) بالله النهائيّ، لكنَّ مقاربتَهُ الجديدةَ أكدَّتْ ارتباطَنا الجوهريّ معَ اللهِ بدلاً منْ اغترابنا عنْهُ.

• على غرارِ الغنوصيين، آمنَ إفلوطينُ بمصدرٍ بعيدٍ لا يحيطُ بهِ وَصْفٌ، هو مصدرٌ لكلِّ ما هو موجود، ودعا هذا المصدر بـ(الواحد) (الشكل رقم ٨). الواحدُ يتكرَّرُ وينتجُ تفكيرُهُ الفيضَ الأوّلَ منه - العقلَ (intellect). وبدوره، يُنتج العقلُ النَفْسَ (soul)، المبدأَ الذي يمنحُ الحياةَ لكلِّ موجودٍ.

• مِنْ هذا الثلاثيّ الإلهيّ - الواحدِ، العقْلِ، النفْسِ- تنبثقُ كلُّ الحقيقةِ. ليسَ

صحيحاً القولُ بأنَّ الواحدَ يوجد؛ بَلْ، الواحدُ هو وجودُ ذاتِهِ. ومِنَ الواحدِ يفيضُ (ينبثق) كلُّ الوجودِ عَبْرَ العَقْلِ والنَّفْسِ، خالقاً مستوياتٍ جديدةً مِنَ الحقيقةِ التي هي أدنى ممّا يحتويهِ الواحدُ. كلُّ شيءٍ يوجدُ هو فيضٌ مِنَ الواحدِ، أو، هو مستوىً لحقيقةٍ تقعُ ضِمْنَ الواحدِ.

الشكل (٨) رؤية إفلوطين لله



• اتَّفقَ إفلوطينُ معَ الغنوصيّين على أنَّ العالمَ الماديَّ ليسَ وجوداً حقيقيّاً، لكنَّهُ لمْ يعتقدْ بفصْلٍ واضحٍ بينَ الواقعِ الرُّوحيِّ والعالَمِ الماديِّ. بَلْ، كلُّ شيءٍ يوجَدُ بالتدريجِ.

• قال إفلوطين بأنَّ الجسَد ليس النفسَ الحقيقيّةَ، لكنَّه لمْ يضعْ النَّفْسَ في تعارضٍ معَ الجسَد. بَلْ، إنَّ وحدةَ وجمالَ الجسَد تشير الى حضورِ النَّفْسِ التي

تمنح الجسدَ حياةً. ليسَ العالمُ الماديُّ محاكاةً ناقصةً للأشكال الرُّوحيّةِ، بلْ، هو التجلّي المرئيُّ لعالَمِ الأشكال الرُّوحيَّة. يحصلُ الكونُ على وحدتِهِ وجمالِهِ منْ النفْس الإلهيَّة التي تُحيِيهِ. لذلك، أيضاً، ليس الجسدُ نفْساً حقيقيّة، بلْ، هو تَجَلٍّ، وتمظْهُرٌ، للنَّفْسِ الحقيقيَّةِ.

• أضِف الى ما تقدَّم، النَّفْسُ الحقيقيَّةُ ليستْ مفصولةً عنْ مصدرِها، بلْ، تتألفُ منْ طبقاتٍ منْ الوجود، والطبقةُ الأعمقُ والأكثرُ مركزيّةً تبقى في الواحدِ. حتَّى الآنَ، في لحظتِنا الحاضرةِ، نحنُ نُوجدُ في السماءِ وفي الأرضِ، نوجدُ في الواحدِ، وأيضاً، نوجد بعيدينَ عنْ الواحدِ.

• وطبْعاً، قلَّما نكون واعينَ بارتباطنا معَ الواحدِ. بدلاً من الانتباهِ الى نفوسِنا العليا، نصبحُ منشغلينَ مذهولين عنها بمشاغلَ أدنى وأقلَّ واقعيّةً. وبدلاً منْ هذا السلوكِ، يجبُ أنْ نربّيَ وعْياً بالوجودِ الحقيقيِّ في مركزِ نفوسِنا.

• بلُغةٍ عمليَّةٍ، يجبُ أنْ ندرسَ الفلسفةَ ونعيش حياةَ تلمَذةٍ لا تُركّز على الحاجاتِ والمشاغلِ الماديَّة. يجبُ أنْ نمارسَ التأمُّلَ، وأنْ نحاولَ ترقيةَ وعينا بحضورنا ضِمْنَ الواحدِ. فإنْ فعلْنا هذا، يقولُ إفلوطين، يمكنُنا الحصولُ على تجاربَ عابرةٍ منْ المعرفةِ الحقيقيَّة، لحظاتٍ منْ التوحُّدِ معَ الواحدِ. لا نحتاجُ انتظارَ لحظةٍ مستقبليّةٍ منْ أجلِ العودةِ إلى الواحد. يمكننا فعلُ هذا في هذهِ اللحظةِ.

• وِفْقاً للنموذج الذي يقدِّمُهُ إفلوطينُ، الواحدُ هوَ وجودُ ذاتِهِ. والواحدُ، أيضاً، هو الجميلُ والخيّرُ. أنْ تُوجدَ هو خيْرٌ؛ وهكذا، كوجودٍ مطلقٍ، الواحدُ هو خيْرٌ مطلقٌ.

▪ كلُّ شيءٍ وجودُهُ منْ الواحدِ. توجدُ الأشياءُ لأنَّها تشتركُ في الواحدِ، وتتلقَّى الحياةَ منْ الواحدِ. وكونُها أقلُّ أو أكثرُ واقعيّةً يعتمدُ على كيفيَّة قربِها منْ الواحدِ، وعلى عُمْقِ مشاركتِها في الواحدِ.

▪ وهذا يعني أنَّ كلَّ الأشياء الموجودة هي، كذلك، خيْرٌ لأنَّها تشاركُ في خيريّةِ اللهِ، وتتلقَّى الخيْرَ مِنْ الله. ودرجةُ الخيرِ فيها تعتمدُ على قُرْبِها منْ الواحدِ وعُمْقِ مشاركتِها

فيه. وهكذا فإنَّ الشرَّ لا يوجدُ حَقًّا؛ ببساطة، الشرُّ هو نَقْصُ الخَيْرِ.

إيامبليشوس:

• في العالَم القديمِ. قامتْ الإفلاطونيةُ الجديدة بانعطافةٍ مُهِمَّة معَ فكرِ إيامبليشوس (٢٥٠-٣٣٠م). اختلف إيامبليشوس معَ إفلوطينَ في مسألة أنَّ النفسَ (soul) تظلُّ دائماً مرتبطةً بالواحد. ولدى إفلوطين، على الرغم ممَّا يمكن أنْ يبدو منْ أنَّ النَّفْسَ بعيدةٌ عنْ اللهِ، هي لمْ تبتعدْ على نحوِ التمام. واعتقادُهُ هو أنَّ النفْسَ هابطةٌ على نحوٍ كاملٍ.

• مَيَّزَ إيامبليشوس بينَ النفس (soul) والعَقْلِ (intellect). يمكننا القول بأنَّ عقلَنا، لأنَّه عقلانيٌّ، لا يزالُ يحتفظ بارتباطٍ معَ الله، لكنَّه ليسَ ضِمْنَ اللهِ على نحوٍ تامّ. لكنَّ النَّفْسَ في مكانٍ متوسطٍ بينَ العَقْلِ والعالمِ الرُّوحيّ. منْ جهةٍ أخرى، النفسُ منحدرةٌ على نحوٍ كامل منْ الله، وهي تعيش نوعاً مِنْ الحياةِ المزدوجةِ: فهي تشاركُ في الحقيقةِ الرُّوحيّة العُليا، وكذلك، في العالمِ الماديّ الأدنى.

• وفقاً لإيامبليشوس، لِأنَّ النفْسَ ابتعدتْ هابطةً عنْ الواحدِ فيجبُ أنْ تُنقّى وتُعادَ الى وضعِها السابق. وكمنهجٍ للقيامِ بهذهِ التنقيةِ والعودةِ يُقدِّم إيامبليشوسُ الطقْسَ، بمعنى أداءِ طقوسٍ تتضمَّنُ عناصرَ ماديَّةً يمكنُها أنْ تجعلَ النَّفْسَ أكثر إلهيَّةً.

• يرى إيامبليشوس بأنَّ الأشياءَ الماديّة منْ قبيلِ الحيواناتِ والنباتاتِ والحجرِ، والأشياءَ غيرَ الماديَّةِ منْ قبيلِ الأعدادِ والأسماءِ المقدَّسة، كلُّ هذه، يمكن أنْ تعمل كرُموزٍ تأتي بالقوَّةِ الإلهيَّةِ الى النَّفْسِ. ولأنَّ النَّفْسَ مُجسَّدةٌ، فإنَّ الله قدْ قدَّمَ وسيلة ماديَّةً للنَّفْسِ لكي تجرِّبَ الإلهيَّ.

▪ على هذا النحو، سعى إيامبليشوس الى إدخال دينٍ واقعيٍّ كما يمارسُهُ الوثنيّون الى الحياةِ الفلسفيَّةِ.

-٢١-

أسطورةُ المانويّةِ

أسطورةُ المانويّةِ

لَطالَما صوَّرَ المؤرخون المانويّةَ على أنَّها ذِرْوَةُ الغُنوصيّةِ القديمةِ. لقدْ كانتْ أسطورةً غنوصيّةً اتسعتْ عالميّاً، وأصبحتْ أساساً لِدينٍ عالَميٍّ التنظيمِ. وكما سنرى، تتشاركُ المانويّةُ العديدَ مِنْ الخصائصِ معَ الغنوصيّة، لكنَّ الخلاصَ الذي وصَّفهَ مؤسسُها ماني (٢١٦-٢٧٤م)، لمْ يكنْ موجوداً على نحوِ أساسيٍّ في الغُنوص، أيْ، في معرفةٍ مباشرةٍ باللهِ النهائيّ. بَلْ، عَبّأ ماني الناسَ في حربٍ مستمرة بينَ الخيْرِ والشّرِّ، والنُّورِ والظلامِ، وفي هذه الحربِ، يقوم الاستعمالُ المنظَّمُ للجسدِ بدورٍ مركزيّ. وبهذه الطريقةِ، اختلفَ ماني كثيراً عنْ المدرسةِ الفكريّةِ الغنوصيّة.

الوَحْيُ الى ماني:

- في العام ٢٢٨م، تلقَّى صبيٌّ في الثانية عشرة من العمر يُدعى ماني، عاشَ في قريةٍ قُرْبَ بابل، رؤيا مذهلةً. ظهرَ ملاكٌ يُدعى التوأم لِماني وجاء اليه بوحْيٍ منْ اللهِ - ملكِ فردوسِ النُّورِ. ومنْ هذا اللقاء، وُلِدَ دينُ المانويّة والذي كان سيتحدَّى آخرَ الأمر المسيحيّةَ في التفوُّقِ في أواخرِ العالمِ القديمِ.
- كانتْ الطائفةُ المسيحيّةُ التي ينتمي اليها ماني تُعرَف باسم (المغتسلة)، أي، الذين يتطهَّرون بالماء، كذلك عُرِف هؤلاء باسم (المسيحيّين الألشاسيّين)؛ لأنَّهم اتَّبعوا تعاليمَ كتابٍ نُسِبَ الى رجل اسمُهُ ألشاسي (Elchasai)[1].

(١) وتعرف بالكسائية أو إلكساية. يرد اسمها بصيغ محتلفة. وهي فرقة يهودية/مسيحية قديمة في جنوب بلاد ما بين النهرين، ثم لاحقًا في ولاية أشورستان، وفق تقسيمات الولايات في الإمبراطورية الساسانية. اسم الفرقة مشتق من اسم المؤسس المزعوم أو من اسم الشخصية (الملاك) التي نقلت له الوحي: الذي يرد اسمه كذلك بعدة صيغ: إلخاساي Elkhasaí (عند هيبوليتوس)، إلكسيا Elksai (عند ايفانيوس)، أو إلِكساي Elkesai (عند يوسابيوس وثيودوريطس). يُرحج أن الفرقة هي فصيل من الأبونيين. (المراجع)

■ عبدَ الألشاسيّونَ عيسى باعتباره المخلِّص وابنَ الله، وشـدَّدوا على النقاوةِ الطَقْسيَّة. واتَّبعوا العديدَ منْ مفاهيمِ الشريعة اليهوديَّة بما فيها منْ الخِتانِ وتقويمِ الأعياد وغيرِها منْ العبادات. كذلك رفعوا منْ قيمة التعميد الذي يأتي بغفرانِ الخطايا وتخليصِ الأجساد من الأرواح الشريّرة والحمايةِ من المرض والتلوُّث.

■ سعى المسيحيّونَ الألشاسيّونَ جاهدينَ للحفاظ على بقائهم في حالة طاهرةٍ مقدَّسة الى درجةِ تنظيمِ الطعام الذي كانوا يأكلونَهُ. ما كانوا يأكلون أيَّ طعامٍ لمْ يكونوا يزرعونَهُ بأيديهم ويحصدونهُ ويُعِدُّونه، بَلْ، هذا الطعامُ يتطلبُ تطهيراً طقْسياً في الماء قبل أنْ يكون صالحاً للأكل. أيْ، إنَّهم كانوا يُعَمِّدون طعامَهم.

■ أنظرْ هنا الى الارتباطاتِ القويّةِ بينَ الجسدِ، والطعامِ، والخلاصِ. بالنسبة الى الألشاسيّينَ، الجسدُ موضعُ صراعِ الخيرِ والشرِّ. وبتعميدِ الجسَد، هُمْ يطردون شياطينِ إبليسَ، وبتعميدِهم طعامَهم، يُبقون نفوسهَم طاهرةً منْ الدنَسِ الوثنيّ.

● بعدَ رؤيتِهِ توأمَه الإلهيّ، بدأ ماني يشكُّ في بعضِ تعاليمِ وممارساتِ مجتمعِهِ المسيحيّ. وبمرورِ الأعوام، فهمَ على نحوٍ تدريجيّ المضامينَ الكاملة للوحْي الذي كان قدْ تلقَّاه، ودخلَ صراعاً عظيماً معَ الزعماء المسيحيّين.

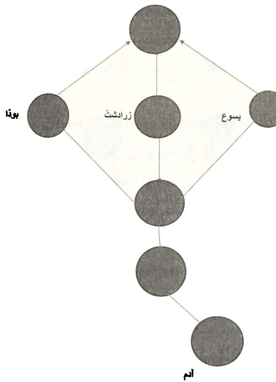
● أخيراً، بعدَ اثني عشر عاماً، وفي عمر الرابعة والعشرين، تلقى ماني وحْياً جديداً منْ توأَمِهِ الإلهيّ: كان اللهُ يدعو ماني ليكونَ رسولَهَ ونبيَّهُ. كانتْ مَهَمَّةُ ماني أنْ يأتي بإنجيلِ الحقيقةِ الى جميع النَّاسِ - وفي حقيقةِ الأمر، أنْ يبيّنَ أنَّ كلَّ الأديانِ السابقةِ كانتْ تؤدّي الى الإنجيلِ الذي سيُشهره ماني.

■ أخبرَ ماني الناسَ أنَّهُ كانَ الرُّوحَ القُدُسَ الذي كان يسوعُ قدْ وَعَدَ بأنَّهُ سيرسلُهُ الى أتباعهِ لمساعدتهم. في إنجيل يوحنّا، يوضح يسوعُ أنَّ الرُّوحَ القُدُسَ سيعلِّمُ الناسَ كلَّ الأشياء التي تذكِّرهم بكلِّ شيء قدْ قالهُ يسوعُ. كانَ الرُّوحُ القدسُ سيعاقب العالَم لخطيئته، ويعلِّمهُ الصلاحَ ويأتيهِ بالقضاءِ.

■ لم يكُن ماني هوَ الرُّوحَ القدُسَ فحسبُ، بل، أيضاً، كانَ خاتمَ كُلِّ النبوَّة، تمامَ

عدَّةِ الأنبياءِ (الشكل ٩). كانَ اللهُ قدْ أرسلَ أنبياءً الى عمومِ البشَرِ ابتداءً بآدمَ، وشيثٍ، ونوحٍ، لكنَّ النبوَّةَ بعدَ ذلك اتخذتْ مسالكَ مختلفة في مناطقَ مختلفةٍ منْ العالَمِ. في عالَمِ البحرِ الأبيضِ المتوسط، تحدَّثَ اللهُ منْ خلالِ يسوع، لكنْ، في آسيا، والهند، والصين تحدَّث عبْرَ بوذا. في فارسَ وبابلَ، كانَ نبيُّ اللهِ هو زرادشتْ. وقدْ بُعِثَ ماني ليوحِّد كلَّ هذهِ الأديانِ في إنجيلِ الحقيقةِ الواحدِ.

الشكل (٩) ماني كخاتمِ للأنبياءِ



• سافر ماني الى أورآسيا الوسطى والهندِ ليجلبَ إنجيل الحقِّ الخاصِّ بهِ. وفي إيرانَ، وجدَ أوّلَ الأمرِ تعاطفاً من لدُنْ الحُكّام الساسانيّينَ على الرغْم منْ أنّهم لمْ يتّبعوا دينَهُ الجديد. مع ذلك، فيما بعدُ، اصطدم ماني بالكهنة الزرادشتيّينَ فسُجِنَ وعُذِّبَ. توفي ماني في العام ٢٧٤م، وهو في عمر الثامنة والخمسين.

تعاليمُ ماني:

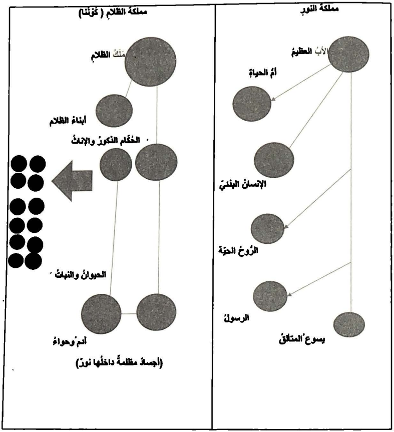
• على غرارِ الغنوصيّين والفالنتينيّين، وضَعَ ماني تعاليمَه في شكل أسطورة حولَ بِنْيةِ اللهِ والكونِ الذي نعيشُ فيه. الأسطورةُ المانويّةُ (الشكل ١٥) معقّدَة الى حدٍّ متطرّفٍ لكنَّ موضوعَها المركزيَّ هو الصراعُ بينَ الخيْرِ والشرِّ أو بينَ الضياءِ والظلامِ، ونحنُ لا نزالُ في هذا الصراع الى يومِنا الحاضر.

• يمكننا أنْ ندركَ سببَ جاذبيّةِ الأسطورةِ المانويّة: أتتْ الأسطورةُ المانويّةُ بتفسيرٍ واضحٍ لوجودِ الشرّ والمعاناة.

▪ وِفقاً لرأي ماني، الشرُّ حقيقةٌ لأنّه وُجِدَ منذُ البدايةِ. اللهُ - اللهُ الحقُّ، الأبُ العظيمُ - لمْ يخلقْ الشرَّ ولمْ يسمحْ بدخولهِ الى الوجود، بلْ، إنَّ الشَّرَّ أو الظلامَ كانَ موجوداً دائماً، وها نحن الآنَ موجودون في عالَمِ الشرّ.

▪ الألمُ والمعاناةُ هما حقيقتانِ على نحوِ المساواةِ لأنَّ العديدَ منْ جسيمات النُّورِ واقعةٌ في فخّ عالمَ الظلام الذي هو هذا الكون. وفي رأيِ ماني، كلُّ الكائناتِ الحيّةِ، وبضمنها النباتاتُ والحيواناتُ تحوي أجزاءً منْ النُّورِ. عندما نؤذي كائناً حيّاً آخرَ فنحنُ نسبّبُ ألَماً للنُّورِ المُضمَّن فيهِ.

الشكل (١٠): البانثيون المانويّ (مبسطاً)



• توضحُ المانويّةُ، أيضاً، سببَ إمكانيّةِ انجذابِنا الى الخيْرِ والشرّ معاً. تنبعث دوافعُنا الشرّيرة منْ الجسَد الذي يتألّف منْ الظلامِ ويجذبُنا الى فعْل الأعمال الشرّيرة. في الوقتِ نفسِه، نفوُسنا (souls) مؤلفة منْ نورٍ وتجذبنا نحوَ الخيْر.

▪ رأيُ ماني أنّ بولصَ قدْ لَمَحَ هذه المشكلةَ في سِفر الرُّومان: (٧) «أعلمُ أنّني لا أحملُ خيْراً فيّ. يمكنني أنْ أرغبَ في الحقّ لكنّني لا أُقدِرُ على فعْلِهِ... لقدْ وجدتُ

الأمرَ قانوناً أنّني عندما أُريدُ فعْلَ ما هو خيْرٌ، يكونُ الشرُّ في متناولِ اليدِ. لأنّني أُسعَد بقانونِ اللهِ في قرارةِ نفسي، لكنّي أجدُ في أعضائي قانوناً آخرَ في حَرْبٍ معَ قانونِ عقلي، الأمرُ الذي يجعلني أسيرَ قانونِ الخطيئةِ المستقرِّ في أعضائي» (١٨-٢٣).

▪ والحقُّ أنَّ ماني يقول أنَّ ثمَّةَ حَرْباً في داخلِ كلِّ واحدٍ منّا وفي كلِّ شيءٍ حولنا - حربٌ بينَ الخيْرِ والشّر، بينَ النُّورِ والظلام. ونفوسُنا هي ساحةُ تلك الحرب، كما يُحارب النُّورُ في نفوسِنا الحقَّة ظلامَ أجسادنا.

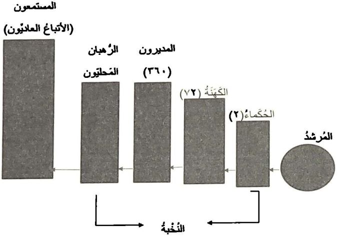
▪ في سِفْر الرومان، يشكو بولصُ: «أيُّ تعيسٍ أنا! ومَنْ سينقذُني مِنْ جسَدِ الموتِ؟» (٢٤). زعمَ ماني أنّهُ يملك جواباً لهذا السؤال. لقدْ نظَّم كنيستَه على نحوٍ منَ الدِقَّةِ لتتمكَّن منْ كسبِ الحربِ بينَ الخيْرِ والشّرِ وتنقذُ النورَ منَ الظلام.

تنظيمُ الكنيسةِ المانويّة:

● كانتْ الكنيسةُ المانويَّةُ تنظيماً عالميّاً معَ هرميّةٍ جيدة التنظيم (الشكل ١١). كانَ الزعيمُ الأعلى يُعتَبَرُ خليفةُ ماني، وكان يُدعى المُرشدَ. ودونَ المُرشدِ رُتّبَ المانويّون في خمس رُتَب، لكنَّ هذه الرُتبَ الخمس وُضِعَتْ ضمْنَ مجموعتَيْن أوسعَ وأكثرَ أهميّةً هما: النُخبةُ أو الصِفْوةُ، والمستمعون. والتمييزُ بين النُخبة والمستمعينَ، والتفاعلاتُ التي تحدث بينهما هي قلْبُ الكيفيَّةِ التي تعملُ بها الفكرةُ المانويّةُ.

● ألّفتْ النخبةُ الرُتَبَ الأربعَ العليا. الثلاثُ الأولى منْ هذه الرُتَبِ كوّنتْ الهَرميَّةَ التسلسليَّةَ للكنيسة وكانتْ محدودةَ العددِ. تألفتْ الرتبةُ الرابعةُ منَ الرُهبان الذين يقومون بأنواعٍ منَ الوظائف في التجمُّعات المحليّة: فهمْ الواعظون، وجوقةُ الإنشاد، والكتَبةُ وما الى ذلك. عاشَ الأعضاءُ المحليّون للنُخبة معاً في مجتمعاتٍ رهبانيّة وألزموا أنفسَهم العيشَ في طهارةٍ مُطلَقةٍ. لأنّهم بفعلِهم هذا، كانتْ نفوسُهم النُورانيّة ستنجو منْ أبدانِهم الظلاميّة عندَ الموت، وسيعودُ النُورُ الى عالَمِ النُور.

الشكل(١١): الكنيسةُ المانويَّةُ



• معَ ذلكَ، أغلبُ المانويّين كانوا مستمعينَ، وليسوا من النُخبةِ. وقدْ مارسَ المستمعونَ صيغةً أقلَّ صرامةً منْ أسلوب حياةِ النُخبةِ. على نحوٍ عامٍ، كان يُتَوقعُ منهم أنْ يمارسوا حياةً أخلاقيةً تواضعيَّةً بوساطة تجنُّبِ الخطيئة، لكنْ، كانَ بإمكانهم الزواجُ ومضاجعةُ أزواجهم. كما إنَّ المستمعين كانوا أقلَّ تقيُّداً في طعامهم مِنَ النُخبة، لكنَّهم كانَ لا يزالُ عليهم أنْ يمتنعوا عنْ تناول الكحول واللحم. وكانَ المطلوبُ منهم دفعَ نسبة عشرة في المائة منْ دخْلهم كصدقاتٍ للكنيسة دعماً للنُخبةِ ولفقراءِ المستمعين.

• شاركَ كلٌ منَ النخبةِ والمستمعين في جدول الصيامِ المنتظم - لا أكْلَ ولا شرْبَ الى أنْ تغربَ الشمسُ في أيام الآحاد وأوقاتٍ أُخَر. كذلك، كان ثمَّةَ صيامٌ سنويٌ لمُدَّة

ثلاثين يوماً ينتهي بالعيد المانويّ الأقدسِ المسمَّى (بيما). يحتفل البيما بذكرى موتِ ماني وعودته إلى السماء. وبمشاركتِهم في مناسباتِ الصيامِ، عبَّرَ النُخبةُ والمستمعون عنْ تضامنِ بعضِهم مع البعضِ الآخر.

• ولأنَّ المستمعين لا يَحيَوْنَ حياةَ طُهْرٍ كاملٍ، فإنَّ نورَهم لا يعودُ الى عالَم النُّور حينَ موتِهم. بَلْ، كانتْ لمعاتُ نورِهم يُعاد تجسيدُها في أجسادٍ بشريّةٍ أُخَر. وفي حياتِهم التاليةِ رُبما يكونون منْ النُخبةِ، وهكذا يمكنهم الهروبُ منْ عالَم الظلام هذا.

• مع ذلك، للمستمعينَ دورٌ حاسم يقومون به في تحرير النور منْ الظلام. يحدثُ هذا في موضعَيْن؛ الأوّلِ، بدعمِهم النخبةَ، فهم كانوا يمكّنون النخبةَ منْ العيش في طهارةٍ ونقاءٍ على النحوِ التامّ، كما يمكّنونهم منْ تحرير نفوسِهم النُّورانيَّةِ. وفي الموضع الثاني، بجلبِهم الفاكهةَ والخُضَر للنُخبة، هم ساعدوا النُخبة على تحرير النُّور في هذهِ النباتات.

■ كانَ النخبةُ قد صيَّروا أجسادَهم على درجةٍ منْ النقاء بحيث أنَّهم عندما يأكلون ما يأتيهم به المستمعون منْ طعام، كانتْ أجهزتهم الهضمية تفصلُ النُّورَ عنْ الظلامِ، وتمكّن النُّورَ منْ النجاة الى الأعلى نحوَ عالَم النُّور.

■ في أُثناء المُدَّة القائمةِ منْ الحربِ معَ عالمِ الظلام، يضطهد حُكّامُ الظلامِ أجزاءَ النُّور. لكنَّ الكنيسةَ المانويَّة وطقوسَها، وعلى نحوٍ مستمرٍ، تُحرّرُ النُّورَ وتعيدُهُ الى عالَمِهِ.

■ اعتقدَ المانويّون أنَّ بإمكانهم، فعْلاً، رؤيةَ هذهِ العمليةِ وهي تجري في سطوعِ ضوءِ القمر وخفوتِهِ. عندما يغادرُ النُّورُ الأرضَ يرتحلُ الى الأعلى ويجتمع في القمَر، وينمو نورُ القمر على نحوٍ تدريجيٍ معَ وصولِ نورٍ أكثرَ الى هناك.

■ عندما يكتملُ نورُ القمر، يتّجه النُّورُ الى المحطة القادمة وهي الشمسُ، ويتضاءَل نورُ القمر ببطءٍ. كذلك، تعمل الأنماطُ المتغيّرةُ لمسارِ الشمسِ وضوءِ النهار، على ارتحالِ النُّورِ المتحرّرِ منْ هنا الى عالَمِ النُّور.

■ في السماء، اعتقد المانويّون أنّ باستطاعتِهم أنْ يرَوْا دينَهم وهو يعملُ - وهذا تأكيدٌ دراميٌّ لِحقيقةِ رسالتِهم.

-٢٢-

أوجستين: حولَ المانويّةِ والخطيئةِ الأصليَّةِ

أوجستين: حولَ المانويّةِ والخطيئةِ الأصليّةِ

القدّيسُ أوجستين (٣٥٤-٤٣٠) واحدٌ منَ الشخصياتِ الأكثر أهميةً في تاريخ المسيحيّة. كان أوجستين أسقفاً لمدينة هيبو في شمال أفريقيا ولاهوتيّاً لامعاً. معَ ذلك، كانَ في وقتٍ منَ الأوقاتِ مُهرطقاً - مانويّاً. أصبح أوجستينُ فيما بعدُ مسيحيّاً، لكنَّ المانويّةَ لمْ تغادرْ حياتَهُ وفكرَهُ. طوّر أوجستينُ العديدَ منْ تعاليمِهِ حولَ المسيحيّةِ في معارضةِ المانويَّة، لكنْ، حتّى في حياته قال نقادُه بأنّه لمْ ينجُ في الواقع منْ ماضيهِ المانويِّ قَطُّ. وسواءٌ أكان هذا حقيقةً أم لا، فلا شكَّ في أنَّ المانويَّةَ، الدينَ الذي لمْ يعدْ قائماً قدْ صاغَ على نحوٍ عميقٍ عناصرَ مُهمَّة في المسيحيَّةِ الغربيَّةِ.

بحثُ أوجستينَ عنْ الحكمةِ:

• كانتْ أُمُّ أوجستين، مونيكا، مسيحيَّةً متقيةً، لكنْ أباه لمْ يكن بهذهِ الصفةِ. وقدْ دعتْ الأم ربَّها منْ أجل أنْ يكون أوجستين مسيحيّاً، لكنَّ أوجستين كان ذا عقل خاصّ به. حينَ كان طالباً في آخر سنِّي مراهقتهِ أثَّرَ فيه شيشرون الذي رأى أنَّ سعادة النّاسَ الحقَّةَ لا تكون الّا في اتّباع الحِكْمةِ - الفلسفةِ. أُلهِمَ أوجستينُ طلبَ الحكمةِ الحقيقيّةِ، لكنّه سُرعان ما اصطدم بمشكلتَيْنِ.

▪ المشكلةُ الأولى، في اعتقاد مونيكا أنَّ المسيحيَّة كانتْ الشكلَ الأعلى لِلحِكْمة، لكنْ، عندما اتَّجهَ أوجستين الى الكتاب المقدَّس، وجدَ أنَّ هذا الكتابَ على نحوٍ خاصّ قدْ كُتب على نحوٍ سيىء، وأنَّ العديد منْ شخصياتهِ قدْ مارستْ أفعالاً يمجُّها الخلُق على نحوٍ واضح.

▪ المشكلةُ الثانيةُ، ربما يكون أوجستين قدْ ألهمَهُ زعْمُ شيشرونَ بأنَّ السعادةَ الحقَّةَ تأتي منْ الفلسفةِ، لكنّه وجَد الأمرَ صعْباً في التخليّ عنْ أشكالٍ أُخَر منَ السعادة، منْ

قبيلِ الجنسِ ومتَعٍ حسيَّةٍ أُخَر.

• جاءتْ المانويَّة بحلولٍ لهاتَيْنِ المشكلتَيْنِ كلتيهما.

• لِنتذكرْ، أيضاً، كان للمانويَّةِ نوعانِ منَ الأتْباعِ: النُخْبةُ (الصِفْوة) الذين مارسوا حياةَ حصْرٍ وعزوبيّةٍ ونقاء أخلاقيّ، والمستمعون الذين مارسوا الحياةَ الزوجيّةَ المعتادة. وجدَ أوجستين في المانويّة جماعةً تقَدّر العزوبيّةَ والطُهْرَ الأخلاقيّ، لكنّها وفّرتْ مكاناً لِمَنْ أراد ممارسةَ الجنسِ والعيشَ حياةً أخلاقيّةً أقلَّ صرامةً.

• أضفْ الى ما تقدَّم، فسَّرتْ المانويَّةُ سببَ رغبةِ أوجستين في متابعة الفلسفةِ الى جانبِ عدم التخلّيّ عنْ مِتَعٍ جسديَّةٍ معيَّنةٍ. منْ جانبٍ، أوجستينُ هو سَناً منْ نورٍ، الأمرُ الذي يجعله توّاقاً الى الخَيْر. ومنْ جانبٍ آخَرَ، هو مُشتبكٌ في الظلام، خصوصاً، جسدَهُ، الذي يجذبه بعيداً عنْ الخَيْر. الصراعُ بينَ النُورِ والظلامِ الذي يقع في قلْبِ المانويَّةِ أوضحَ رغباتِ أوجستينَ الخاصَّةَ المتصارعةَ.

• لكلِّ هذهِ الأسباب، أصبح أوجستين مُستَمِعاً، بعدَ أعوامٍ قليلةٍ، بدأ يشكُّ في التعاليم المانويَّةِ. في العام ٣٨٤م، ارتحل الى ميلان، واكتشف منظوراتٍ جديدةً زادتْ في انفصالهِ عنْ المانويَّة.

▪ أوَّلُها، صادفَ أوجستين كتاباتِ إفلوطينَ الذي منحَهُ طريقةً جديدةً في التفكير حولَ الخَيْرِ والشّرِّ.

▪ ثانيها، سمعَ أوجستين وعْظَ أسقف ميلان المسيحيّ، أمبروس (٣٣٩-٣٩٧). فسَّرَ أمبروسُ نشاطاتٍ مشكوكاً فيها منْ الناحية الأخلاقيَّة لشخصياتٍ في العهدِ القديم، على نحوٍ رَمْزيّ، وبهذه الطريقةِ، ساعدَ أوجستينَ على أنْ يرى أنَّ المسيحيَّةَ يمكن أن تُغْنَى وتهذَّبَ على نحوٍ فلسفيّ.

▪ في العام ٣٨٦م أعلن أوجستين اعتناقَهُ المسيحيّةَ. وعادَ بعدَ ذلك الى شمال أفريقيا، وفي الآخِرِ أصبحَ أسقفَ هيبو. وعلى الرغْم منْ ذلك، استَمرَّتْ المانويَّة تصوغُ فكرَهُ.

أوجستين: حولَ اللهِ، والشرّ، والخطيئةِ:

• كرّس أوجستين العديد منْ كتاباته لِدَحْض الأفكارِ المانويَّةِ، وعلى وجهٍ خاصٍ، تلكَ الأفكار المتعلقة باللهِ، والشرّ، والخطيئةِ.

▪ اعتقدَ المانويّون بأنَّ الخيرَ، مُمثَّلاً في اللهِ، والشرَّ ويقودهُ الشيطانُ، كلاهما مبدآنِ أبديَّانِ. لقدْ كانا منفصلَيْنِ على نحوٍ تامٍ أصلاً، لكنْ، عندما هاجم الشرُّ الخيرَ وقعتْ قِطَعٌ من نورِ الخيْرِ في فخِّ ظلامِ الشرّ.

▪ يختبر البشرُ هذا الخليطَ منْ الخيْرِ والشرّ في شخوصهم. نفوسُنا الحقيقيّةُ هي قِطَعٌ منْ النُّورِ الخيّر، لكنَّ أجسادَنا مؤلفةٌ منْ الظلامِ الشّرير. لهذا السبب نشعر أنَّنا ممزَّقون بينَ الخيرِ والشرّ.

▪ يجب أنْ يكون هدفُنا أنْ نعيشَ حياتنا لكي يُحرَّر النُّورُ في الآخِرِ منْ الظلام ويعود الى عالَمِ النُّور، مُمَكِّناً الضوءَ والظلامَ- الخيرَ والشرَّ - ليكونا منفصلَيْنِ على نحو تامٍّ مَرَّةً أخرى.

▪ قبالَ هذهِ التعاليمِ، رأى أوجستينُ أنَّ إلهَ المانويّين لا يمكن أنْ يكون إلهاً حقيقيّاً لأنَّهُ كانَ عِرضَةً للشّرِ. وكلُّ إلهٍ حقيقيٌّ يجب أنْ يكون قاهراً قديراً، ولمْ يكن الإلهُ المانويُّ على هذا النحوِ، لأنَّ الشّرَّ كان قادراً على الإمساك ببعضِ النُّور والاحتفاظ به. قال أوجستين بأنَّ الإلهَ الجديرَ بالعبادة هو القديرُ المطلقُ القدرةِ، وليس مَنْ يؤثِّر فيه الشَّرُّ.

▪ إذاً، ما أصلُ الشرّ؟ رأى أتباعُ ماني أنَّ الشرَّ لا يزال قائماً الى جانب الخيْر. لقدْ كان قوةً فعَّالةً مستقلةً حاضرةً في أجسادنا وأشياءِ أُخَر في العالم. لكنَّ أوجستينَ كانَ قدْ تعلَّم منْ إفلوطين أنَّ الشرَّ هو، ببساطة، فقدانُ الخَيْر. كلُّ شيءٍ في الوجودِ- الحيوانُ، النباتُ، أجسادُنا، وحتّى الشيطان - هو خيرٌ. بمُقْتضى وجودِهِ. والشرُّ في هذهِ الأشياء هو افتقادُ الخَيْرِ - فشَلُ هذهِ الأشياء في أنْ تكون خيْراً على نحوٍ كاملٍ وتامّ.

• ولِمَ يرغب البشَرُ في فعل الخير والشرّ معاً؟ وضَّح المانويّون الأمرَ بأنَّنا خليطٌ منْ

عناصرِ الخيْرِ والشرّ التي هي في صراعٍ بيْنها، لكنّ أوجستينَ قال بأنّ هذا كان اغراقاً في التبسيط.

■ لا يشعر النّاسُ أنّهم ممزّقون بينَ بديلَيْن، الخيرِ والشرّ، بَلْ، لدينا رغباتٌ متعدّدةٌ ومعقّدةٌ وغامضةٌ. وإرادتُنا مقسمَّةٌ الى العديد منْ الأشياءِ التي نريدُ وبعضُها هو خيرٌ فحسْبُ.

■ منْ أجل السعادةِ الحقّة والصلاحِ الحقّ، يجب أنْ لا نرغبَ في، أو نحبَّ، الّا شيئاً واحداً - الخيْرَ النهائيّ، الله. فإنْ فعلنا ذلك، كلُّ ما نرغبهُ سيتّضحُ في ترتيبٍ صحيحٍ، عندَها يمكننا نبذُ الأمور السيّئة.

■ وإنْ لمْ نفعلْ، فإنّ إرادَتنا، التي هي مركزُ الرغبةِ والمحبّة، ستبتعدُ عنْ الله. رُبما نريد محبّةَ اللهِ بملءِ قلوبنا، لكنّنا لا نستطيعُ، إذْ لا يزال فينا رغباتٌ في أشياءٍ أقلّ خيْراً، وفي أشياءٍ سَيئةٍ.

■ هذا الانصرافُ عنْ اللهِ يسبّب نقصاً في حبّنا للهِ. وهذا هو تعريف الشرّ.

■ وهكذا، في معارضةٍ للدعوى المانويّة بأنّ الشرَّ والخطيئة يصدرانِ عنْ مبدأ الشرّ الدائم، رأى أوجستينُ أنّ الشرَّ والخطيئةَ يأتيانِ منْ نقْصٍ في الخيْرِ ومنْ انصراف الإرادةِ البشريّةِ عنْ اللهِ.

أوجستين: حولَ الخطيئةِ والقضاءِ والقدرِ:

• يُعترَض على وجْهة نظر أوجستين عنْ الشرّ بأنّهُ لا أحدَ منّا يتذكّر وقتاً أحببنا فيه الله على نحوٍ كامل لكنّنا بدأنا بعدَ ذلك نرغبُ في أشياء أُخَر. يردُّ أوجستينُ بأنّنا لا ننصرف عنِ الله كأفراد؛ بلْ، انصرافُنا عنهُ في بداية الخلق - عندَ آدم.

• في تفسيرِ أوجستين لسِفْرِ التكوينِ، خلقَ اللهُ آدمَ وحواءَ خيّرَيْن على نحوٍ تامٍ. أحبَّ الاثنانِ اللهَ على نحوٍ كاملٍ، وكانا بدونِ خطيئة. لكنّهما أيضاً كانا يملكانِ إرادة حُرّةً. كانا في حالة منْ الحُريّة في أنْ يُحبّا اللهُ الى الأبدِ ويعيشا الى الأبدِ، أو، أنْ يختارا

الانصراف عنْ اللهِ والابتعادَ عنه وهذا الانصرافُ، كما رأينا، هو الشرُّ.

• وفي رَدّ اللهِ على الابتعادِ عنهُ، حكَمَ اللهُ على نحوٍ عادلٍ وصائب على آدمَ وحواءَ بالموت - لكنْ، ليسَ على آدمَ وحواءَ فحسْبُ. نوعمًا، في أسلوب رُوحيٍّ لا يوضحهُ أوجستينُ على نحوِ التمامِ، كلُّ مَنْ عاش منْ البشَر كانوا قائمينَ في آدمَ وحواء؛ ونحنُ أيضاً قدْ ابتعدنا عنْ اللهِ، ونحنُ كذلك شملتْنا الإدانةُ على نحوٍ عادلٍ. وهكذا، عندما نولَد، فنحنُ مرتكبون للخطيئة قبْلاً؛ أيْ، نرِثُ خطيئةَ آدمَ الأصليّةَ.

• لو كانَ أوجستينُ توقفَ عندَ هذا، رُبما كان سيقولُ القلّةُ بأنّ فكرةَ الخطيئةِ الأصليّةِ هي فكرةٌ مانويّةٌ. لكنْ، عندما أحرجه نقادُهُ في أنْ يفسّر كيفَ ولِمَ انتقلتْ الخطيئةُ الأصليّةُ، ركزَّ على الجنس (sex).

▪ في جنّة عدْنٍ، وقبل اقترافهما الخطيئةَ، كانَ بإمكان آدمَ وحواء ممارسةُ الاتّصال الجنسي، لكنْ، بالنسبةِ لهما، كانَ الاتّصالُ الجنسيُّ سيكون عقلانياً وتحتَ السيطرةِ على نحو تامٍ.

▪ لكنْ، عندما ابتعدَ آدمُ وحواء عنْ اللهِ، انقسمتْ إرادتُهما وفقدا السيطرة على جسديهما. اعتقادُ أوجستين هو أنَّ مسألةَ كوننا نفقد السيطرةَ على نفوسنا في الاتّصال الجنسي - بمعنى أنَّ رغباتنا في حالةِ سيطرةٍ علينا - تُظهر (هذهِ المسألةُ) على نحوٍ دقيق كيفَ دمَّرتْ الخطيئةُ طبيعتَنا. في هذه الحالة يسيّطرُ على الاتصال الجنسي ما يدعوه أوجستين الشهوةَ (concupiscence) التي هي الحُبُّ أو الرغبةُ المنفلتة، ولأنَّ الاتّصالَ الجنسيَّ تغمرُهُ الشهوةُ فإنَّ الحَمْلَ الناتج عنهُ مغمورٌ بالخطيئة.

• كان لدى المانويّين نظرةٌ سلبيّة تجاه الاتّصال الجنسي لأنَّ الحمْلَ يوقعُ أجزاءً أكثر منْ النور في حبائل ظلامِ الأجساد الشريّر. بدأ أوجستينُ رابطاً ارتكابَ الخطيئةِ على نحوٍ مباشرٍ معَ الاتّصال الجنسي ومعَ الجسَد تماماً كما فعل المانويّون. يمكننا أنْ نرى بالاستناد الى رأيِ أوجستين بأنَّه كان عليهِ تفسيرُ كيفيّة أنْ يكون الجميع قدْ ابتعدوا عنْ اللهِ، بطريقةٍ ما: وحالَ أنْ قرّرَ أنَّ كلَّ البشريَّةِ قَدْ ابتعدتْ عنْ اللهِ في

آدمَ وحواءَ، أُصبح التناسلُ الجنسيُّ الوسيلةَ التي بوساطتها نرتبطُ جميعاً بهذَيْنِ الإنسانَيْن الأوّلَيْن.

• إنْ كانتْ الخطيئةُ الأولى تفسِّر كيفَ انتهينا الى إرادتنا الضالَّةِ والمنقسمةِ، كيفَ نستطيعُ النجاةَ منْ الخطيئة ونحصل على الخلاص؟

▪ وجواب أوجستين هو أنَّنا لا يمكننا فعل شيء لمساعدة نفوسنا. إرادتُنا منقسمة على نحوٍ يائسٍ، وبقدرِ ما يمكن أنْ نريدَ، لا يمكننا أنْ نتعلم حبَّ اللهِ بصدقٍ بإمكانيَّتِنا الذاتيَّةِ. دائماً سيكون لدينا رغباتٌ متصارعةٌ ستصرِفُنا وتجرُّنا بعيداً عنْ اللهِ والخيرِ.

▪ الحلُّ الوحيدُ هو أنْ يمنحنا اللهُ نعمةَ الخلاص. يجب أنْ يختار اللهُ شفاءَ الإرادة المنقسمة للشخص وإرجاعِهِ الى الله المُحِبّ. ويعني هذا أنَّ الله يجبُ أنْ يختار مَنْ مِنَ البشر سيُنقَذُ ومَنْ منهم سيُهمَل. هذا هو الجبرُ (القضاء والقدر) - أيْ، فكرةُ أنَّ الله يقرِّر مَنْ الناس الذين سيخلِّصهم، وهؤلاءِ لا يمكنهم أنْ يفعلوا شيئاً منْ لَدُنهم لمغادرة الشرِّ وحُبِّ الله على نحوِ التمامِ.

• لدى أوجستين، كانَ الجَبْرُ خبَراً جيداً. كان منْ السرور الاعتقادُ بأنَّ هذا الخلاص يعتمد على اللهِ على نحو تامّ. وكان أوجستينُ قدْ وجدَ أنَّ من الصعبِ تركَ الاتِّصالِ الجنسيّ ومُتَع أُخَر وتكريسَ حياتهِ للهِ. ولا يمكنه فعْلُ هذا إلّا أنْ يشعر بأنَّ الله يمنحه القوّة على ذلك - كذلك، الجَبْرُ هو نتيجةٌ منطقيَّةٌ للاعتقاد بأنَّ اللهَ قاهرٌ فوقَ عبادِهِ وهو قديْر. إنْ كانَ اللهُ قديراً فلا شيءَ يمكن أنْ يحدث دونَ إرادةِ اللهِ في حدوثِهِ، ويشمل هذا ترْكَ البشريَّةَ الشرَّ وعودتَها الى اللهِ.

-٢٣-

الآثارُ الغنوصيّةُ في الأديانِ الغربيّةِ

الآثارُ الغنوصيّةُ في الأديانِ الغربيّةِ

ماذا حدثَ للغُنوصيّين القدامى ولأفكارِهم؟ هل اختفَوْا، ببساطةٍ، حتّى اكتشاف النصوصِ الغنوصيّةِ في اللغة القِبطيّة في القرن العشرين. رأينا مِنْ قبلُ أنَّ الغُنوصيَّةَ قدْ أثّرتْ في المسيحيَّة الأرثوذكسيَّة، وفي اليهوديَّةِ القديمةِ، وفي الإفلاطونيَّةِ، وكذلك في تطوُّر المانويّة. على الرغْم منْ أنَّ المُدَّةَ الغنوصيَّةَ الكلاسيَّةَ انتهتْ في العام ٤٥٠م، استمرتْ موضوعاتٌ وأفكارٌ منْ الغنوصيَّة القديمةِ موجودةً في العصور الوسطى وما بعدَها. في هذه المحاضرة، سنتفحَّص ثلاثةَ أوْجُهٍ للفكرِ الغُنوصيِّ والفالنتيّنيِّ: صناعةَ الأسطورة، والغُنوص، والثنائيّةَ، التي برزتْ في التاريخ الدينيِّ المتأخِّرِ لأوروبا والشرقِ الأدنى.

صناعةُ الأسطورة:

• خَلَقَ الغُنوصيّون والفالنتينيّون أساطيرَ معقَّدةً أوضحتْ ما اللهُ وكيفَ جاءَ الكونُ الى الوجود. وعلى خلافِ الأساطيرِ اليونانيَّة أو الرومانيَّة، لا تنمازُ الأساطيرُ الغنوصيَّة والفالنتينية بآلهةٍ شبيهةٍ بالبشَر معَ شخصياتٍ وقصَصٍ تقليديَّة. بَلْ، كانتْ هذهِ الأساطيرُ فلسفيَّةً بدرجةٍ عاليةٍ. رُبما تبدو الأساطيرُ الغنوصيَّةُ والفالنتينيَّةُ معقَّدةً كليّاً، لكنَّ هذا التعقيدَ رُبما كانَ جُزءاً منْ جاذبيّتها. فحيثُ كان المؤمنون بها يتعلَّمونَ القدْرَ الأكثرَ عنْ تفاصيل الأسطورة، كانوا يحوزون إحساساً منْ المعرفةِ الشخصيَّة بالأسرارِ الإلهيَّة.

• المَنْدائيّونَ، وهم جماعةٌ دينيَّةٌ وعرقيَّةٌ في دولتَيْ العراقِ وإيرانَ الحديثتَيْن، استمّروا في هذه التراث منْ صناعة الأسطورة حتّى الوقت الحاضر. رُبما ظهر المندائيُّون في القرْن الرابع أو الخامس، وهم الآنَ قَدْ يُعدَّوْن بما يقرب منْ العشرة آلاف

الى خمسة عشر ألفاً.

• ولأنَّ المندائيّين قليلون جداً عدداً وظلّوا يعيشون في عزلةٍ نسبيّةٍ، لمْ يعرفْ العلماءُ الغربيّون الكثير عنْهم حتّى القرن العشرين. حدثَ الفهمُ الأعمقُ للدِينِ المندائيّ بسببِ جهدِ عالمةٍ إنكليزيةٍ اسْمها (إيثيل ستيفنز) أو (الليدي دراور) التي عاشتْ في العراق وجلبتْ الى بريطانيا العديدَ منْ المخطوطاتِ المندائيّة.

• تشبهُ الأساطيرُ المندائيّةُ الأساطيرَ الغُنوصيّةَ، والفالنتينيّةَ، والمانويّةَ. وعلى غرارِ الأسطورةِ المانويّة، تميّزُ الأسطورةُ المندائيّةُ بينَ عالَمِ النُّورِ وعالَم الظلام. ويحكم العالمَيْن آلهةٌ عليا وفيوضاتٌ أدنى. على سبيلِ المثال، الإلهُ العظيمُ أو ملكُ النُّور يحكمُ عالمَ النُّورِ الى جانبِ العديد منْ الكائناتِ الأدنى مِنْهُ. والكائنُ الالهيُّ الأدنى هو بتاهيل[1] (Ptahil)، الإلهُ الذي خلقَ الكونَ الذي نعيش فيه.

• يُحرز المندائيّونَ الاتّصالَ بعالَم النُّور منْ خلالِ طقوسٍ تشتملُ على الماء. ولا بدَّ للمعْبَد المندائيّ منْ حوضٍ يدعى (الأردن) على اسمِ نهرِ الأردن في فلسطين. يربطُ التعميدُ في هذا الحوض الشخصَ معَ عالَمِ النُّور.

• ليوحنّا المعمدانِ دورٌ مهِم في الأسطورةِ والطَقْسِ المندائيّيْن ككاهنٍ ومُعلِّم. ولأنَّ المندائيّينَ قدْ دخلوا في صراعٍ معَ المسيحيّةِ، يقومُ يسوعُ أحياناً بدورٍ سَلْبيّ في أسطورتهم. وفي أحيان أُخَر يكونُ شخصيّةً صالحةً.

• عاشَ المندائيّون كلَّ تاريخِهم تقريباً في ظِلّ الحُكم الإسلاميّ، وفي الجُزْء الأكبر منْ هذا التاريخ، تمتعّوا بحُريّة ممارسةِ عقيدتِهم كـ(أهل كتاب) كاليهوديّةِ والمسيحيّةِ والإسلامِ ذاتِهِ. وتُقدِّمُ الجماعةُ المندائيّةُ رابطةً حيّةً معَ المُدَّة القديمةِ منْ الغنوصيّةِ.

---

(١) ويلفظ بتاحيل. ربما تكون مؤلفة من المصرية بتاح وإيل ملائكي. وهو خالق الكون المادي من المندائية. وغالبًا ما يحمل طابعًا خبيثًا بطبيعته. (المراجع).

الغُنوصُ:

لقدْ كانَ الملمحُ الرئيسُ الثاني للغنوصيَّةِ القديمةِ هو الغُنوصُ (gnosis)، المعرفةُ المباشرةُ باللهِ. استمرَّ السَعْيُ في طلَبِ هذه المعرفةِ في التراث المسيحيِ بعيداً عنْ الجماعاتِ التي أصبحتْ تُعرَف بالمُهَرطقين. في وقتٍ يصلُ القرنَ الثانيَ الميلاديَّ، دعا كليمنتْ في أفكاره الى وجوبِ أنْ يتوقَ المسيحيُّون الى تجاوز مجرَّدِ الإيمانِ (faith) بمبادىءِ الكنيسة الى الحصول على معرفةٍ باللهِ (gnosis). وقال كليمنتْ بأنَّ المسيحيَّ المثاليَّ هو الغُنوصيُّ الحقيقيُّ.

• كان الراهبُ المسيحيُّ أفاجيريوسُ، منْ مدينة بونتس[1] (٣٤٥-٣٩٩م)، واحداً منْ أعظم المعجبين بـ(كليمنتْ). وبعدَ عملٍ قصير كموظفٍ في كنيسةٍ، أُصبحَ أفاجيريوس راهباً في الصحراءِ المصريَّة، حيثُ اجتذب العديدَ منْ التلامذة، وأصبحَ المعلِّمَ الأكبرَ للرُّوحانيَّة في الرهبانيّة المُبْكرة.

▪ وتعاليمُ أفاجيريوس تقتضي أنَّ الراهبَ يمرُّ في حياته الرُّوحيَّة بِمَرحلتَيْنِ. في المرحلةِ الأولى والأطولُ يكون زاهداً ممارساً للزُهْدِ. ومنْ خلال الصَّوْمِ، والعزوبيّةِ، والصلاةِ، وقراءةِ الكتاب المقدَّس، يسعى المتدرِّبُ الى التغلُّب على رغباته الآثمة والى التحرُّر منْ العواطف السَلبيّة. بعدَ ذلكَ يمكن أنْ يصبح الراهبُ غُنوصيّاً، شخصاً ينشغلُ في تأمُّلٍ أعلى في الكتابِ المقدَّسِ، والكونِ، وأخيراً، في اللهِ ذاتِه.

▪ لدى أفاجيريوس، كانَ هدفُ الحياة الرهبانيّةِ هو الحصولُ على رؤيةِ للهِ الذي هو أبعدُ منْ كلِّ التصوراتِ والصورِ. اعتقد أفاجيروس أنَّ الأفكارَ والصورَ التي تملأ عقولَنا هي صالحةٌ أحياناً، لكنَّها في الآخر تذهلنا عنْ اللهِ، الذي هو أبعدُ منْ أيِّ شيءٍ نقولُهُ أو نتخيَّلُهُ. وصَفَ أفاجيريوس تجربةَ الغُنوص باعتبارها رؤيةَ الشخصِ عقلَه كسماءٍ

(١) تعرف بِنْطُس: وتعني البحر. وهو الاسم اليوناني لمنطقة تاريخية تقع على الساحل الجنوبي للبحر الأسود، وتقع في منطقة البحر الأسود الشرقية في تركيا الحديثة. يعتبر تاريخ هذه المنطقة من تاريخ تقدم الإمبراطورية الرومانية نحو الفرات. (المراجع).

بزُرقةِ الياقوت. والهدَفُ منْ حياة الرهْبَنَة هو تخليص العقلِ من كلِّ شيءٍ فيصبحُ لوحةً بيضاءَ يمكن أنْ يُسْقِطَ اللهُ عليها نفسَهُ، في كيفيَّةٍ ما، بدونِ أيّةِ صورٍ.

■ بعدَ موتِ أفاجيروس، أصبحتْ تعاليمُهُ مَوْضعَ جَدَلٍ، وأُدينَ في مؤتمر القسطنطينية في العام ٥٥٣م. مع ذلك، استمرتْ أفكارُهُ لأنَّ الرُّهبان اعتبروها مفيدةً على نحوٍ عميقٍ، فلا يمكن التفريطُ بها.

• مَعْلَمٌ آخرُ في تاريخ المعرفةِ باللهِ العرفانيّةِ في المسيحيَّةِ هو ديونيسيوسُ الكاذبُ الإيروبيجي.[1] ركَّبَ هذا المؤلّف الكتابَ المقدَّس معَ الفلسفةِ الإفلاطونيّة الجديدة، والتُّراثِ الرهبانيّ؛ وبهذا قدْ خلقَ تراثاً جديداً منْ اللاهوتِ العرفانيِّ للمسيحيّين.

■ اعتقدَ ديونيسيوسُ الكاذبُ أنّنا نعرفُ اللهَ بطريقتَيْن؛ الأولى هي أنَّ اللهَ يتدفَّقُ في الخلْقِ ولأنَّ كلَّ شيءٍ يفيضُ منهُ، نحنُ نعرفُ اللهَ منْ خلالِ صورٍ وأسماءٍ مُستقاةٍ منْ الخلْقِ تَظْهَرُ في الكتاب المقدَّس. وهذا يُدعى اللاهوتَ الإيجابيّ، وفيه تُستَعمل تأكيداتٌ حولَ اللهِ للوصولِ الى تنميةِ فهمِ الإنسانِ لهُ.

■ الطريقةُ الثانيةُ لمعرفةِ اللهِ تكون بوساطةِ نَفْيِ أيِّ شيءٍ نؤكِّده حولَه. لأنَّ اللهَ أبعدُ منْ كلِّ أسمائِنا وصورِنا، ومنْ خلالِ هذا اللاهوتِ السَلْبيّ، لا نعرفُ كلَّ شيءٍ أكَّدناهُ حولَ اللهِ.

■ على العِرْفانيّ المسيحيّ أنْ يهتمَّ بكلٍّ منْ الطريقتَين؛ الإيجابيَّةِ والسَلْبيَّةِ، لمعرفةِ اللهِ، متذبذباً بينَ قولِ أشياءٍ عنْ اللهِ، وبينَ إنكارِ تلك الأشياءِ فيما بعدُ. وهذا يُنشيء فراغاً داخلَنا، فراغاً منْ اللامعرفةِ يمكن أنْ تملأَهُ طاقةُ اللهِ المقدَّسة.

■ في هذه الصيغةِ من الغُنوص (المعرفة)، ينفي المؤمنون عقولَهم ونفوسَهم لكيْ يسيطرَ عليها اللهُ. وفي الآخِرِ يحصلون على الغنوص (gnosis)، المعرفة باللهِ، من خلال اللامعرفةِ (a gnosis).

---

(١) ويسمى بالزائف أيضاً، وهو كاهن سوري. (المراجع).

المَثْنَوِيَّةُ:

● كما عرفنا فيما سبق، المثنوية (dualism) هي انقسام الحقيقة (reality) الى زوجَيْنِ متمازِيَنِ على نحوٍ حادٍّ - الخيرُ قبالَ الشرِّ، النورُ قبالَ الظلام، وهكذا دوالَيْك. تبدو المثنويّة في هيأتَيْنِ، معتدلةٍ وصارمةٍ، وكلتا الهيأتينِ يمكن العثور عليها لدى المتطهّرين (cathars)، وهم حركةٌ انتشرتْ في أوروبا الغربية في القرن الثاني عشر الميلاديّ.

■ أخذ المتطهّرونَ اسمَهم منْ كلمة يونانيّةٍ تعني الأشخاص المُتطهّرين[1]، وزعموا تمثيلَهم صيغةً عليا للمسيحيّةِ، صيغةً أطهرَ وأنقى مما رأَوْهُ منْ فسادٍ وتلوثِ الكنيسةِ الكاثوليكيّة الرومانيّة.

■ آمن المتطهرون بإلهَيْنِ: إلهِ صالحٍ مُحِبٍّ، إلهِ العهدِ الجديد، وإلهٍ شرّيرٍ منتقمٍ، إلهِ العهدِ القديم. كذلك، اعتقدوا أنَّ هذا العالمَ الماديَّ شَرٌّ، وأنَّ المسيحَ جاءَ لتحريرِ ذواتِنا الرُّوحيَّةِ منْ سجْنِها.

■ نظَّم المتطهّرون أنفسَهم، كما فعلَ المانويّون، في مستويَيْنِ منْ الأعضاء. تخلّى الكاملون (perfect) عنْ ممارسةِ الجنس والملكيّةِ الخاصّة وامتنعوا عنْ أكلِ اللحم ومنتجات الألبان. واعتقدوا أنّهم حينَ يموتون ستنجوا نفوسُهم منْ هذا العالم. المؤمنونَ الاعتياديّون يدعمونَ الكاملينَ ويعيشون على نحوٍ منْ الزُهْدِ والتقشُّفِ. وحين موتِهم تنتقلُ نفوسُهم (souls) الى أجسادٍ جديدةٍ أُخَر.

■ في حوالَي العام ١٢٠٠م، كسب المتطهّرون العديدَ من الأتباع جنوبَ فرنسا وشمالَ إيطاليا. وقد اجتذبَ المذهبُ التطهُّري النَّاسَ لأنَّه، كما المانويّةِ، قدَّم تفسيراً واضحاً لوجود الشرِّ والألمِ في العالَم، كما جاء بخُطَّة نظاميَّة للحصول على الخلاص. كذلك سمحَ المتطهرون للنساءِ بالوَعْظِ والعمَلِ كزعيماتٍ وانتقدوا

---

(١) الكلمةُ اليونانيّةُ هي kathairein، وتعني يُنظّف أو يُطَهِّر. (المترجم).

فسادَ الأساقفة والكهنة الكاثوليك.

■ لِذا لا يبدو مستغرباً أنَّ الكنيسة الكاثوليكيَّة رأتْ في النِزْعة التطهُّرية تهديداً. في العام ١٢٠٩م، دعا البابا أنوسنت الثالثُ الى حملة عسكرية لاقتلاع المتطهرين منْ جنوب فرنسا. وتُعرَف هذهِ الحملةُ بالحملةِ الصليبيةِ الأليجينيةِ (الحملةِ ضدَّ الكاثاريّين)، ودامتْ عشرين عاماً. وفي أوائل القرن الثالث عشر اختفتْ التَطَهُّريَّةُ.

● وفي نفْسِ الوقتِ الذي ظهرتْ به التطهُّريَّة في أوربا الغربيّة، ظهرَ شَكلٌ يهوديٌّ منْ الدينِ الباطنيّ في بروفنس وشمال أسبانيا - القبالا. تُبدي القبالا بعضَ أوجهِ الشبهِ البارزةِ بالغنوصيَّةِ.

■ تُرَوِّجُ القبالا تعاليمَ تقول بأنَّ الإلهَ النهائيَّ لا يُعرَف تماماً. أنَّه عين سوف (Ein sof) (اللانهائيُّ)، وهو يفيض تجلِّيَاتٍ، أو تمظهراتٍ، تُدْعى سيفروت (sefirot) أيْ، الفيوضاتِ، أو الانبثاقات. الكثيرُ من كتابات القبالا مكرَّسٌ لتأمُّل الفيوضاتِ (سيفروت) - ما خصائصُها وكيفَ يرتبط بعضُها ببعض. وتعمل الفيوضاتُ كسُلَّم للتأمُّل: بمعنى أنَّ ممارسَ القبالا يحوزُ معرفةً أكبر عنْ الله بتأمُّله كلَّ واحدٍ من الفيوضات.

■ ليستْ القبالا مثنويَّةً على طريقة المانويَّةِ، أو على الطريقة التي كان عليها المُتطهِّرون. كلُّ شيءٍ يصدرُ منْ (عين سوف). لكنَّها حقاً تأخذ الشرَّ بمأخذ الجِدِّ. ثمَّةَ سلسلةٌ منْ الفيوضات السَلبيَّةِ عنْ الله تُكَوِّنُ نظيراً شرّيراً للسيفروت الإلهيِّ.

■ يكرِّس ممارسو القبالا أنفسَهم للتأمُّل والعرفانِ القائمِ على الفولكلورِ ودراسة المعرفةِ المكتَسَبة بالتعلُّم.

بقاءُ التعاليمِ الغُنوصيَّةِ:

● تشبه القبالا الأسطورةَ الغنوصيّة من أوجُهٍ عدَّةٍ مُهمَّةٍ. وهو أمرٌ رُبما يحفزنا للسؤال عمَّا إذا كانتْ التعاليمُ الغنوصيَّةُ قدْ ظلَّتْ بدرجةٍ ما (سِريَّةً) لقرونٍ منْ الزمان. لكنْ،

لمْ يستطعْ أحدٌ أنْ يُظهر خطّاً مستمراً منْ التراث يمتدُّ منْ الغنوصيّين القدامى الى أصحابِ القبالا في القرن الثاني عشر الميلاديّ.

▪ واقعاً، على ما يبدو، ثَمّةَ حاجةٌ ضئيلة لطرْح اتجاهاتٍ تراثيّةٍ لإيضاحِ ظهورِ تأمُّلٍ أسطوريّ، أو مثنويّةٍ، أو اهتمامٍ بالغنوص في أزمنةٍ مختلفة وأماكنَ مختلفةٍ في التاريخ الدينيّ الغربيّ. وتراثُ الكتابِ المقدَّسِ ذاتُهُ يدعو ويشجّعُ على مِثل هذهِ الاستجابات.

• الكتابُ المقدَّس، وخصوصاً، سِفرَ التكوين، يزخرُ بقصَصٍ تثيرُ الأسئلةَ لدى ذوي الفضولِ منْ القرّاء، لِمَ تُخلَق البشريةُ مَرّتَيْن؟ منْ هم (أبناءُ الله) الذين التقينا والذين باشروا نساءً منْ البشَرِ؟ ولِمَ أمرَ اللهُ آدمَ وحواءَ بعدمِ الأكلِ منْ شجرةِ معرفةِ الخيْرِ والشرِّ.

▪ على الرغْم منْ أنَّ العديدَ منْ اليهودِ والمسيحيّين ربما كانوا راضين بقبولٍ على نحوٍ بسيط بهذه القَصَصِ،على الرغمِ منْ هذا، أثارَ آخرون أسئلةً حولَها. وهذه المساءلةُ أدّتْ الى أسئلةٍ أُخَر جديدةٍ - الى أساطيرَ تحاولُ إيضاحَ الطبيعةِ الحقَّةِ للهِ، وأصولِ نفوسنا، وعالمِنا، والشرِّ الذي يسبب الألمَ والمعاناة.

▪ أضِفْ الى ذلك، كانَ هناكَ على الدوام طائفةٌ من الناس مِمَّنْ لمْ يقتنعوا بتعاليم تراثِهم الدينيّ، مهما أمكنَ أنْ تكونَ هذه التعاليمُ. وتلَهّفَ هؤلاءِ الناسُ الى ارتباط إشدَّ وأكثرَ صميميّةً معَ المصدرِ النهائيّ لكلِّ الوجود، بعبارةٍ أخرى، لقدْ طلبوا الغُنوصَ (المعرفة).

▪ مِنْ غيرِ الراجحِ أنْ تكونَ هذهِ الدوافعُ الى مساءَلة التراثِ والإتيانِ بقَصَصٍ جديدةٍ حولَ الوجودِ الإنسانيّ وحولَ عالمِنا وطلبِ المعرفةِ باللهِ، ستختفي (أيْ هذه الدوافع) بأيّ حالٍ مِنْ الأحوال.

-٢٤-

الغُنوصيّةُ في الخيالِ الحديثِ

الغُنوصيّةُ في الخيالِ الحديثِ

بعدَ اكتشافِ مخطوطاتِ نجْع حمّادي في العام ١٩٤٥م، ظهرتْ ترجماتُ هذهِ المصادر في ستينيّاتِ وسبعينيّاتِ القرْن العشرين، وحرّكتْ وتراً حسّاساً لدى العديدِ منْ النّاس، وفي أثناءِ هذه المُدَّة من المساءلة، اجتَذَبَ النّاسَ ما تدعوهُ اليهم الغُنوصيّةُ منْ التمرُّد على المسيحيَّة الأرثوذوكسيَّة، والى طرائقِها الجديدة في التفكُّر في الله. في العقودِ الأخيرة مِنْ القرْن العشرين، تردَّدتْ أفكارٌ غنوصيّةٌ أكثرَ عتمةً بدرجةٍ ما في الثقافة الشعبيَّة، وتشتملُ هذهِ الأفكارُ على احتمالاتٍ في أنَّ الوجودَ الذي نعرفهُ ليسَ حقيقيّاً، وأنَّ القوى الحاكمةَ لهذا العالم خبيثةٌ ضارَّة، وأنَّ هُويّاتِنا غيرُ أكيدة. في هذه المحاضرة، سنستطلع الكيفيّةَ التي أظهر بها الانبهارُ بالغُنوص والغنوصيّةِ القديمةِ نفسَهُ في وقتنا هذا.

الغنوصيّةُ في الثقافةِ الشعبيّةِ:

• روايات الخيالُ العلميِّ لـ(فيليب كَيْ -ديك- Philip K. DicK)[1] (١٩٢٨-١٩٨٢) هي مثالٌ ممتازٌ لجاذبيّةِ الأفكارِ الغنوصيّةِ وسْطَ الثقافةِ الشعبيّة. تُصوِّرُ رواياتُ ديك شركاتٍ ضخْمةً تعرِّضُ حياتَنا لتأثيرِ قوّةٍ عظيمةٍ وحكوماتٍ متسلطةٍ تحدُّ منْ حُرّياتنا. كذلك، كان ديك مهتماً بحالاتِ الوعيِ المتغيّرةِ والفلسفةِ الباطنيّةِ، وقد منحتْه النصوصُ الغنوصيّةُ لنجْع حمّادي أساليبَ جديدةً للتفكير في هذه الثِّيماتِ.

---

(١) روائي أمريكي وكاتب قصص قصيرة، أغلب أعماله من الخيال العلمي، استكشف عدة مواضيع مثل السوسولوجية والسياسية والميتافيزيقية في رواياته التي أظهرت هيمنة الشركات الاحتكارية والحكومات الاستبدادية وتغيير حالة وعي الإنسان، وفي أعماله الأخيرة ركز ديك اهتمامه على ما وراء الطبيعة وعلم اللاهوت. (المراجع).

▪ كانتْ فاليس (valis) واحدةً منْ أواخر رواياتهِ الأكثرَ شهرةً. ظهرتْ الروايةُ في العام ١٩٨٠، تماماً بعدَ قراءة ديك لكتاباتِ نجْع حمّادي. الشخصيّةُ المركزيّة في الكتاب رجلٌ اسمُه (Horselover Fat)، يُعاني سلسلةً من الاحباطاتِ والخسائر في حياته. لكنْ، إذْ يبدو العالمَ لـ(فات) بلا معنىً وعِدائياً على نحو متزايدٍ، يبدأ تلقّيهِ لرسائلِ الوحْي.

▪ توحي لنا الرواية بأنَّ (هورس لفرفات) رُبما لا يكون الشخصَ الذي نعتقدُهُ - أو ليسَ كما يعتقدُ نفسَه. وهذا يأتي بثيمةٍ مهمَّة منَ الإنجيل المنسوبِ الى توما ومنَ المسيحيَّة الفالنتينيَّة: والى أنْ نصلَ الغُنوصَ، نحنُ في حالة انشقاقٍ عنْ أنفسِنا الحقَّةِ. نحن نعيشُ في وجودٍ مُغرَّبٍ، في هذا الوجودِ نَفْسُنا السطحيَّةُ ليستْ هي نَفْسُنا الحقيقيّة. ولا يستطيعُ إنهاءَ هذا التغريبِ للنَّفْسِ وإعادتَنا الى وضعِ الكُلِّ إلاّ الغُنوص (المعرفة) أو، بتعبير (هورس لفرفات) هو (plasmate).

● كان عالِمُ النَّفْسِ كارل يونج (١٨٧٥-١٩٦١) مصدراً آخر لإلهام ديك ومفكرين آخرينَ محدَثينَ. طرح يونج رأياً يقول بأنَّ كلَّ فردٍ لهُ وَعْيُهُ الخاصُّ بهِ، وهو مكوَّنٌ منَ التجاربِ الخاصَّة لهذا الشخص، لكنْ وراءَ أو تحتَ كلِّ وَعْيٍ فرديّ ثَمَّةَ ما يدعوه يونجُ اللاوعيَ الجَمْعيّ.

▪ اللاوعيُ الجَمْعيُّ هو مستودعُ أنماطٍ وأشكالٍ ورموزٍ تمكنّنا منْ فهم تجربتنا منْ خلالِ الحِكْمة الجَمْعيّةِ للبشريَّةِ. تُدعى رموزٌ رئيسةٌ معيَّنةٌ نماذجَ أوليَّةً (archetypes)، تتـكرَّرُ هـذه الـرُموزُ في الثقافةِ البـشريَّة لِأنّـها تحملُ معها رسـائلَ شـفاءٍ آتيـةٍ ممّا وراءَ نفوسِنا.

▪ اعتبرَ ديك ومفكرونَ آخرون منَ القرْن العشرين الأفكارَ المركزيّةَ للغُنوصيَّةِ تمثِّل أُسطوريّاً ما تحدَّثَ عنهُ يونجُ. رُبما يكونُ لكلِّ واحدٍ منّا تجاربُهُ الفرديَّةُ، لكنْ، ثمَّةَ حِكمةٌ عليا هي أعمقُ تسعى الى التواصل معنا. وهذه الحكمةُ تتعالى وتتجاوزُ كلَّ فرديّ خاصّ، معَ ذلك، فنحنُ جميعاً مشتركون فيها. على غرارِ اللاوعي الجَمْعِيّ عندَ

يونج، تريدُ الباربيلو أنْ توصلَ لنا الحقيقةَ الرُّوحانيّةَ؛ وتستطيعُ إيصالها لأنَّ لدينا طاقةً روحيّةً داخلَنا، وهكذا، يمكننا المشاركةُ في الباربيلو.

• يمكنُنا أيضاً أنْ نرى ثِيماتِ اللاوعي الجمعيّ في فيلم (بليد رنر- Blade runner)[1] -العام ١٩٨٢- الذي بُنيَ على أساس إحدى روايات ديك القصيرة (هلْ تحلمُ الروبوتاتُ الشبيهةُ بالبشر بخرفانٍ كهربائية؟). البشرُ الآليّون -androids-، الروبوتاتُ التي لها هيأةُ البشر تتلاءمُ معَ الثِيماتِ الغُنوصيّةِ، لأنّها تثيرُ الأسئلةَ التاليةَ: ماذا يعني الإنسانُ الحقيقيُّ: ما يجعل الإنسانَ إنساناً؟ هلْ النفسُ (soul) ضروريّةٌ؟ هلْ منَ الممكنِ الاعتقادُ بأنَّكَ إنسانٌ عندَما لا تكونُ كذلك؟

▪ تثيرُ الأسطورةُ الغنوصيةُ إمكانيّةَ افتقارِ بعضِ الناس الى العنصرِ الرُّوحيّ الذي يجعلنا جُزْءاً منَ الكُليّةِ الإلهيّةِ. هؤلاءِ الناسُ قدْ يعتقدون أنّهم حقيقيّون (real) لكنَّهم قدْ حُكموا بالفناء الى لا شيء. والحقُّ أنّهُ حتّى النّاس الذين يُنقَذون، قبلَ أنْ يُنقَذوا، هم لا يعرفون مَنْ هُمْ حقّاً. فهُم يعتقدون أنّهم أناسٌ ينتمونَ الى هذا الكونِ، لكنّهم واقعاً كائناتٌ رُوحيّةٌ تنتمي الى الكُليّةِ (entirety).

▪ في فيلم (Blade Runner)، النّاسُ الذي يبدون بشَراً، رُبما في الواقعِ هم (نُسَخ)، لكائناتٍ قدْ صنعتْهم الهندسةُ الحيويّةُ، صُمّموا ليعيشوا بضعةَ أعوام. الشخصياتُ الرئيسةُ هي ريك ديكارد (Rick Deckard)، وعملُه تعقُّبُ المُستنسَخينَ المُتمرّدينَ لكنَّهُ يمكن أنْ يكون واحداً منهم، وراشيل (Rachel)، وهي مُستنسَخةٌ، تُدرك طبيعتَها الحقيقيّة في مسار الفيلم. النزعةُ الغنوصيّةُ في (Blade Runner) تكمنُ في موضوعٍ رئيسٍ هو معرفةُ أو عدَمُ معرفةِ مَنْ أنتَ.

(١) كان لهذا الفلم تأثير على العديد من أفلام الخيال العلمي، وألعاب الفيديو، والأنمي، والمسلسلات التلفزيونية. وفي ١٩٩٣، تم انتقاء الفلم ليتم حفظه في السجل الوطني للأفلام التابع لمكتبة الكُنغرس لكونه ذا أهمية ثقافية وتاريخية وجمالية. وفي ٢٠١٧، صدرت تتمة لهذا الفلم Blade Runner 2049. (المراجع).

■ الفيلم الذي له علاقة أوضحُ بالغنوصيَّةِ هو (المصفوفة - The Matrix) (١٩٩٩). في هذا الفيلمِ، الشخصيَّةُ الرئيسةُ اسمُهُ (نيو-New)، وهو إعادةُ ترتيبٍ لأَحرُفِ كلمة (واحد-one)- أو ما يُسمَّى بالجناس التصحيفي)، يُدعى نيو الى إنقاذِ النَّاس.

■ النَّاسُ في الروايةِ لا يعيشون في العالَم الواقعيِّ، بلْ، في المصفوفةِ (Matrix)، برنامجِ حاسوب مصمَّمٍ بوساطة أشكالِ حياةٍ روبوتيَّة لاصطيادِ الناس. يحكمُ الحُكّامُ هذا العالمَ ليُبقوا البشرَ في أماكنِهم. وحقيقةُ الأمرِ، أنَّ النَّاسَ في نوعٍ منَ الغيبوبة، إذْ إنَّ أدمغتَهم منغرسةٌ في العالَم الإفتراضيِّ الذي يظنونهُ واقعياً.

■ نيو (Neo) ورفاقُه خرجوا منَ الغيبوبة، وانفصلوا عنْ المصفوفة، وعرَفوا أنَّهم يعيشون في عالَمٍ كئيبٍ، عالَمِ ما بعدَ نهايةِ العالَم، تُسيِّطرُ عليه آلاتٌ. تمكِّنُهم هذهِ المعرفةُ منَ الدخول ثانيةً الى المصفوفةِ والعملِ بِحُريَّة جديدةٍ فيها. يمكنُهم حرفيّاً أنْ يُخضعوا هذا العالَم لإرادتِهم لأنَّهم قدْ حصلوا على الغُنوص (المعرفةِ) بأنَّ هذا العالمَ ليسَ حقيقيّاً.

> **بعضُ رواياتِ الخيالِ الحديثة تُوسِّع الفكرةَ الغنوصيَّةَ عن القوى المعاديةِ في هذا العالمِ؛ بفضلِ التكنولوجيا، يمكنُ للحُكّامِ الأشرارِ أنْ يراقبونا على نحوٍ أقربَ، وأنْ يسيطروا على الأحداثِ بكمالٍ في السيطرةِ أكثرَ منْ ذي قبل.**

الغنوصيّةُ والدينُ الحديثُ:

• لم يُلهِم اكتشافُ مخطوطاتِ نجع حمّادي الرواياتِ والأفلامَ في ثقافة البوب فحسبُ، بلْ أيضاً، ألهمتْ حركاتٍ دينيّةً جديدةً. والواقعُ، ألآنَ ثَمَّةَ كنيسةٌ مسيحيّةٌ غنوصيَّة تُعرَف باسم (أكليا غنوستيكا)- أيْ، الكنيسةُ الغنوصيّةُ.

• على الرغم منْ أنَّ هذه الكنيسة تُسمّي نفسَها غنوصيَّةً، هيَ في لاهوتِها

وممارستِها تشبهُ على النحوِ الأكثر المسيحيّةَ الفالنتينيَّةَ. الدينُ فيها طقسيٌّ بدرجةٍ عالية وهي، في اتّباع للإنجيلِ الفالنتينيّ المنسوبِ الى فيليب، تؤمنُ بخمسةٍ منْ الأسرار الأساسيّة: التعميدِ، والميرونِ[1]، والقربانِ المقدَّس، والفداءِ، وغرفةِ العرس.

• تظهَرُ الصفةُ الفالنتينيَّةُ للكنيسة في تفانيها لصوفيا، أو، الحِكْمَةِ. يعتقدُ هؤلاءِ المسيحيّون أنَّ صوفيا هبطتْ الى هذا العالمِ الأدنى المخلوقِ، واستمرتْ بفعاليّتها فيهِ مهتمةً بالبشَر ومساعدةً لهم في الرجوع الى الملءِ الذي كانوا قدْ أتَوْا منه.

• الكتُبُ المقدَّسة للكنيسةِ الغنوصيَّةِ تشتملُ على: الكتابِ المقدَّسِ القانونيّ، ونصوصِ نجْع حمّادي، والكتاباتِ المانويَّةِ والمندائيّةِ والهَرْمسيّةِ. تؤلّف الكنيسةُ الطَقْسَ المسيحيَّ الشكليَّ التقليديَّ معَ شغَف في طلبِ المعرفةِ باللهِ أينما وُجِدَت.

استمرارُ الجدلِ حولَ الغُنوصيَّةِ:

• ما إنْ قرأَ المؤرخونَ نصوصَ نجْع حمّادي حتّى تأثروا بالتنوُّعِ العظيمِ في الأفكارِ القَصَصِ والأجناسِ الأدبيةِ فيهِ. ولاحظوا أنَّ القليلَ منْ النصوص تُطابق ما كُتبَ حولَ ما يُدعى بالجماعاتِ الغنوصيَّةِ وسْطَ آباءِ الكنيسةِ. وبدلاً منْ أنْ توضح مخطوطاتُ نجْع حمّادي الغنوصيّةَ، زادتْ على نحوٍ واسعٍ في تنوُّع التفكيرِ حولَ الدين. أحيا هذا التنوُّعُ الكبيرُ الجدلَ الأكثرَ أهميةً في الوقتِ الحاضرِ وسْطَ علماءِ الغنوصيّة القديمة: هل ثَمّةَ وجودٌ حقيقيٌّ لِما يُسمّى (الغنوصيّة)، وإنْ كانَ الأمرُ هكذا فما الغُنوصيَّةُ؟

• في العام ١٩٦٦م، التقتْ جماعةٌ دوليّة منْ العلماء لمناقشةِ مشكلة الغنوصيّة. قرَّرَ هؤلاءِ أنّنا يجبُ أنْ نميّز بدقّة بينَ الغُنوص، الزَعْمِ بحيازةِ معرفةٍ إلهيّةٍ وبينَ الغنوصيَّةِ كنظامٍ اعتقاديّ.

(١) زيت مقدَّس يستعمل للتعميد. (المترجم).

■ يعتقد هؤلاءِ العلماءُ أنَّ للغنوصيَّةِ فكرتَيْن أساسيَّتَيْن؛ أولاهما، أنَّ ثمةَ شرارةً إلهيَّةً في الكائناتِ البشريَّة مصدرُها العالَمُ الرُّوحيُّ، ويجبُ أنْ ننتبَهَ الى هذهِ الشرارة. ثانيهما، انتقلَ جانبٌ منَ الإلهِ الى هذا العالَم مِنْ أجلِ استعادةِ الطاقةِ الإلهيَّةِ المفقودةِ.

■ وِفْقاً لهذا التعريفِ، يجب أنْ لا تُماهى الغنوصيَّةُ معَ أديانٍ منْ قبيلِ اليهوديَّةِ أو المسيحيَّةِ، على الرغْم منْ أنَّها تتفاعلُ معَهما.

• لوقتٍ قريبٍ جداً، دعم بعضُ العلماء فكرةَ كونِ المقولةِ الغنوصيّةِ المفردةِ مشتملةً على العديدِ منْ النصوصِ والجماعات. وهذا يعطي انطباعاً مغلوطاً بأنَّ كلَّ هذهِ الحالاتِ الغنوصيّةِ قدْ كوّنتْ جماعةً دينيّةً واحدةً وهو ما لمْ يحدثْ. ويرى هؤلاءِ العلماءُ أيضاً أنَّ فكرةَ الغنوصيَّةِ تشوّهُ فهمَنا للنصوصِ والسُنَن التي نُضَمنّها فيها. يميل النّاسُ الى أنْ يكون لهم تصوراتٌ مسبَقةٌ معيَّنةٌ حولَ ماهيَّةِ الغنوصيَّةِ.

• تعتقدُ مجموعةٌ أخرى من العلماء بأنَّ الغُنوصيَّةُ لا تزالُ موضوعاً مفيداً في التحليل. فهي تضمُّ جماعاتٍ ونصوصاً دينيَّة تتشاركُ خصائصَ معيَّنةً، حتّى وإنْ لمْ تكوّنْ هذهِ الجماعاتُ والنصوصُ ديناً واحداً.

• مع ذلك، يعتقدُ علماءٌ آخرونَ أنّه كانَ ثَمّةَ دينٌ يُدعى الغنوصيَّةَ، وأنَّ، على وجهِ التقريب، كلَّ مَنْ درسْنا فيما درسناهُ يعودُ الى هذهِ الغنوصيَّةِ. وُجِدَتْ أنواعٌ منْ المسيحيّةِ والإسلامِ، معَ ذلك، لا زلنا نتحدَّثُ عنْ هذهِ الأنواعِ باعتبارِها ديناً واحداً.

• أخيراً، ثَمّةَ طائفةٌ صغيرةٌ من العلماء يوافقونَ على أنّه لا وجودَ لدينٍ واحدٍ يُدعى الغنوصيَّةَ، ورأَوْا أنَّ منْ الصعبِ حَشْرَ العديدِ منْ النصوصِ والتراثاتِ الفكريَّة المختلفةِ في صنفٍ واحدٍ. مع ذلك، هؤلاءِ العلماءُ، كذلك، يعتقدون أنّهُ كان هنالك وجودٌ لجماعةٍ أصليّةٍ قد سُميّتْ غنوصيَّةً - تلكَ الجماعةُ التي أنتجتْ نصوصاً معيَّنةً وطوَّرتْ أسطورةَ الرُّوحِ غيرِ المرئيّةِ، والباربيلو، ويالدابوث.

■ وِفْقاً لهذه الرؤيـة، الناسُ والحركاتُ الأُخَر التي درسناها تتشاركُ موضوعاتٍ وأفكاراً معيَّنة معَ الغنوصيّين الأصليّين، وهذهِ الموضوعاتِ والأفكارِ تشتمل على:

فكرةِ الغنوص المخلِّص، وقوّةِ الأسطورة في إيضاح منْ أينَ أتينا والى أينَ نحنُ ذاهبون، والأمَلِ في تحقيق وحدةٍ معَ الإلهِ، وعلى مستويَيْن؛ ضِمْنَ نفوسِنا، ومعَ العالَمِ الذي هو فوقَنَا.

■ معَ ذلكَ، هذهِ الجماعاتُ والحركاتُ المتأخرة- الفالنتينيُّونَ، والمانويُّونَ، والكاثار (المتطهرون) وغيرُهم - لم تكنْ جزءاً منْ دينٍ واحدٍ يُدعى باسم الغنوصيّة؛ بلْ، كانتْ محاولاتٍ للتعبيرِ عنْ تبصُّر دينيّ يستعملُ الكتبَ المقدّسة، والفلسفاتِ، وطقوسَ الماضي.

■ منَ المهمّ أنْ نلحظ أنّ النصوصَ والجماعاتِ التي درسْنا لا تنتمي الى تراثٍ دينيّ مفقودٍ أو مُختلفٍ عنْ الديانةِ اليهوديّةِ، أو المسيحيّةِ، أو الإسلامِ، أو أديانٍ أُخَر.

■ بَلْ، نحتاجُ الى إدراكِ أنّ طلبَ الغنوصِ، وصنعَ الأسطورة، والرغبةَ في الإتِّحادِ الصوفيّ معَ الله، كلُّ هذهِ كانتْ حاضرةً في التاريخ الدينيّ الغربيّ مُنذ الأزمنةِ القديمةِ. يساعدُنا عزْلُ هذهِ العناصرِ وفرْزُها باعتبارها شيئاً منفصلاً يُدعى بالغنوصيّةِ، على أنْ نرى أنّ هذا التراثَ موجودٌ قائمٌ، لكنّ الخطرَ أنّنا سنفشلُ في رؤية جُزْأَهُ منْ التراثَيْن اليهوديّ والمسيحيّ أيضاً.

■ ما يريدُهُ منّا النّاسُ الذين درسْناهم في هذهِ الدراسةِ أنْ نقرأَ نصوصَهمْ، وأن نتأمَّلَ بعقولٍ منفتحةٍ ما يقولونَهُ، وأنْ نستمرَّ في طلبنا الحقيقةَ حولَ اللهِ ونفوسِنا - أيْ، أنْ نسعى وراءَ غُنوصِنا الخاصّةِ.

المحتويات

الغنوصية

من نجع حمّادي إلى إنجيل يهودا

قيلَ إنَّ الإنسانَ حيوانٌ يَسْأل. ولقدْ كانَ سؤالُهُ الكبيرُ عَنْ الوجودِ أوّلَ أسئلتِهِ مُنْذُ عصورِهِ الأولى التي امتلكَ فيها القدرةَ على التفكيرِ المنطقيِّ ولا يزال هذا السؤال مدارَ الفكرِ الإنساني وشاغلَ العقولِ الكبيرةِ وهَمَّ الأذهانِ المتفكّرة. يشهدُ على ذلك أساطيرُهُ وهي تُفَسِّرُ بناءَ الكونِ وتحكي سِرَّ ما يحدثُ أمامَ عينيهِ في الطبيعةِ وتُبَرِّرُ ما يتحرَّكُ في داخلِهِ مِنْ عواطفَ ومخاوفَ. وتشهدُ لهُ ترانيمُهُ الدينيةُ وهو يخاطبُ مَنْ ظَنَّهُ أصلَ الوجودِ ومالكَ الأسبابِ التي تديرُ الكونَ والمجتمعَ.

لقدْ حارَ الإنسانُ ولا يزالُ في كُنْهِ الوجودِ وأصلِهِ وطبيعتِهِ ومنتهاهُ. وأنتجَتْ حَيْرَتُهُ هذا التأمُّلَ الذي صنعَ ملاحمَ وأساطيرَ كانَ لها عُمْقٌ، ظَلَّ حَيّاً، تؤوّلهُ عقولٌ مِنْ مُدَدٍ تاريخيّةٍ مختلفةٍ ومدارسَ فكريّةٍ متنوّعةٍ على مَرِّ التاريخِ الفِكريِّ للبشريّةِ. وكثرَ ما بنى عليها الفكرُ الحديثُ مفاهيمَ ومقولاتٍ فما أشبهَ الهمَّ الذهنيَّ للإنسانِ الحديثِ بإنسانِ عصرٍ كانَ قَبْلَ آلافٍ مِنَ السنين في المسائلِ الكبرى. وكانتْ الغُنوصيّةُ واحدةً مِنْ تجاربِ الإنسانِ الفكريّةِ الكبيرةِ والمعقّدةِ التي تمتدُّ في أصولِها وفي وجودِها الى ما قبلَ المسيحيّة وإنْ اشتهرتْ دراستها ضِمْنَ إطارِ الدينِ المسيحيِّ.

ويتردَّدُ القولُ بأنَّ الغُنوصيّةَ هي دِينٌ وفلسفةٌ وأُسطورةٌ. وهو قولٌ عامٌ صحيحٌ في عمومِهِ. هي دينٌ إذْ إنّها تبحثُ في خالقِ الكونِ وعلاقةِ الإنسانِ بهِ وما يترتبُ على هذا الأمرِ مِنْ سعْيِ الإنسانِ مِنْ أجْلِ خلاصِهِ. وهي فلسَفةٌ لِأنَّها تتأمّلُ الكونَ حقيقةً وأصلاً ونهايةً. وهي أسطورةٌ مصنوعةٌ كما نراها نحنُ. ولكلِّ دينٍ أسطورتُهُ ولكلِّ فلسفةٍ أسطورتُها كذلك لِأنَّ الثلاثةَ: الغُنوصيّةَ والدينَ والفلسفةَ تتأمّل الأمْرَ المُحيِّرَ في الوجود كنهِهِ ومَعْناهُ. ولا يخلو الثلاثةُ مِنْ رُوحِ الشِعْرِ أيضاً لأنَّ الشِعْرَ العظيمَ حوارٌ معَ الوجودِ الغامضِ المُحيِّرِ ومحاولةٌ في التَّقرُّبِ مِنْهُ وكمْ مِنْ فلسفةٍ هيَ قصيدةٌ عظيمةٌ طويلةٌ. وكمْ مِنْ دعوى دينيّةٍ لا تُفهَمُ إلّا بروحِ الشِعْرِ.

ISBN:978-9922-732-38-1
9 789922 732381

DESIGNED BY MOHAMED MAHDI